



الدكتور محمد الجوّادى

شمس الأضياء في أمريكا



شَمْسُ إِسْرَائِيلَ
فِي أَمْرِيكَ

شمس الأصيل في أمريكا

من أدب الرحلات

الكاتب:

د. محمد الجمادى

الطبعة: الثالثة ٢٠٠٣

الناشر: دار جهاد

٢٦ ش اسماعيل أبانطة - لاطوغلى

ت: ٧٩٦٤٧٨٣

الفلاف: الفنان محمد حجي

الخطوط: محمود إبراهيم

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٧٨٤٩

الترقيم اللوى: 977-5684-70-6

الدكتور محمد الجوادى

شمس لا ضيلك
في ارضيك

جهاد للنشر والتوزيع

٢٠٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى روح عاشق النشر،

الأستاذ محمد المعلم

المتقن العربي العظيم

د. محمد الجوادى

مقدمة الطبعة الثانية

قد لا أكون قادراً على حمد الله سبحانه وتعالى أن هياً لى الفرصة لأكتب مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب، ومع عجزى عن الوفاء بحق الحمد والشكر له جل جلاله فانى أرجوه أن يهدينى إلى السبيل الذى يمكنى به من حمده على هذه النعمة المسداة.

بدأت كتابة هذا الكتاب فى كليفيلاند، وانتهيت من معظمه هناك ثم إنى عدت إلى ما كتبت وأعدت ترتيبه على هذا النحو الذى يطالعه القارىء، واختصرت أكثر من نصف ما كتبت فقد كنت حريصاً على ألا يتعدى حجمه قدراً معيناً، ولهذا فانى لم أكن اندهش حين كان القراء والزملاء يعبرون لى عن ملاحظتهم للتركيز الشديد أو سرعة الانتقال بين فقرات الفصل الواحد، ولم يكن مثل هذا ليتعارض مع هدفى من الكتاب فلم أكن أريد به استقصاء حياتى هنالك أو ذكرياتى عنها ولكنى كنت

فى حقيقة الأمر مولعاً بوصف الحضارة كما أتىح لى أن أراها، وليس من شك فى أننى استشعر بعض الندم على بعض ما حذفتم، ولكنى بالطبع لا أعرف على وجه التحديد هل يحق لى أن أندم أم لا، كما أنى لا أعرف لا على وجه التحديد ولا على وجه التقريب تلك الأجزاء المحذوفة من كتابتى الأولى التى ينبغى لى - أو يجوز لى - أن أندم على أنى لم أقدمها للقراء.

ومع هذا فإن شمس الأصيل فى أمريكا، يظل من أحب الأعمال إلى قلبى، مع أنه ليس هناك عمل من أعمالى ليس من أحب الأعمال.. وهكذا فإنى قد أسىء استخدام أفعل التفضيل كما يفعل كثيرون، ولكنى أكاد أجزم بأن هذا الكتاب يحتل مكانة رفيعة فى نفسى، أقول هذا وأتذكر أننى كنت فى وقت من الأوقات أختار شمس الأصيل من بين كتبى لأهديه إلى الذين يسألونى كتاباً واحداً منها.. لماذا؟ لست أدرى. هل أنا أتهرب من نفسى إلى هذا الحد؟ أم أننى فى الواقع استكثر على السعادة أن تضيق بفعل الاستكناه.. لست أدرى.



إنما يبقى لى أن أقول شيئاً مهماً لعله يعطينا فكرة عن المناخ الذى نكتب فيه، ما نكتب وننشر فيه بعض ما نكتب، فقد كان هذا الكتاب معداً للنشر منذ أواسط عام ١٩٩١ ولكنه لم يصدر إلا فى ربيع ١٩٩٥، وأنا على كل الأحوال سعيد إلى أقصى درجات السعادة بصدوره، ثم بطبعته الثانية هذه التى أدعو الله أن تلقى قبول الذين لم يتح لى حظى أن يكونوا من قراء الطبعة الأولى.. ولكنى مع هذا لا أجد حرجاً فى لوم نفسى وزملائى من الذين يكتبون حين يتقاعسون عن إبراز أعمالهم للقراء فى الوقت المناسب، وأنا أعرف مدى المعاناة التى نعانيها جميعاً، ولكنى فى حقيقة الأمر لا أعتقد أن عذراً مهما كان خطره يمكن أن يكون مقبولاً حين تبقى أعمالنا

حبيسة الأدرج .. ولعلى بهذا أشهد القراء على نفسى التى قد تجد بعض العنت، ولكنها ملومة إلى أقصى حد، فى تقاعسها عن بذل الجهود فى سبيل خروج كتاباتى الأخرى التى لاتزال حبيسة الأدرج .. وإنى لأرجو الله جل جلاله أن يرزقنى التوفيق فى أداء بعض حق وطنى ومواطنى على.



وليس من شك أن دراسة المجتمع الأمريكى والحضارة الأمريكية تأتى فى مقدمة الأولويات الثقافية لمجتمعنا العربى المعاصر، ولست أزعم سبيلاً محدداً لهذه الدراسة ولكنى أستطيع القول بأهمية كل كتابة قادرة على إلقاء الضوء على هذه الحضارة بكل جوانبها، يستوى فى هذا الإعجاب والنقد كما يستوى الولاء والعداء، كما يستوى التوجس والتشبهت .. فمع كل هذه المشاعر المتضاربة يبقى للقارىء أن يستشف الحقيقة وأن يفيد من الحقيقة العابرة فى تكوين الصورة الكلية القادرة على صياغة الموقف الذى ينبغى أن يكون قادراً، معه، على تحقيق الإفادة لوطننا وتجنب الانسحاق أو التبعية.

وإنى لأذكر أن انبهارى بأى جزئية لايتعدها إلى أخرى، كما أذكر أن انتقادى لأية جزئية أخرى لايتعدها إلى أخرى، ومع هذا فإنى أستشعر فى نفسى قدرة على فهم روح هذه الحياة، وأستشعر فى كتاباتى كذلك قدرة على تصوير هذا الذى فهمت، ولهذا كله فإنى حفىٌّ بأن يقرأ الناس كتابى هذا، وأن يبدوا فيه ما يشاءون من نقد وتصحيح.

هذا وبالله التوفيق

د. محمد الجوادى

شكر وتقدير

تفضل على العلامة الجليل الأستاذ الدكتور عبدالحافظ حلمي والكاتب الصحفي
الفاضل الأستاذ عبدالعال الباقوري فتكرما بقراءة الطبعة الأولى من هذا الكتاب،
وسجلا بعض التصويبات لما احتوته من أخطاء، وقد التزمت في هذه الطبعة بتصويب
كل ما رأيا تصويبه شاكرا لهما عطفهما، وكريم خلقها، وعطاءهما المتواصل.
أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمتعهما بالصحة والسعادة والعافية وأن يديم الانتفاع
بفضلهما العميم، وعلمهما الغزير، وخلقهما القويم.

مقدمة الطبعة الأولى

كان من حظى أن أزور أمريكا عام ١٩٨٣ ، وكان من حظى أن أزور أمريكا عام ١٩٩١ ، ولكنى بدأت الزيارتين بنفسيتين مختلفتين ، فقبل الزيارة الأولى كنت فى غاية الشوق إلى زيارة أمريكا وجاءت الفرصة الأولى فى ١٩٧٨ ، ولكنى كنت يومها قد بدأت خطوات السفر إلى الأراضى المقدسة لحج بيت الله ، وجاءت الفرصة الثانية فى ١٩٨٣ فلم أتوان .

كانت دعوة لحضور ندوة عن الشيخوخة والتقدم التكنولوجى لمدة ثلاثة أيام فقط ولكنى انتهزت الفرصة وأثريت الزيارة بعدة برامج خططت لها قبل السفر ثم فى أثناء وجودى فى أمريكا نفسها . وعن هذه الزيارة كتبت فصلا من كتاب «رحلات شاب مسلم» ، دار الصحوة ، ١٩٨٧ ، ، الطبعة الثانية ، دار الشروق ١٩٩٦ ، ، الطبعة الثالثة ، دار جهاد ٢٠٠٣ .

وفيما بين ١٩٨٣ و ١٩٩١ جاءتني الفرصة لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية ولكنني كنت متردداً ربما بأكثر مما كنت متحمساً فيما مضى لزيارة أمريكا.

بل إنني في إحدى المرات حصلت على تأشيرة الدخول وحجزت تذكرة الطيران ولكنني في آخر لحظة آثرت البقاء في القاهرة لأقطع خطوات كبيرة في عمل تاريخي كبير لم أنته منه بعد، وفي مرة أخرى كانت أمامي فرصة محددة باليوم لبدء زيارة طبية ذهبية لواحد من أكبر مراكز طب القلب في أمريكا والعالم، ولكنني آثرت أن أبقى حتى لا ينفرد عقد ما بذلت من جهد في رسالة الدكتوراه.

وفي آخر ١٩٩٠ كان عليّ، على ما أبلغت تليفونيا وتلغرافيا أربع مرات في يومين متتالين، أن أتوجه من فوري للكشف الطبي، وفي اليوم التالي للسفارة، وفي اليوم الثالث أو الرابع أستقل الطائرة لأكون في جورجيا حيث يُقدر لي أن أقضى ثمانية عشر شهراً في ظل منحة السلام التي حصلت عليها لجمع المادة العلمية للدكتوراه.. ولكنني اعتذرت فلم أشأ أن أسافر لمجرد السفر، وبخاصة أنني كنت قد ناقشت رسالة الدكتوراه منذ ثلاثة شهور.



أحب أن أعترف أنني ظللت متردداً في قرار زيارة أمريكا حتى بعد أن وصلت الطائرة إلى باريس ثم إلى نيويورك ثم إلى صالة مطار جون هوبكنز بكليفلاند، ساعتها كنت أتحرك وقد تملكني التردد تماماً بينما أنا أحمل حقيبتى الخفيفتين، وفجأة وجدت اسمي على لافتة يحملها شاب وسيم يسألني هل نذهب لاستلام الحقيبة فقلت له ليس لي إلا هاتين، فحمل عنى إحداهما وخرجنا من صالة المطار لأجد أمامي مباشرة سيارة بيضاء طويلة ذات أبواب ستة كأنها هي سيارة ريتشارد، في مسلسل «فالكون كريست»،.. تمهلت لأتذكر فالكون كريست وأنجيلا

وريتشارد وماجى وميلسيا والصينى العجوز، وبدا كما لو أننى سأستغرق فى استدعاء
ذكريات.. أو قل إن شيئاً من الشرود اعترانى..

وسرعان ما أفقت لأجد أن حقيبة هذه السيارة مفتوحة وأن حقيبتي قد استقرتا
هناك وها هو الشاب الوسيم يغلق باب السيارة ويتقدم إلى الباب الخلفى الأيمن
ليفتحه وليدعونى إلى الركوب، وينتظر حتى أجلس ثم يتفضل بأن يشير إلى عشرة
أزرار كهربائية فى سقف السيارة فى متناول يدي ويقول إن هذه هى مفاتيح كل
شئ فى هذا الصالون.. ويغلق الباب على وينصرف إلى الناحية اليسرى ليفتح
بابه، ويربط حزامه ويقع بنا!!.



فى هذه اللحظة فقط بدأت أحس أنه لم يكن ينبغى لى أن أتردد فى مثل هذه
الزيارة. أنا أربأ بك عن أن تسارع فتنهمنى بأننى انبهرت حين ركبت الليموزين
الأمريكاني.. ولكنى لن ألومك إذا اتهمتنى.. حتى ولو امت نفسى لو اتهمتنى
بهذا.. لى الحق فى أن ألوم نفسى.. ولنفسى الحق فى أن تلومنى.... ولكنى لن
ألومك إذا ركبت صالونا دائرياً جميلاً ينظر كل من فيه إلى بعضهم، تضغط زراً
فيضىء التلفزيون، وزراً آخر فينضبط التكييف، وآخر فيعمل الراديو، ورابعاً فتتنزل
ستارة زجاجية بينك وبين السائق فى كابينته بحيث لا يسمعك، وخامساً فتتنزل
ستارة معدنية سوداء بينك وبين السائق بحيث لا يرى ما تفعل، وسادساً فتضىء
الأضواء الجانبية الهادئة، وسابعاً فتضىء الأنوار السقفية المبهرة، وثامناً فتؤمن
إغلاق الأبواب عليك... إلخ.

والى جوار يدك اليمنى فى باطن باب السيارة الريموت الذى يضبط لك ما تشاء
من قنوات التلفزيون وصورته.. إلخ. ومفاتيح قنوات الراديو. وأشياء أخرى.

ثم هذا الصالون الجميل المسمى بالليموزين يتحرك وكأنه لا يتحرك، ويسرع وكأنه واقف، ويعبر طرقاً من فوقها طرق، ومن تحتها طرق، وعن يمينها طرق، وعن يسارها طرق... وبينما الجليد يغطي أرضاً إلى يمينك.. فإن الخضرة تغطي الأرض التي إلى الناحية الأخرى.. والأضواء المبهرة أو الملونة تأتي من بعيد وسرعان ما تخبو ثم تعود..

وهذا هو طريقنا إلى المدينة شأن كل مطار إلى مدينة - أحياناً نراه جميلاً حتى لو كان موحشاً، وأحياناً يكون كطريق باريس أو القاهرة أو بومباي عامراً بكل ما يبعث على الراحة والسعادة ولكن حرارة الجو أو رطوبته ومشقة الطائرة من قبل تجعلك تود لو ينتهي هذا الطريق بزحامه وإشاراته لتعود إلى مشاهدته مرة أخرى! وأحياناً ما يكون هذا الطريق شيئاً آخر غير الدولة التي هو فيها، كطريق المطار في نيروبي عاصمة كينيا.



ومع أن الطريق من جون هوبكنز إلى كليفلاند ليس فيه شيء مميز عن أمريكا التي نعرفها جميعاً والتي زرتها من قبل.. إلا أن ترددي في السفر إلى أمريكا كان قد قارب التلاشي تماماً حين كنت لا أزال في هذا الطريق. بل ربما بدأت ألوم نفسي على تفريطي في الفرص المتكررة التي اعتذرت عنها.

وطيلة الفترة التي قضيتها بعد ذلك في أمريكا.. كنت أعود إلى التردد، لا لكي أتردد فحسب ولكن لأحكم على نفسي: هل أصبت؟ أم أخطأت؟.. لا أقصد في هذه المرة فحسب، ولكن في المرات الأخرى التي ترددت فيها في المجيء..

وتعود بي الذكريات إلى أوقات كثيرة بات فيها كل من حولي مقتنعاً بأنني على

وشك الهجرة إلى هذا البلاد! وأنا متعجب من أين جاءهم الاقتناع الذي لم ألمسه في
نفسى حتى الآن ولو لحظة واحدة! ولم أمهد له أبداً بأى إجراء!!.

هل أنا محقٌ فى تعجبى؟

أم أننى هاجرت من دون أن أدرى؟

تعالوا بنا نقرأ هذه الصفحات المتفرقة لعلنا نستطيع أن نستكشف معاً الإنسان
والمكان والزمان..

بل لعلكم تستطيعون أن تكتشفوا ما لم أستطع استكشافه حتى الآن وإن رأيته
بعينى، ووصفته لكم فى هذه الصفحات!

د. محمد الجوادى

١١ أبريل ١٩٩١

هل تغيرت أمريكا

هل تغيرت أمريكا

(١)

هل تغيرت أمريكا.. هل غيرت أمريكا نظرتها إلى العالم؟

كنت أتحدث في عشاء (بالنسبة لي إفتار رمضانى) فى نادى كليفيالاند للتزحلق على الجليد (Cleveland Skating Club) فى اليوم التالى لوفاة الأديب البريطانى جراهام جرين، ولا أعرف ما الذى قادنى إلى أن أقول: إنه من الطريف أن جراهام جرين لم يحصل فى الخمسينيات على تأشيرة دخول الولايات المتحدة الأمريكية بسبب تعاطفه مع الاتجاهات الشيوعية وذلك تحت سيطرة سياسة المكارثية التى تعتزم أمريكا التخلي عنها نهائياً هذا العام.. ربما.. أردفت: إن حمى عداوة الشيوعية كانت تنتاب أمريكا فى هذه الفترة.

أما اليوم فقد تفضلت إحدى السيدات الحاضرات فروت لى كيف يأتى الروس

اليوم إلى أمريكا في جماعات، وأنها شخصياً تُفاجأ في المدرسة التي تعمل بها بمجموعة مترابطة من الأطفال الروس جاءوا مع بعضهم، وقبلتهم المدرسة مع بعضهم أيضاً، ومهدت لهم دروساً تعليمية تهيئ لهم الانخراط في التعليم الأمريكي بأقصى سرعة.. وسرعان ما ينجح هؤلاء في الانخراط في الحياة الأمريكية.. هؤلاء الذين جاءوا وكانهم لا يعرفون حرفاً من الإنجليزية على حد تعبير محدثتنا!!.

إذاً أمريكا لم تتغير، ولكنها لازالت توظف كل ما هو متاح لها فيما هي محتاجة إليه.. والحاجة تتغير مع الزمن، وتغير أمريكا بالتالي في توظيفها للمتاح فتبدو وكأنها تتغير!!.



تسألني مزيداً من الإيضاح فدعني أتحدث معك عن قطاع الطب.

تصور لو أن أي قسم من الأقسام في أي مستشفى من المستشفيات الأمريكية قد استبعد من أطباء هذا القسم أولئك الأوروبيين والشرقيين والعرب واللاتينيين (القادمين من أمريكا الجنوبية) أي كل أولئك الذين حصلوا على شهادة المعادلة قبل أن ينخرطوا في الطب الأمريكي، احصر هؤلاء واستبعدهم من العمل في هذا المستشفى. ستجد أنك ربما تختزل القسم إلى أقل من نصفه وربما إلى أقل من ريعه.. هل سيتوقف القسم. لا. لن يتوقف في أمريكا عملٌ أبداً، ولكن مستوى الأداء والامتياز سينخفض بالطبع.

أمريكا ليست بلد الأمريكيين وحدهم وإنما هي بلد كل العاملين المجددين المتميزين، هكذا فهم الأمريكيون معنى أمريكا منذ بدأوا يقيمون إمبراطوريتهم..

وهكذا أفهمتهم امبراطوريتهم فيما بعد من دون أن تتحدث الامبراطورية.. إنما هم يشبون فيجدون بلدهم يتقبل من يضيف إليه فيجدون أنفسهم جيلاً بعد جيل حريصين على أن يتقبلوا كل من يؤملون فيه أن يضيف إليهم.

وهكذا يمكن أن تتضاءل العنصرية القومية في أمريكا حتى تصل في رأى البعض إلى العدم، وفي رأى البعض الآخر إلى العدم المعدوم! ولكن بعض الساسة الأمريكيين يأتون في بعض اللحظات ليؤججوا مشاعر عنصرية تحت شعارات أخرى براقه فاذا هم ينتقصون من روح أمريكا ومزاياها.

ولكن أمريكا في الوقت ذاته ليست بلد كل المهاجرين ولا كل الطموحين أو كل الشاردين أو الذين يجيئون من شذاذ الآفاق. أمريكا بلد الذين يجيئون لمهمة محددة تحتاجها أمريكا قبل أن يحتاجوها هم.

هل من حقى أن أستطرد لأحكى لك ياسيدى أن بلاداً عربية مرت في العقدين الأخيرين بالفرصة الكبرى التى تتيح لها أن تفيد من التجربة الإيجابية التى خاضتها أمريكا حين طُعمت شعبها على النحو الذى طعمته به. والذى لازالت تطعمه به؟

نعم كان فى وسع بلاد العرب الغنية وهى تستجلب التكنولوجيا العظيمة التى استوردتها أن تتخلى بعض الشيء عن قومياتها المحدودة لتعطى الجنسية الكاملة لأولئك الخبراء والفنيين الذين يديرون حياتها التكنوقراطية بل وأن تغريهم على حمل هذه الجنسية بكل الوسائل التى تملكها، ساعتها لم يكن من حق أحد أن يفكر فيما بينه وبين نفسه فى أنه موجود هناك فى تلك البلاد إلى حين، وإنما كانت هذه المجتمعات قادرة على تذويب عدد كبير من الكفاءات الممتازة فى كيان هذه

المجتمعات، على نحو ما فعل الأمريكان الأوائل بإخوانهم البريطانيين والألمان والفرنسيين والعرب.. الذين ذهبوا بعدهم بمائة سنة أو مائتين.

كان في وسع هذه الدول العربية أن تحتفظ وللأبد بأربعة آلاف طبيب مصرى من خيرة الأطباء المصريين يصبحون في خلال عشرين أو ثلاثين عاماً مرتبطين بهذه الدول من جميع النواحي بارتباطات اللسان والمستقبل والماضى والأسرة والاستثمار والولاء، كما حدث للأوروبيين في أمريكا.

وأنا أتلفت حولى فأجد الطبيب الفلبينى أو الإيرانى أمريكياً - مواطناً أمريكياً تماماً. بينما أسرته بأكملها في الفلبين أو إيران.

أسأل إحدى الفتيات عن الملامح البولندية فيها أمى بولندية؟.. فتقول: بل أبواها جاء من بولندا.. وهذه الزميلة ولدت في سالزبورج ولكنها أمريكية فحين ولدت هناك مات أبواها في طريقهما إلى الولايات المتحدة، ومديرة التأمين الصحى يوغوسلافية الأب والأم، ومديرة النشر ألمانية الزوج والأب، وسكرتيرة قسم الأسنان أيرلندية الأب ألمانية الأم، وطبيب الأسنان إيطالى الأبوين، وسكرتيرة قسم الأوعية الدموية إيطالية الأب أيرلندية الأم، وزميلتنا الجديدة فى الرعاية المركزة سويدية الأب.

ما أكثر مَنْ هم حولى الآن من الذين لم يُولدوا فى أمريكا ومع ذلك فإنهم أمريكيان.. ولكننا فى بعض البلاد العربية وعلى رأسها مصر مصممون على ألا يكون مصرياً إلا مَنْ ولد من أبوين مصريين، وبعد حين سيتطور القانون من تلقاء نفسه بالتقادم وبدون حاجة إلى نصوص ليصبح: ومن جدين مصريين، ثم من سلالة مصرية إلى الجد الرابع!!!، بل ربما وصل الوضع إلى هذا الحال!.

ربما يكون الموقف مختلفاً في مصر، وهي التي استنتت للجنسية قوانين في منتهى العبقرية والليبرالية، ولكنى عبرت عن أوطان عربية أخرى باسم مصر، لأنى أعرف حدودى فى النقد، ولأنى أحب لبلادى أن تبقى على نحو ما عرفها العالم عبقرية وليبرالية

(٢)

وأعود للسؤال الذى بدأتُ به هذا الفصل: هل تغيرت أمريكا حين بدأت ترحب بالروس بعد أن كانت ترفض مجرد دخول الأديب البريطانى جراهام جرين لأنه ربما يناصر الشيوعية مع أنه لم يلتزم إلى الحزب الشيوعى إلا بضعة أسابيع عابرة!!.

ما أسهل أن يجيب المرء على مثل هذا السؤال بطريقة يجتمع فيها الذكاء والخبث ويقول: بل روسيا هى التى تغيرت، حين تركت الشيوعية، وحين تركتها رحبت بها أمريكا.. ولكن المسألة أعمق من هذا بكثير. إن أمريكا بلد مؤسسات وبلد سياسات قبل أن تكون بلد أهواء، أو علاقات مودة أو تشف!!

أمريكا تقدر أنها فى حاجة إلى مائة ألف عامل بسيط، وإلا فإنها ستعانى تسلط العمال البسطاء ودكتاتوريتهم، حتى وإن كانت محدودة الأثر.. إذاً فلا مانع من أن يفض البوليس الطرف عن الذين يقيمون بصفة غير شرعية ليقوموا بمثل هذه الأعمال البسيطة. حتى إذا ما وصلت أمريكا إلى المرحلة التى تحس فيها أن البطالة تهدد اقتصادها، عندئذ يفتح البوليس عينيه أو يتظاهر بأنه يفركها وهو يرى هؤلاء المهاجرين المقيمين بصفة غير شرعية.

نفس الأمر فى الطب - ربما أوافقك (وأنا سعيد بالطبع) أن الطب هو قمة المهن،

وأنه سواء في أمريكا وفي مصر وبنجلاديش يمثل الطموح الأعظم لما يسمى بطبقة الكريمة، في شباب الوطن، نعم. ولكن المسألة في الطب أعمق من هذا - إن الطب يؤدي وظيفة إنسانية ملحة أكثر مما يتحكم في عنصر من عناصر سيادة الدولة نفسها.. ولهذا فإن طموح أي مجتمع ناجح إلى أن تكون الوظائف المؤداة فيه على أعلى مستوى لن يمانع في أن يعطى الفرصة في أداء هذه الوظيفة لمن هم أقدر عليها.. فإذا كان الأطباء الأمريكيون قادرين على أن يؤديوا الأداء الأمثل في سبعين بالمائة من مواقع الخدمات الطبية الحيوية فلا بد من أن تشغل الثلاثون في المائة من المواقع الأخرى بالكفاءات التي ترتفع بها إلى ذات المستويات المأمولة، وإذا كان الأطباء الأمريكيون غير قادرين إلا على خمسين في المائة فلا بد أن يتاح للخمسين في المائة الأخرى من هم أقدر عليها.

صحيح أن المجتمع الأمريكي يتمنى أن يتولى بنفسه مائة في المائة من المواقع بل ويعمل جاهداً على تحقيق هذا الهدف، بل وتتيح له الإمكانيات الموجودة أن يفعل هذا، بل وإحصاءاته قادرة على أن تقول هذا دون معارضة، ولكن حقيقة الأمر شيء آخر.

سأضرب لك مثلاً بمعمل للقثطرة القلبية يضم عشرين طبيباً أمريكياً قادرين تماماً على أداء مختلف أنواع القثاطر بنجاح والتزام تامين، ولكن هناك إلى جانبهم خمسة من الوافدين المتأمركين حديثاً يملكون قدرة على الإضافة إلى هذا المعمل بحيث يتفوق على معمل آخر ليس فيه هؤلاء الخمسة، ربما تتوفر لهم قدرة أكثر على الابتكار، أو التطوير، أو على الدراسات، أو على توفير الوقت، أو توفير الإجراءات والخطوات أياً ما كانت، بل ربما من وجهة نظر اقتصادية بحته عندهم

القدرة على توفير العملاء!! أى تمويل المعمل بالمرضى سواء من خارج أمريكا، أو من داخلها، ربما تكون عندهم بحكم شخصياتهم قدرة على إيجاد سمعة لهذا المعمل فى الأوساط المحلية داخل أمريكا، أو الأوساط الدولية خارجها، ربما تكون عند هؤلاء الرغبة الأكثر تأكيداً فى البقاء فى هذا الموقع لأكثر من عشر سنوات قادمة بينما الأمريكيون الأصليون يتنظرون الفرصة ساعة وراء ساعة للصعود إلى مواقع أكثر أهمية، أو أكثر ربحية، سواء فى معامل أخرى أو مناطق أخرى أو فى مواقع رئاسات، هذه هى بعض العوامل التى تحكم اتخاذ القرار بإدماج المتأمركين الجدد فى مواقع ممتازة، ربما لا يحلم بها الأمريكى حفيد الأمريكيين، ولكن الأمريكى الذى يتخذ القرار يفعل هذا كما يفعل أجداده الأمريكان من قبل حين كانوا ينسون مسألة الأبوين المصريين!!



وهذه هى روح أمريكا، وإذا فقدت أمريكا هذه الروح فلن تكون هناك أمريكا، لن تكون أمريكا فى ذلك الوقت مشكلة نتحدث عنها فحسب، وإنما سوف تكون عدماً ليس هناك من داع للحديث عنه.. إلا عن وجوده الذى سبق العدم.

ربما تستغرب منى ياسيدى هذه القسوة فى التعبير، وتظنها شططاً للقلم، ولكنها الحقيقة.

تسألنى وأين تذهب قوة الدفع يومها؟ ألا تستطيع قوة الدفع هذه أن تنقذ أمريكا عشرين عاماً أو ثلاثين حتى تعود إلى رشدها؟ وتستأنف توظيف أجناس الأرض فى خدمة تقدم أمريكا؟.. أقول لك: لا.. لن تستمر هذه القوة أبداً كما تظن.. لأن أمريكا فى تقدمها تطير، تحلق بعيداً عن كل ما يخلد بالإنسان إلى الأرض حين

يتبع هواه .. قوة الدفع هذه تنقذ السيارات أو المجتمعات التي تسير .. ولكنها لا تنقذ
الطائرة أبداً!!

وتسألنى كيف يحدث ذلك؟ أقول لك: هل رأيت الناس الذين يجيدون السباحة
يتدافعون للقفز من القارب الموشك على الغرق فيعجل تدافعهم بغرق القارب .. تماماً
هذا هو الوضع الحالى فى أمريكا، إذا أحس ناجحوها أن الكيان الأمريكى افتقد روح
الامتياز والتميز، وبات يخلد إلى الماضى بلا عمل ساعتئذ سرعان ما سيتدافع
هؤلاء الناجحون إلى ترك أمريكا تغرق بالمخلدين فيها.

لك أن تتصور أننى فى تفكيرى هذا شبيه بأديب محلق، ولكن المجتمع
الأمريكى نفسه يعرف معنى ما أقول، ويراه بعينه كل يوم حين يجد الشركات
والمؤسسات الفاشلة تخلق أبوابها وينتشر الذين كانوا فيها ليبدأوا «أمريكا» من جديد!!.

(٣)

شاهدت فى التليفزيون الأمريكى لقطات غير متتابعة (بسبب انشغالى عن
متابعتها بعض الأيام) عن قضية أقامها بعض الموظفين الأمريكيين ضد شركة
يابانية كبيرة فصلتهم من عملهم بإجراءات قانونية، سليمة فى الشكل طبعاً،
يتهمونها فيها بالظلم والتحيز لليابانيين. تسألنى هل كانت الحلقات موجهة؟ أقول
لك: نعم .. ولكنها كانت موجهة ضد هؤلاء الأمريكان. أياً ما كان الأمر وانتصر
المحامون لهذا الطرف أو ذاك فمن الواضح جداً أن الشركة كانت على حق.

لاشك أن الدفاع عن الأمريكيين كان ممتازاً، وقد استطاع محاميه أن يخرج
ممثلى الشركة اليابانية مرة تلو أخرى، ولكن الحقيقة التى قدمها العمل الفنى كانت
أن هؤلاء المفصولين يبتزون الشركة اليابانية.

أنا لا أعلم كيف انتهى العمل الفني على شاشة التلفزيون. ولا أعلم الهدف الذي كان وراء هذا المسلسل، ولا أعلم مَنْ الذي أنتج العمل. ولكنني أشهد لك، شهادة لوجه الله، أن كمية الصدق الفني في العمل كانت خيراً ما في العمل كله..

ربما ترك العمل الفني في نفسك أنه ضد الأمريكيين.. ولكن الحقيقة التي لا بد أنك ستدركها بعد برهة قصيرة أن العمل الفني كان يهدف إلى مصلحة الأمريكيين لأنه كان يوقظهم لا أقول من النوم، ولكن من حلم بسيط من أحلام اليقظة المستمرة التي كاد انتباهها يضيع، ولا أقول ضاع منها انتباهها.

وأعود لأتحسر على مسلسلات التلفزيون العربي وأقول: «هكذا ينبغي أن يكون الفن، أو على الأقل.. هكذا ينبغي أن يكون بعض الفن! لكي يبقى بعض آخر للإمتاع، وبعض آخر للموانسة، وبعض آخر للفن نفسه!».



أريد بعد كل هذا الحديث أن أنقل لك عبارة قرأتها الآن وبعد كتابة هذا الحديث بشهر أو أكثر تؤكد هذا المعنى، الذي سوف أقوله:
«إن أمريكا ليست لأحد».

العبارة منسوبة إلى أحد قضاة محكمة الاستئناف في كاليفورنيا واسمه «رينوسو» (Renoso) وهو أحد الذين شاركوا في وضع القواعد الحاكمة لسياسة الهجرة إلى أمريكا، وهو يتحدث فيها عن وحدة الشعب الأمريكي فيقول:

«ما كان الأمريكيون اليوم.. وما كانوا في أي يوم من الأيام أمة واحدة لغوياً أو عقائدياً.. إن أمريكا وحدة سياسية فحسب، وليست وحدة ثقافية أو لغوية أو دينية أو قومية».

(٤)

هل الأمريكيون مُرهَقون متعبون أم مرفَهون منعمون؟ هل يعمل الأمريكيون أكثر مما يستمتعون بحياتهم؟ أم هم يستمتعون بحياتهم أكثر مما يعملون؟ أم هم يوازنون بين المتعة والإجهاد في كفتى الميزان؟

ربما يكون حكمى جانباً الصواب لأنى سأحدث، بحكم مهنتى وعملى، عن طائفة الأطباء التى يصدق عليها الوصف القائل إنها محترفةٌ عمل أو محترفةٌ عملاً فى كل مكان سواء فى أمريكا وفى مصر..

وحتى إذا تحدثت عن الممرضات أو السكرتيرات الطبيبات فإنى أتحدث عن نفس المجال تقريباً، فالعاملون فى المهن الطبية الموازية أو المساعدة يكتسبون مع الوقت قسوة الأطباء على أنفسهم.

ولكنى مع هذا كله، وفى هذه النقطة بالذات، أستطيع أن أقول لك إن المجتمع الأمريكى قد استطاع أن يجبر الأطباء على بعض الراحة.. تسألنى كيف حدث هذا؟ فأعطيك بعض الأمثلة لبعض الوسائل التى نفذ بها المجتمع سياسته غير المنظورة.

الوسيلة الأولى أن عطلة نهاية الأسبوع السبت والأحد مقدسة تماماً، مع أن الطب لا يتوقف عن العمل كما هو معروف ولا بد من أن يكون من بين الأطباء نوبتجى فى المستشفى.. وفى ظل أن العمل فى عطلة نهاية الأسبوع إجبارى ومحدد لكل طبيب مرة واحدة كل عدة أسابيع فقد أصبح الأطباء بالتالى يستمتعون بالعطلات الأخرى المتاحة لهم، أى أنهم أصبحوا يفقدون عطلة ليستمتعوا بثلاث عطلات.. بعد أن كانوا يرتبطون بالعمل ربع الوقت أو عشر الوقت مثلاً فى كل نهايات الأسابيع..

وأحب في هذا المقام أن أضرب مثلاً بنفسى، فلم يحدث أننى فى حياتى عرفت نظاماً محدداً للراحة يوم الخميس والجمعة إلا فى الشهور التسعة التى كنا فيها ثلاثة نواب فقط فى قسم القلب بطب الزقازيق، وكان على كل منا أن يتولى كل العمل يومى الخميس والجمعة كل ثلاثة أسابيع... بالنسبة لى كنت أقضى عطلة فى النوبتجية، وعطلة فى القاهرة الثقافية... وعطلة ثلاثة بعيداً عن القاهرة، وظلت منتظماً على هذه الحال طيلة تلك الشهور التسعة، ولم أتمكن أبداً من أن أمضى على هذا النحو المنظم بعد ذلك!.

ونعود إلى الأمريكيين فنجد أن عمل الفريق يُجبرهم على العمل فى أوقات محددة إذ ليس الفريق متاحاً فى كل حين، بل يصعبُ تماماً تشغيله فى غير أوقاته.. وهكذا أصبح على الأطباء الذين يمارسون تقنيات معينة أن يعرفوا أن الساعات الأربع والعشرين التى يعطيها الله لنا كل صباح ليست للعمل المتواصل، وإنما هى لأشياء كثيرة منها العمل الذى تحدد وقته بالدقيقة من قبل لأنه مرتبط بفريق كامل.



الوسيلة الثانية التى استطاع بها المجتمع الأمريكى أن يبعد الأطباء عن العمل القاتل هى الخروج بالأطباء من أماكن عملهم من حين لآخر وبكثرة ربما تقول عنها إنها فاقت المعقول أو المطلوب. فالندوات دائماً فى الفنادق، والمؤتمرات الدورية دائماً فى أماكن متباعدة، وكل عام تعقد جمعية القلب الأمريكية ندوتها فى مكان غير الذى عقدت فيه ندوتها السابقة، والمؤتمر أسبوع كامل الاشتراك فيه شبه إجبارى وهذا لا يعنى أن جميع الأطباء يدفعون الاشتراك. والأطباء فيه

متوقفون عن العمل في مستشفياتهم إلا لحالات الطوارئ التي يقوم بها حوالى ١٠٪ فقط من القوة البشرية المتاحة.. وكلية أطباء القلب هي الأخرى لها أسبوع آخر.

ربما أنتهز هذه الفرصة الآن لأحدثك عن النشاط العلمى المفروض على أطباء القلب، ولعلك لاحظت فى الفقرة السابقة أن هناك جمعيتين علميتين: جمعية أطباء القلب الأمريكيين، والكلية الأمريكية لأطباء القلب، هذا غير جمعيات ضغط الدم، واختلال النظم، والفسيولوجيا الكهربائية، والمهمازات، والموجات فوق الصوتية، والتصوير الصبغى، والرنين المغناطيسى... الخ الخ) فإذا كان الطبيب مهتماً بمجالين فقط من هذه المجالات العشرة إلى حد أنه يشارك فى اجتماعاتها ومؤتمراتها فإنه مجبر على أن يترك العمل الروتينى إلى أماكن بعيدة عن بيته وعن مستشفاه لأربعة أسابيع على الأقل كل عام.



ولكنى مع هذا أعتقد أن هناك من الوسائل ما هو قادر فى المستقبل على أن يمنع الأطباء من قتل أنفسهم.

أعتقد مثلاً أن ثقافة الأبناء فى الأجيال الجديدة كفيلة بجذب آبائهم معهم إلى المتاحف والأوبرا والمسرح والسينما حينما يزداد رقى هذه الفنون وابتعادها عن التكرار وحرصها على الفن الرفيع والتجديد والإبتكار حتى تحتفظ لنفسها بمكان فى عصر الفيديو والكمبيوتر، أحب أن أقول إن الأجيال الجديدة محظوظة تماماً أو سوف تكون كذلك بعد ضياع الأجيال التى مرت بالبشرية طيلة النصف الثانى من القرن العشرين..

وأحب أن أسجل من الآن ما بدأت ألاحظه تحت الرماد من أن هذه الأجيال سوف تكون قادرة على توجيه الأجيال السابقة عليها إلى كثير من أنماط السعادة والرفق.

أعتقد كذلك أن التطوير الرائد في مناهج الدراسة والتزايد المستمر في إقبال المهنيين والمشتغلين بالعلوم المختلفة على الإنسانيات سوف يفسح المجال لإنسان أكثر رفقاً. وبالتالي لطبيب أكثر إنسانية مع نفسه.

وأعتقد أن وسائل الإعلام جميعاً ستفقد مع الزمن الحمى التي تفرض عليها السطحية والإثارة وستكون في المستقبل حريصة على هدوء الرؤية والتعمق وسوف يتأثر بها الناس أيضاً.

وأعتقد أيضاً أن الحاجة الملحة إلى كثير من الإنفاق وكثير من العمل من أجل تدعيم وتوسيع قواعد الأصول الثابتة في المؤسسات الصحية والطبية على مستوى القطاعين الجماعي والفردى، أعتقد أن هذه الحاجة سوف تخف بعض الشيء بما سوف يكون متاحاً ومتراكماً من أصول ثابتة ضخمة أنفق القرن العشرون معظم أرباحه على بنائها أو تسديد ديونها.

(5)

أحب أن أحدثك بعد هذا كله عن ثراء الأمريكيين. هل زاد ثراؤهم.. أو أنهم كما يحب الناس في بلدى أن يتصوروهم بدأوا يعانون المعاناة التي تنتهى (بعد عمر طويل) بالفقر.

لو كنت زرت أمريكا فى ١٩٥١ أو ١٩٦١ أو ١٩٧١ أو ١٩٨١ ثم زرتها فى ١٩٩١ فسوف تحس أن أمريكا أصبحت حذرة فى إنفاقها، وأصبحت تشكو بصوت

مرتفع من أنها لا يجب أن تنفق على هذا البند مثلاً كل هذا الإنفاق، أو أن التأمين الصحى غير قادر على تغطية نفقات علاج ٣٨ مليون أمريكى، أو أن معظم نفقات الإدارة الأمريكية يمكن اختصارها احتياطاً للمستقبل..

لن تنجو من أن تطالع هذه الأفكار صباح مساء كل يوم فى كل جريدة وكل تقرير تطلع عليه، ولن تنجو أيضاً من سماع هذه العبارات فى دردشتك مع الأمريكان أينما كانوا، ومع كل هذا تتأمل ثروة الأمريكى فتراها تزداد يوماً بعد يوم، وتتضخم، ترتفع الودائع فى بنوكهم كما لم يسبق لها أن ترتفع، وأصولهم الثابتة تتضاعف بما لا يحتاج إلى إحصاء، وأكثر من هذا فإن الدولار أصبح يمثل بالنسبة للاقتصاد العالمى قيمة أكبر بكثير مما كان يمثل فيما مضى، ولك أن تقارن بين سعر الدولار اليوم بالنسبة لأى عملة، وبالنسبة للعملة ذاتها منذ عشر سنوات فإذا أنت تجد الدولار هو الرابع..

وحتى فى الأحوال القليلة التى ينهار فيها الدولار أمام عملة أخرى فإن الدولار وأصحاب الدولار يفعلون هذا من أجل عيون الدولار.. يغرون أثرياء منطقة ما حتى يحولوا أموالهم إلى الدولارات بما يقدمون عليه من رفع سعر الفائدة وما إلى ذلك من المغريات، ويدعمون الدولار حتى لا يكف عن الارتفاع حتى إذا وصلوا إلى نقطة ما لا يعرفها سوى خالقهم هبطوا به فجأة فهبطوا بكل قيم الأشياء التى تحولت إلى دولار، وهم، وحدهم، المستفيدون.. لأنهم حصلوا على كل ما يريدون بالدولار العالى.. ثم أصبح الدولار فى أيدي الناس من حولهم رخيصاً!!.

غاية ما أريد أن أقوله لك هو أن الأمريكان أصبحوا اليوم أكثر وعياً فى إنفاقهم مما كانوا عليه من ذى قبل.. أريد أن أقول لك ذلك حتى أصبح لك ما قد يترامى إلى ظنك من أنهم أصبحوا أقل ثروة عما كانوا عليه من قبل!!!.

(٦)

دعنى الآن أحدثك عن كتاب شائق أتيج لى أن أطلعه هذا الأسبوع، ولكن لا بأس أن أخص لك الفكرة التى فيه .

الكتاب اسمه :- (الأجيال: تاريخ مستقبل أمريكا: ١٥٨٤ - ٢٠٦٩) Generations: The History of America's Future (1584 - 2069) المؤلفان هما شتراوس (٤٤ عاماً) - ونيل هوى (٣٩ عاماً) والكتاب صدر عن دار نشر Morrow ويباع بحوالى ثلاثة وعشرين دولاراً.

دعنى أخص لك الفكرة التى عرضها المؤلفان حيث قسموا أجيال أمريكا إلى ثمانية عشر جيلاً وذلك بأن جعلوا الجيل الواحد ٢٢ عاماً - (معلوماتى السابقة أن بعض علماء الاجتماع اعتمدوا ٣٣ عاماً فى المتوسط بحيث يصبح القرن ممثلاً لثلاثة أجيال) ، ولم يصنفوا الناس حسب إنجازاتهم وتواريخها، ولكنهم أخذوا الزعماء والبارزين بتواريخ ميلادهم - هل تعرف ماذا يعنى هذا؟ أبسط لك الأمور وأضرب لك بمصر مثلاً كنت كثيراً ما استعمله لإثارة لمحات المقارنة الصحيحة فى حديثى السياسى مع بعض من تحدثت إليهم، ولا أذكر إن كنت قد سجلت هذه الفكرة فى مقال أو كتاب لى من قبل أم لا، كنت أقول إن مصر حكمت طيلة الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٨١ (حوالى نصف قرن ماعدا فترة قصيرة تولى الحكم فيها الرئيس محمد نجيب) بثلاثة من مواليد ثلاث سنوات متتالية - فقد ولد الملك فاروق فى ١٩٢٠، وولد عبدالناصر فى ١٩١٨، وولد أنور السادات فى ١٩١٩ (فى بعض الأقوال فى ١٩١٨) كنت أورد هذا القول فى التدليل على عدة معان:

أولاً: أن رجال الثورة لم يكونوا صغار السن حين تولوا الحكم فقد سبقهم إليه

ومنذ ١٥ عاماً ملك أصغر منهم فى السن كان فى كثير من الأحوال حريصاً على أن يحكم لأنه يملك.

ثانياً: إن الحكمة الزائدة التى تميز بها أنور السادات كانت تعتمد ضمن ما تعتمد على عامل السن أو بفارق السن إذا ما قورن بعبدالناصر (مع عدم إغفال الجوانب الشخصية فى كل منهم جميعاً) ما علينا من هذا الاستطراد الذى يجب أن أعتذر عنه، وهانذا أعتذرا!



شترأوس وهوى ياسيدى يذهبان إلى أبعد مما أذهب بكثير جداً، إنهم يقسمون الأمريكان منذ ١٥٨٤ وحتى أوائل القرن الحادى والعشرين إلى ثمانية عشر جيلاً، ويجعلون لكل جيل ميزة واسماً مميزاً، ويأخذون لكل جيل شخصاً من المشاهير الذين ولدوا فى الفترة الزمنية التى حددها للجيل ليحلوه «العينة» - عينة الجيل - أو «الرمز» إلى هنا والأمر بسيط أو قل إنه بسيط.

لكن شترأوس وهوى ينظران إلى الأمور من زاوية أخرى هى زاوية ما نقول عنه الدورات - أو ما قاله مؤرخ عظيم ملخصاً فلسفته فى التاريخ - من أن التاريخ يعيد نفسه.

وهكذا فإن هذين المؤلفين يضعان كل أربعة أجيال فى دورة وتتعاقب الدورات - فالدورة الواحدة على هذا تضم أربعة أجيال: الأول هو جيل المثاليين ثم يليهم جيل الفاعلين ويليهم جيل المدنيين وتنتهى الدورة بجيل المتأقلين لتبدأ بعد ذلك دورة جديدة تبدأ بالمثاليين ثم الفاعلين ثم المدنيين ثم المتأقلين..

دعنى أخص لك الدورات والأجيال وصفات الأجيال وعينات هذه الأجيال فى الصفحات التالية:

الدورة الأولى: المستعمرون Colonial ولك أن تترجمها بالاستعماريين، أو سكان المستعمرات والدورة الثانية دورة الثورة، والدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية، والدورة الرابعة دورة القوة العظمى، والدورة الخامسة هى الدورة التى نعيشها الآن!!

فلنبدأ بالدورة الأولى، فى هذه الدورة وهى التى تضم بالطبع أربعة أجيال، الجيل الأول هو جيل البيوريتان Puritan والبيوريتان كما نعلم هم القوم الحريصون على التطهر من كل الأدران والخطايا إلى حد التزمت، وفى الأدب العالمى نقرأ هذه العبارة فى وصف بعض مجتمعات أو أشخاص العصور الوسطى - هؤلاء بالطبع مثاليون - وهم بداية الدورة وهؤلاء يمثلون مواليد الفترة من (١٥٨٤ - ١٦١٤) وعينة هؤلاء: جون وندروب.

الجيل الثانى (١٦١٥ - ١٦٤٧) جيل الفرسان Cavalier هؤلاء بالطبع وكما يتضح حتى من تسميتهم فاعلون إيجابيون - وعينة هؤلاء هو انكريز ماذر وسوف أحدثك عنه بعد قليل.

الجيل الثالث (١٦٤٨ - ١٦٧٣) جيل المتألقين Glorious هؤلاء بالطبع وكما يتضح من اسم جيلهم يمثلون المرحلة الثالثة من الدورة الأولى، وصفتهم بالطبع أنهم مدنيون، وعينة هؤلاء هو كوتون ماذر وهو ابن انكريز وسوف أحدثك عنه وعن أبيه وجده بعد قليل.

والجيل الرابع (١٦٧٤ - ١٧٠٠) هو جيل التنوير Enlightenment وهم قوم متأقلمون يمثلهم وليام شيرى.

دعنى أحدثك عن أقطاب هذه الدورة الأولى رسأبدأ بالحديث عن العائلة التى تضم قطبين هما قطبا الجيلين الثانى والثالث فى الدورة الأولى . عائلة ماذر هذه تمثل عصراً كان فيه رعاة الكنيسة فى مساتشوستس هم القادة فى الحياة العامة والعقلية .

أما ريتشارد ماذر (١٥٩٦ - ١٦٦٩) فقد ولد فى إنجلترا وتعلم فى أكسفورد، وسببت له أفكاره البيورتانية مصاعب مع الكنيسة الإنجليزية مما أبعدته عن تولى المسئولية، وقد ترك إنجلترا فى ١٦٣٥ وبدأ حياة جديدة فى مساتشوستس ومنذ ١٦٣٦ وحتى وفاته ظل راعياً للكنيسة الطائفية أو الإبراشية Congregational فى دورشستر وهو الذى ألف كتاب المزامير الذى يسمى Bay Psalm Book .

وأما انكريز ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثانى (١٦٣٩ - ١٧٢٣) فهو ابنه - وقد عمل راعياً لكنيسة بوسطن الشمالية (أو الثانية) منذ ١٦٦٤ وحتى وفاته، وكانت له محاولات مشهورة جعلته بمثابة العدو الأول لأى نوع من التحديث فى نظام نيو إنجلاند كنيسة أو حكومة، وقد عارض بقوة أولئك الذين أرادوا تحديث نظام الكنيسة أو قوانين التطهر، وقضى ماذر أربعة أعوام فى لندن فيما بين ١٦٨٨ و ١٦٩٢ عند وليام الثالث حتى حصل منه على موافقة بتوحيد بليموث ومساتشوستس . كما عمل ماذر هذا مديراً لجامعة هارفارد فيما بين ١٦٨٥ و ١٧٠١ وكان قريباً من الباحثين والعلماء على الرغم من تحفظه الدينى والسياسى، وساند من موقعه كمدير للجامعة حملة التطعيم ضد الجدري، وكان هذا بالطبع موقفاً غريباً من رجل دين على مثل مذهبه .

يهمنى أن أذكر لك أن انكريز ماذر ولد حقيقة فى دورشستر لأن أباه كان فيها

منذ ١٦٢٥ كما ذكرت لك في الفقرة السابقة. ولكن انكريز ماذر درس في هارفارد كما درس في كلية ترينيتي في دبلن، وقضى سنوات طويلة من حياته مبشراً في الجزر البريطانية.



أما كوتون ماذر الذي اختاره المؤلفان عينة للجيل الثالث فهو ابن انكريز وحفيد ريتشارد وقد رُسم كاهناً في ١٦٨٥ وقد أصبح بذلك مساعداً أو مشاركاً لوالده في كنيسة بوسطن الشمالية، وتولى منصب راعي الكنيسة حين سافر والده إلى لندن كما ذكرنا.. ثم تولى مسئولية الكنيسة بعد وفاة والده.

وقد ألف كوتون ماذر هذا ما لا يقل عن ٤٥٠ كتاباً، وقد تأثر بنيامين فرانكين بأحد كتبه وهو كتاب Essays to do God الذي ألفه ١٧١٠، وكان كوتون كوالده صديقاً للعلم والتعليم ساعد في إنشاء كلية «بل»، وكان أول أمريكي ينتخب زميلاً للجمعية الملكية في لندن، ومثل هذا الشرف يعطيك فكرة عن هذا التآلق الذي يمثله كوتون ماذر الذي ترى صورته في القواميس والموسوعات الأمريكية معبرة تماماً عن هذا التآلق. هذا وقد ولد كوتون في بوسطن.

بقي أن أحدثك عن وليام شيري، وقد ولد ١٦٩٤ في إنجلترا وتوفي عام ١٧٧١، وقد عمل كحاكم لمستعمرة مساتشوستس فيما بين ١٧٤١ و ١٧٦٥، وتولى لفترة قصيرة قيادة القوات البريطانية في شمال أمريكا.

كان شيري مسئولاً عن الاستيلاء على لويزبورج في ١٧٤٥ في أثناء الحرب الفرنسية الهندية وعندما ضمت إنجلترا مساتشوستس إلى جانبها في الحرب استطاع

شيرى تحرير النظام النقدى وإصلاحه . وقد تولى حكم جزر الباهاما فيما بين ١٧٦١ و ١٧٦٧ .



دعنا نتحرك إلى الدورة الثانية دورة الثورة أو الدورة الثورية Revolutionary وفى هذه الدورة هى الأخرى أربعة أجيال .

الجيل الأول: جيل اليقظة أو الصحوة Awakening (١٧٠١ - ١٧٢٣) وعينة هذا الجيل الرجل العظيم بنيامين فرانكلين الذى لا شك أنك تعرفه، وهذا الجيل بالطبع جيل مثالى .

الجيل الثانى: جيل الحرية Liberty (١٧٢٤ - ١٧٤١) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم جورج واشنطن الذى لا شك أيضا فى أنك تعرفه، وهذا الجيل بالطبع جيل فاعل .

الجيل الثالث: جيل الجمهوريين Republican (١٧٤٢ - ١٧٦٦) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم توماس جيفرسون، وهذا الجيل بالطبع جيل مدنى، يؤسس دولة ومؤسساتها .

الجيل الرابع: جيل التوفيق Compromise وهؤلاء ولدوا فيما بين (١٦٦٧ - ١٦٩١) ويمثلهم أندور جاكسون - وهؤلاء الموفقون، بالطبع، قوم متأقلمون .

أستطيع أن أؤكد لك الآن يا سيدى القارىء أنك قد بدأت تتفهم فلسفة المؤلفين فى هذا الكتاب - ربما لأن معرفتك بهؤلاء الرجال الذين يمثلون عينة الدورة الثانية - دورة الثورة تفوق بالطبع معرفتنا ومعرفة كل الناس بالدورة الأولى

حيث كانت أمريكا لاتزال في ظلام المستعمرات أو تحت تأثير ضبابها الذي لم
ينقشع بعد.



دعنا نمضى مع المؤلفين مع جيل الدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية Civil War
هذه الدورة ياسيدى تضم ٣ أجيال فقط، فليس فى دورة الحرب وقت للمدنيين،
أقصد - بل يقصد المؤلفان - أن أحداً من الذين ولدوا فى أثناء الحرب لن يكون
مدنياً.

الجيل الأول (١٧٩٢ - ١٨٢١) جيل ما وراء الماديات هكذا أفهم قصدهما من
تسمية هذا الجيل بجيل، ربما جاءنى الفهم من عينة هذا الجيل، وهو الرجل المحبب
إلى قلبى إبراهيم لنكولن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية (١٨٦١ -
١٨٦٥) وهذا الجيل بالطبع جيل مثالى.

الجيل الثانى وهو جيل فاعل حسب تطور الدورة ويشمل مواليد الفترة (١٨٢٢ -
١٨٤٢) وعينتهم هو أولزسيز جرانت وهو جيل المذهبين Gilded، وجرانت هو
الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية، ولد ١٨٢٢ وتوفى ١٨٨٥ وتولى
الرئاسة فيما بين ١٨٦٩ - ١٨٧٧ وهو من مواليد أوهايو، وهو الذى قاد قوات الحلفاء
إلى النصر فى ميسورى عام ١٨٦٦، وعين قائداً أعلى للقوات الأمريكية فى ١٨٦٤
ثم سرداراً للقوات الفيدرالية تحت قيادة هلى، فى ١٨٦٥ ثم انتخب رئيساً لدورتين
رئاسيتين وأخفق فى الترشيح للثالثة وقد جاءته السياسة من باب النجاح العسكرى
الذى حققه، وقد تكونت شخصيته بفضل العزم والدقة والثقة والقدرة على التعلم من
التجارب ولكن المعينه العسكرية لم تكن قادرة على حل مشاكل الأمة.. هكذا يقول

الأمريكان عن قائدهم في ١٨٧٠ قبل أن يقول البريطانيون عن تشرشل كلاماً مشابهاً في أعقاب انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وأعداؤه يقولون عنه: إنه رئيس ضعيف ويكاد المؤرخون يوافقونهم على ذلك.

الجيل الثالث والأخير في هذه الدورة (١٨٤٣ - ١٨٥٩) وهو جيل التقدميين Progressive جيل متأقلم ويمثل هؤلاء الرئيس تيودور روزفلت.



تبدأ بعد هذا كله الدورة الرابعة دورة القوى العظمى.

وأول أجيالها (١٨٦٠ - ١٨٨٢) هو جيل المبشرين أو رجال الإرساليات - وهم مثاليون [حسب تقسيم المؤلفين] ويمثل هؤلاء فرانكلين روزفلت.

ثاني أجيال هذه الدورة (١٨٨٣ - ١٩٠٠) يطلق عليهم المؤلف تسمية الجيل الضال أو الضائع Lost - وهو فاعلون - ويمثل هؤلاء دوايت أيزنهاور.

ثالث أجيال هذه الدورة (١٩٠١ - ١٩٢٤) جيل مدني - وهذا هو الجيل الذي نعرف كثيراً من شخصياته - بل إن من هذا الجيل الرئيس الأمريكي الحالي [أي في ١٩٩١] جورج بوش، ومنه أيضاً معظم الرؤساء الأمريكيين الذين عرفناهم في السنوات الماضية، عينة هذا الجيل عند المؤلف هو الرئيس العظيم جون كينيدي.

رابع أجيال هذه الدورة (١٩٢٥ - ١٩٤٢) جيل متأقلم - ويسميه المؤلفان جيل الصمت - وبأخذان عليه مثلاً والتر مونديل، نائب الرئيس الأمريكي الذي تراه أنت وكل العالم اليوم يحظى بانتقاد الأمريكيين لأنه لا يفعل شيئاً..



أما الدورة الخامسة فأول أجيالها هو جيل الازدهار Boom (١٩٤٣ - ١٩٦٠) وهو جيل مثالي عينته عند المؤلفين هو نوبت جنجريش.

ثانى أجيالها هو الجيل الثالث عشر Thirteenth لم يسمياه حتى الآن إلا بهذا الاسم وهو مواليد (١٩٦١ - ١٩٨١) ومن المفترض أن يكونوا فاعلين. وبأخذان عليهم مثلاً توم كروز وهو فنان أمريكي ناشئ محبوب إلى قلوب الأمريكيين.

ثالث أجيال هذه الدورة هم مواليد (١٩٨٢ - ٢٠٠٣) من المفترض أن يكونوا مدنيين - والمؤلفان يعجزان عن تسمية هذا الجيل فيأخذان له اسم الدورة نفسها. وآخر الأجيال هو الجيل الذى لم يولد منه أحد بعد (٢٠٠٣ - ٠٠٠٠٠) ليس له اسم بعد. وليست له صفة وليست له عينة!!.



هل قصدت من استعراضى معك لهذه الدراسة على هذا النحو أن أبين لك أن الأمريكيين ليسوا المثاليين فحسب، وليسوا الفاعلين فحسب، وليسوا المتأقلمين فحسب، وليسوا المدنيين فحسب، ولكنهم مزيج من تعاقب كل هذا من لدن مولدهم وإلى حين تبرز صفاتهم فى أعمالهم الجماعية فتصبغ الأجيال والحقب الزمنية بما نراه واضحاً ومؤثراً فى التاريخ المعاصر.

على أية حال فإن هذه الدراسة نموذج للدراسات التى تتناول التاريخ الاجتماعى من منظور يحاول أن يفهم تعاقب الحوادث فى ضوء فلسفة قد تخطىء وقد تصيب، ولكنها تجيب عن السؤال القائل: لماذا حدث؟ وكيف حدث؟ بطريقة تهيبء الأذهان لقراءة تاريخ المستقبل.

وتاريخ المستقبل شىء مهم جداً، رغم أنى من أشد المقتنعين بأنه من المستحيل أن يمضى الزمن بطريقة خطية (Linear) فنفترض مثلاً زيادة فى الدخل إلى

١٢١٪ فى العام القادم إذا كان العام الماضى قد حقق فى نفس الظروف الزيادة إلى
١١٠٪.

نعم أنا من أشد المعارضين لمثل هذا التفكير الخطى ولكنى مع ذلك من أكثر
المحبذين لاستعماله لبناء إطار أولى - وخط تمهيدى فحسب.

نعم لن يصدق ولكن لا بد من وجود معيار نقيس به قيمة نفترض وجودها حتى
إذا كنا متأكدين تماماً من أنها لن تكون هكذا.. لأن هذا عندى أفضل من العدم!.

(٧)

أحب أن أحدثك الآن بشيء من التفصيل أو الإيجاز [لا أدرى]، عن حياة
الأمريكيين اليومية!!

ربما أبدأ بالإسكان وخاصة إذا كان المؤلف من بلد لا يعانى من شيء مثل
معاناته من الإسكان!!

سنتحدث كثيراً بالآكر، فلا بد لك من أن تعرف كم يساوى الأكر acre الأكر
ياسيدى مقياس مساحة وهو يساوى ٤٣,٥٦٠ قدماً مربعاً أو ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو
١٦٠ عموداً rods مربعاً. والآكر ياسيدى مربع الشكل كل ضلع من أضلاعه يساوى
٢٠٨,٧ قدماً. وفى النظام المترى الذى نعرفه جميعاً ياسيدى الأكر يساوى ٤٠٤٧
متراً مربعاً. [تذكر أن الفدان يساوى ٤٢٠٠ متر مربع تقريباً] أى أن الأكر يمثل
٩٦,٣٪ من الفدان تقريباً، وفى هذا النظام فإن الهكتار يساوى ٢,٤٧١ أكر. وفى
الموسوعة التى رجعت إليها لأنقل عنها هذه المعلومات - وهى موسوعة كتاب
العالم - الناشر Field Enterprises Educational Corporation، شيكاغو. فى هذه الموسوعة

رسم توضيحي يبين لك كم يساوي الأكر بمساحة البيوت المقسمة (البلوكات) في أمريكا.. وأنت ترى في هذا الرسم أن الأكر يساوي المساحة التي تحتلها سبعة بلوكات كل منها ٥٠ قدماً × ١٢٥ قدماً. سأقرب لك المسألة بالنظام المصري (المتري). تصور بيوتا متلاصقة من اليمين والشمال على صف واحد لكل بيت منها واجهة طولها ١٥ متراً وتمتد هذه البيوت متوازية جميعاً في العمق بطول ٣٧,٥ متراً إذن فكل بيت من هذه البيوت مساحته ٥٦٠ متراً تقريباً، الأكر ياسيدي هو سبعة من هذه البيوت الضخمة الفخمة.

تصور أننا أخذنا كل بلوك من البلوكات فقسمناه قطعتين (على طريقة رأس البر مثلاً) كل قطعة ٢٨٠ متراً... إذاً هذه المساحة على طريقة الإسكان الإقتصادي تكفي ٣ شقق (أحياناً ٤ ونادراً ٢) ومثل هذه البيوت [الأربعة عشر] تكون مع بعضها أكر واحداً.

تعال نتأمل حال الأرض الزراعية في مصر عندما تتحول [للأسف] إلى أرض مبانى، أنت تعرف أن الفدان ٢٤ قيراط - الأكر يساوي على أقل تقدير ومع الإكرام الواجب لك - ٢٣ قيراط، وعادة فإن الفدان يمكنه أن يهيء أرضاً لإقامة ٢٤ بيتاً أو ١٦ بيتاً من مستوى أرفع. قل إن الأكر يهيء ٢٣ بيتاً أو ١٥ بيتاً من مستوى أرفع وقارن ذلك ببيوت الأمريكان التي أحدثك عنها الآن.

خذ مثلاً ياسيدي هذا البيت الصغير الذي أسكنه - طابقه العلوي ثلاث حجرات نوم فقط وحمام. في طابقه الأول حجرة استقبال وحجرتا نوم ومطبخ وحمام. هذا البيت ياسيدي يتمتع بأرض واجهتها خمسون قدماً على شارع رئيسي وله في العمق أقصد لأرضه في العمق ٢٢٥ قدماً. إذن فهذا البيت يملك من الأرض ٥٠ ×

٢٢٥ قدماً وهو ما يزيد عن ربع فدان!! هذا الربع فدان فى ريف مصر كفاف لإقامة ستة بيوت على الأقل، فيها من الحجرات أكثر بكثير مما فى بيوت الأمريكان.

أظننى الآن قد وصلت معك إلى تصور قائم على المقارنة، ولعل صورة هذه البيوت الجميلة المتناثرة على المساحات الخضراء الممتدة قد اتضحت أمام ناظريك الآن.

كل بيت يطل على الجهات الأربع. أمامه الشارع الذى يأخذ منه رقمه، خلفه مائتا قدم على الأقل منها مائة قدم يمتلكها فضاء تتصل بمائة قدم فضاء أخرى هى التى تمثل عمق البيت المناظر المطل على الشارع التالى. وعن يمين وعن شمال فضاء بعضه مرصوف لتمر منه السيارات إلى الجراج خلف المنزل، وهذه هى البيوت ياسيدى.

ليس هناك بيت فى مدينة أوضاعية مرتفعات كليفلاند، كلها شذ عن القاعدة، وارتفع أكثر من دورين، إنما كل البيوت حريصة على نفسها لم تصبها حمى الهدم والأسمنت المسلح التى تجتاح مصر فيما يشبه الوباء الذى يستعذبه المصابون به. ويظنون ارتفاع درجة الحرارة المصاحب للحمى نوعاً من التدفئة المركزية غير مدفوعة الأجر.

وكل هذه المنطقة التى أسكن فيها ياسيدى مسماة بأسماء إنجليزية: لى، كنجستون، فيرمونت، فايرهل، تايلور، كوينستون، برنستون، شارلستون، مارلبورو، نورثن بارك.... إلخ.

(٨)

والناس يسكنون بيوتهم.. لكل بيت، ولكل بيتٍ صاحبه، وهكذا الحال في سبعين في المائة من مساكن الأمريكيين.. وتتبقى بعد ذلك ثلاثون في المائة من المساكن للمواطنين الذين لا تمكنهم ظروفهم من بناء المساكن أو اقتنائها إلا بعد حين.. حين يتاح لهم الدخل أو حين تتاح لهم الأسرة التي تستلزم مسكناً.. أو حين يتاح لهم الاستقرار.

أحب أن أستأنف هذا الحديث عن بعض جوانب الحياة اليومية في الولايات المتحدة الأمريكية لكي تتأمل بنفسك هذه الجنة أو هذا الجحيم.

أنت تعرف مثلاً أن الحياة هنا قامت على مبدأ الاعتماد على السيارات الخاصة. وحين كنا لا نزال دون العاشرة كنا (أنا وشقيقي أحمد) نستمع بشوق إلى صديق للعائلة عاد من أمريكا وكان أول ما يحكيه هو أنه لا أحد هناك إلا ويمتلك سيارة. حتى إن كل العاملين في قرن الخبز يركبون سيارات من ذوات الأبواب الستة.. لهذا فليس غريباً عليك أن ترى السيارات وكثرتها اللامتناهية هنا، ولكنك مع هذا تجد الأتوبيسات العامة على فخامتها وجمالها وتكليفها قليلة العدد. متباعدة الزمن في مرورها عليك.. وعلى سبيل المثال فإن عودتي من المستشفى إلى البيت في الأسبوع الأول كانت تستغرق ربع ساعة بالتاكسي ولكنها تستغرق ما لا يقل عن ساعة بالأتوبيس رغم أننا نسلك نفس الشوارع بلا اختصار على الإطلاق. ذلك أننا في الأتوبيس ننقل ما بين أتوبيسين أولهما ينقلنا إلى ميدان واسع فسيح، ولكنه بلا حياة على الإطلاق، وهو ميدان دائرة الجامعة، أو حلقة الجامعة. ثم ننتظر قرابة نصف ساعة حتى يأتي أتوبيس آخر.. هذا إذا عدنا بعد الساعة الثالثة.. أما إذا عدنا

قبل الساعة الثالثة (وهو ما لم يحدث) فإننا نكون حينئذ معرضين لانتظار الأتوبيس
الثانى قرابة ساعة!! لأنه فيما قبل الثالثة لا يأتى إلا كل ساعة.



لعل أسوأ ما فى الأتوبيس هو ذلك الوقت الطويل الذى تنتظره فيه بين مجموعة
قليلة من البشر لا تبعث أبداً إلا على الخوف، بل والرعب، هل تستأهل المسألة هذا
الرعب.. أم أننا من كثرة ما حذرونا (حتى ونحن لا نزال فى أقطارنا) من هؤلاء
الأمريكيين أصبحنا نخشاهم بأكثر من اللازم، ونخشاهم جميعاً: الصالح والطالح..
نعم ياسيدى ربما يكون رأيك أننى أبالغ فى قولى أن هؤلاء لا يبعثون على
الاطمئنان أبداً. ألا ترى هذه الملابس التى لاتدل إلا على أنهم خرجوا فى سرعة
متناهية حين علموا بوجود الضحية (الذى هو أنا مثلاً) حتى يقتلوه ويسلخوه
ويعودوا بجلده وكل ما فى جلده.. انظر إلى هذه الوجوه، هل تتوقع من هذه الوجوه
أن تستجيب لرجاءاتك حين تصبح ضحية فى أيديهم.. والجا إلى الله أن يزيل عنى
الخوف. ولكن أليس من حقى على نفسى أو من حق نفسى على ألا أرمى بها إلى
التهلكة؟

هكذا تتدافع مشاعر الخوف والاطمئنان حتى يأتى الأتوبيس، والأتوبيس لا
يأتى.. اللهم ارحمنا برحمتك من أنفسنا.. ومن عبادك.

هذه هى أتوبيسات هيئة RTA أى هيئة النقل السريع أو ما يناظر هيئة النقل العام
بالقاهرة أو الأسكندرية أو مرفق النقل الداخلى بالقازيق، قد أكون راغباً فى أن
أحدثك كثيراً بشيء (لا يخلو فى نظرك) من التحامل على هذه الأتوبيسات، وكيف

أن نظام النقل الداخلى فى أمريكا لا يرقى إلى أوروبا بعد أن حدثتلك عن اتساع الفجوة الزمنية بين كل أتوبيس والتالى له. وربما لم أعبرك تماماً عن مدى الرعب الذى كان يعترينى فى زيارتى السابقة لأمريكا أو فى هذه الزيارة حين أقف فى محطة من محطات الأتوبيس ربما وحيداً تماماً وربما محاطاً بأحد الزوج أو بعضهم يأتون بحركات لا تبعث إلا على الرعب وقراءة الشهادات قبل أن تلقى حتفك.. ربما يكون السبب فى كل ذلك أنى مقل إلى أبعد الحدود فى ركوب هذه الأتوبيسات هذه المرة والمرة السابقة، ولهذا فلك أن تأخذنى على أننى صاحب انطباعات فحسب ولست صاحب خبرة أو رأى.



ولكننى اليوم فقط بدأت أدرك كم تتكلف الخزانة الأمريكية من أجل بقاء هذه الأتوبيسات فى خدمة الطوائف التى تضطر إليها.. نعم كنت أتحدث إليك فيما مضى من فقرات عن أن الاعتماد هنا على السيارات الخاصة، ولكنى لم أستطع توضيح الصورة الحقيقية التى لمستها اليوم وهأنذا أفعل كى أكون أميناً على الصورة.

ركبت الأتوبيس من محطة ميدان الجامعة أو حلقة الجامعة (حسب الترجمة الحرفية)، كانت معى تذكرة من النوع الترانزيت أى التى أركب بها أتوبيسين متعاقبين وهى لا تكلفنى إلا دولاراً واحداً هو كما تعلم لا يسمن ولا يغنى من جوع فى أمريكا. ركب معى الأتوبيس شخص آخر. نحن الآن فى أول محطة لهذا الأتوبيس الذى يبدأ فى ميدان الجامعة وينتهى فى البيتش وود.

أنت تعلم من فقرة سابقة أنه فيما قبل الساعة الثالثة لا يأتى هذا الأتوبيس إلا كل

ساعة مرة. وبعد الساعة الثالثة يأتي كل نصف ساعة.. وتزداد هذه الفجوة أيام السبت والأحد.. ولا يعمل هذا الأتوبيس بعد الساعة السابعة مساءً.. أى أنك لن تجده لا فى الثامنة ولا فى التاسعة... إلخ. تماماً كأتوبيسات الأقاليم فى مصر منذ عشرين عاماً وربما أكثر من عشرين عاماً، وفى أيام الآحاد لا تعمل معظم الأتوبيسات هنا، وفى أيام السبت تنتهى دورتها فى حوالى الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة!!

تسألنى كيف سار هذا الأتوبيس فى تلك الرحلة. سأحكى لك بالتفصيل الممل، فقد انتظر الأتوبيس حوالى ٧ دقائق فى محطة البداية فلم يركبه أحد بعدنا. بعدنا هذه تعينى أنا وشخص آخر فقط، غير السائق بالطبع. وبعد محطتين اثنتين نزل الشخص الآخر وبقيت بمفردى.. محطتى كانت السابعة أو الثامنة. لم يصعد أحد قبلها الأتوبيس وبالطبع لم يهبط أحد.. قررت، من باب التأمل، أن أكمل رحلتى مع هذا الأتوبيس إلى نهاية الخط وطوال حوالى عشرين محطة يستغرقها خط سير الأتوبيس لم يصعد أحد ولم يهبط أحد.. إذاً هذا الأتوبيس تحرك من ميدان الجامعة إلى ساحل البيتش وود من أجل مواعده فحسب. وتحرك هذه المسافة كلها بطوله وعرضه ودخله منها لا يتعدى دولاراً واحداً.. أقل من ثمن نصف لتر من الوقود.. لن أقول لك أكثر من ذلك.

ليس لى شأن كما تعلم بالبيتش وود إنما كنت أتتبع مسار هذه الأتوبيسات من باب ما نسميه فى الرحلات «بالجولات الحرة»، عدنا من البيتش وود، لم يكن ينتظرنا هناك أحد على الإطلاق، وبعد تحرك الأتوبيس بدقيقة إذا بسائقه يقف به، هناك وراء الأشجار كانت سيدة تشير إليه، كانت فى ملابس الرياضة القاسية،

وكانت فى عقدها الخامس أو ربما السادس . وكان السائق يعرفها، وصعدت الأتوبيس بملابسها الرياضية .. وكان من الواضح أنه ليس معها شىء على الإطلاق . ربما استغنت بمعرفة السائق لها (وبالتأكيد معرفة المفتش أيضا) حتى عن أن تحمل «الأبونية» الذى يبين أن من حقها الركوب!!.

نعم ياسيدى تبوات السيدة مقعدها، وحدثت السائق عن رياضتها فى ذلك الصباح وبعد خمس محطات أخرى صعدت سيدة أخرى بدينة بإفراط إلى الحد الذى أثر على قلبها بالهبوط . وتبوات هى الأخرى مقعدها الذى يبدو أنه كان مخصصاً لها من دون كل المقاعد .

وبعد ثلاث محطات أخرى صعدت سيدة سوداء أخرى . بينها وبين السيدة البدينة حديث متصل بدأ بالأمس أو ربما من أمس الأول أو قبل ذلك . والأتوبيس يمضى بنا حتى جاءت محطتى!!

هل الحكومة الأمريكية مظلومة أو ملتزمة؟ أين يذهب الدعم ياسيدى .. هل هذا إهدار للدعم .

الحقيقة أن المظلوم هو شعبنا المصرى الطيب الكريم الذى عانى ولا يزال يعانى حتى ولو لم نرفع عنه الدعم الهزيل!.

(٩)

لعلك تريد بعضاً من الحديث عن المرور فى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد ما سمعت عن طرافته . فعلى الرغم من الشوارع العريضة الواسعة والميادين الأكثر اتساعاً فإن هناك كثيراً من القواعد والحدود التى يجب الالتزام بها . وعلى سبيل

المثال فإن إشارات المرور في كثير جداً من الأحيان مهياة بحيث تقودك إلى الامتناع عن السير في اتجاه ما، وأحياناً أخرى إلى السير في نفس الاتجاه!! لا تعجب من ذلك فإن في النظام الأمريكي ما يجعل بعض الشوارع ذات اتجاه واحد في أيام العمل، وذات اتجاهين في عطلة نهاية الأسبوع، أو في غير ساعات العمل!! وقد أعدوا أنفسهم لذلك بأن جعلوا الإشارة تتكون من رؤوس أو نقاط مضيئة. يضيء بعضها على النحو الذي تكون به سهماً فتعني المرور، وفي ذات الوقت تضيء نفس الإشارة من الجهة الأخرى على النحو الذي تبدو به على هيئة حرف X فتعني بالطبع عدم المرور.. وإذا كانت الإشارة تعني المرور كان السهم رمز المرور مضيئاً بالأخضر. أما إذا كانت تعني عدم السماح بالمرور كان حرف الإكس بالأحمر. وعلى هذا النحو أيضاً تجد الإشارة للمشاة. حين «تخضر» فإنها تقرأ لك بالحروف أنك تستطيع المشى. وحين «تحمّر» فإنها تقرأ لك «لا تمش»،!!

ومع هذا فإن من حق أي مواطن يمشى على قدميه (أحب أن أقول من حق كل راجل، ولكني أخشى المطبعة أن تصححها كل رجل فيصبح المعنى مشوهاً تماماً كأنه ليس من حق السيدات)، أقول من حق كل من يمشى على قدميه أن يكسر الإشارة ويمشى، وتحترمه السيارات مع هذا تماماً.

أما اللافتات الإرشادية التي تقودك طوال طريقك فهي نموذج حي للحضارة الأمريكية التي قامت على الوضوح التام الذي لا لبس فيه، الوضوح الذي يعنى التحديد أي الذي يكون القول السائد فيه هو «وعلى سبيل الحصر، لا «على سبيل المثال،.. ولأنهم يأخذون الأمور على سبيل الحصر لا على سبيل المثال فإنهم يقللون إلى أدنى قدر ممكن من المسائل الخلافية والاجتهادية والتفسيرات

المتضاربة .. تلك المسائل والأمور التي تحكم اليوم أكثر من ٩٩٪ من مشكلات الإدارة المصرية حين تتصدى هذه الإدارة لمسئوليتها!!

بقى أن أذكر لك أنك تجد عند تقاطع شوارع المدينة مع الطرق التي تؤدي إلى الطرق السريعة التي تمر بالمدينة من خارجها لافتات تذكر رقم الطريق. والطرق السريعة في أمريكا مرقمة كلها، أو هي أرقام فحسب، وقد انتبهوا عند ترقيمها إلى أن يعطوا الطرق التي من الجنوب إلى الشمال (أو بالطول كما نقول) أرقاماً فردية. وأن يعطوا الطرق التي من الغرب إلى الشرق (أو بالعرض كما نقول) أرقاماً زوجية. وهكذا فإنك لن تضل طريقك أبداً.. اللهم إلا أن تكون في طنطا متوجهاً إلى الإسكندرية فتأخذ طريق القاهرة الإسكندرية وتصمم على السير في اتجاه القاهرة إلى أن تكتشف هذا الخطأ بعد بضعة كيلو مترات.

(١٠)

في كل ما حققته أمريكا وما تحققه لا تزال أمريكا حكومة وشعباً تؤمن بالكتاب والمكتبة ..

لم يزعزع هذا الإيمان الدفين فيها أنها هي التي نشرت التليفزيون وبرامج التليفزيون ..

لا تزال المكتبة عند هؤلاء القوم شيئاً مقدساً.

والمكتبة هي إحدى المعالم السياحية البارزة في كل مدينة وكل حي من أحياء أمريكا، مبناها فخم ضخم تحوطه الحدائق أو مساحات الانتظار، ومواعيدها مناسبة لكل الفئات، والتسهيلات التي فيها لا تخطر ببال.

ومع هذا كله فقد اتسعت المكتبات الأمريكية العامة لمجاراة روح العصر، فأصبحت تعتمد على الكمبيوتر فى الفهرسة، والتزويد، والاستعارة، وأصبحت تضم قاعات خاصة بالكمبيوتر والبرامج المسجلة على الشرائط الممغنطة الصلبة Hard Desk ولكن كل هذا يتم من منظور مساعد للكتاب وليس بديلاً عنه.

ولا تزال ترى أمارات الخير وبشائر الأمل فى مستقبل هذا الشعب حين ترى الشبان والشابات وفى أيديهم الأعمال الأدبية يقرأونها فى قاعات الانتظار، أو وهم قادمون لزيارة المرضى فى المستشفيات.

أما المكتبة الطبية الأمريكية فشيء مبهر، وأنا كما ترى أتحدث عنها كشيء واحد ولا أقول المكتبات. ذلك أننى أريد أن أدلك على ما فعلوه بهذه المكتبات حين جعلوها جميعاً تتصل بقاعدة معلومات قوية تهيء للطبيب (أو الممرضة) أن يتلقى أى مقال يريد أن يقرأه فى خلال يومين على أقصى تقدير، وذلك بفضل برنامج للبحث عن المعلومات يأخذ فى اعتباره المسافة بين موقع الطبيب السائل عن الشيء، وموقع المكتبات التى فيها هذا الشيء، وينتقى أوتوماتيكياً لهذا الطبيب أقرب هذه المكتبات إليه حتى لا تتكلف المكتبة الطالبة كثيراً من نفقات البريد.

أحب أن أضرب مثلاً بالطلبات التى كانت أمامى فى مكتبة مستشفى كليفلاند. فكثير من هذه الطلبات كان موجوداً فى مكتبة جامعة CWRU فى كليفلاند نفسها. تسألنى ولماذا لا يخطفون رجلهم إلى مكتبة جامعة كيس ويسترن، ويبحثون هناك عما يريدون قبل أن يسألوا عنه الكمبيوتر. فأجيبك فى هدوء وماذا يفعل الكمبيوتر إذا خطفوا أرجلهم، تماماً (مع عكس المنطق) كما يتمنى مصرى أمريكى أن ندخل

الكمبيوتر في مصالح الحكومة فتجيبه ياسيدى القارىء بقولك: وماذا نفعل بجحافل الموظفين؟



وقد كنت في غاية السعادة حين أتاح لى الحظ أن أطلع في ركن الكتب الموجود في أحد المحلات العامة على مجموعة كبيرة من الكتب التي خُفضت أسعارها إلى أقل من الدولار، وأسعدنى أكثر أن أرى بين هذه المجموعة مجموعات الكتب التي تمثل الحلقات أو المسلسلات التليفزيونية الشهيرة.

وقد وجدت أن حلقات «أيام حياتنا» Days of our lives موجودة في أحد عشر كتاباً على الأقل.

ووجدت من مسلسلة «عالم آخر» Another World اثني عشر كتاباً، ومن مسلسل دالاس الشهير أحد عشر كتاباً، ومن مسلسل «بينما يتقلب العالم» As the world turns أحد عشر كتاباً كذلك.

والطريف أن الذى يقوم بنشر هذه المجموعات ناشر كندى ومقره في كندا هو Pioneer Communication Network وتُطبع هذه الكميات الضخمة في كندا وتحمل علامة تجارية اسمها Soaps & Serials وتوزع كما ترى في كافة أنحاء الولايات المتحدة، وقد ينزل بها التخفيض إلى حوالى ٦٧ سنتاً أى أن الثلاثة بدولارين.

وتسألنى عن سر سعادتى، لعلك توافقنى على أن الأدب التليفزيونى لا بد أن يكون مكتوباً وإلا تحول إلى مجرد أداة لملء أو لسد الفراغ بين ألعاب تليفزيونية مبهرة.. أى بعبارة أخرى لا بد أن ترقى الفكرة الفنية والأدبية في مادة أى عمل تليفزيونى إلى درجة أن تكون قابلة للصياغة في كتاب.

وربما أعود لأستفيض معك فى نقاش هذا الموضوع فى موضع آخر.

(١١)

لا يزال الطعام الأمريكى رخيصاً وفى متناول الناس جميعاً.

ربما لا يزال عندهم ذلك الخير الذى كنا نفخر به فى مصر من دون أن نحمد الله عليه، حين يكون فى وسعك مهما كان دخلك أن تجد طعاماً يكفيك الجوع.

وقد كان من حظى أن أتناول الطعام فى عدد من المطاعم الراقية التى تختلف جنسيات طعامها من المكسيكى إلى اليونانى إلى الإيطالى إلى الفرنسى إلى الصينى، وذات مرة قال أحد أصدقائنا وكان يابانياً ألا تودون أن تأكلوا طعاماً أمريكياً. ووجدتني أعلق أنه لا يوجد شىء اسمه الطعام الأمريكى.. اللهم إلا إذا كنت تقصد تلك الوجبات السريعة من أمثال الهوت دوجز، والبيزاهت، والماكدونالد، وحتى هذه فإنها تطوير لأطعمة أخرى فالبيزاهت هى الطبة الأمريكية من البيزا الإيطالية، وهكذا.. أنا لا أعرف إن كنت مصيباً فيما أقول أم لا.. ولكننى وجدت المستمعين من زملائي الذين كانوا معنا فى السيارة يوافقوننى... والله أعلم.

ولكنى مع هذا أريد أن أحدثك على سبيل المثال عن هذا المطعم الذى كثيراً ما يزود مؤتمرات قسم الباطنة العامة بالطعام، اسمه السيد البطل MR.HERO وقد جعل شعاره المطبوع على الأكياس الخاصة به أنه منقذ العالم من الأطعمة السريعة التقليدية!! تسألنى عن هذا الإنقاذ الذى تولاه فأقول لك إنه يقدم سبعة أنواع من السندويشات وهو يبعث لنا حوالى سبعة من كل نوع فى كيس، وعلى الكيس اسم

النوع بالقلم الفلوماستر، كيس لسندويتشات الديوك الرومي [في البلاد التي تنتمي للحضارة الرومية يسمونه بالديك التركي وفي بلاد كمصر والبلاد العربية ارتبطت بتركيا يسمونه بالرومي]، وكيس لسندويتشات اللحم البقري المحمر، وثالث لسندويتشات لحم التونة، وخامس لسندويتشات الجمبرى، وسادس من لحوم الخنزير، وسابع من نوع آخر من لحوم الخنزير، وكل سندويتش ملفوف فى أوراق السيد البطل منقذ العالم من الأطعمة السريعة المعتادة. مع أن مسألة إنقاذ العالم هذه فيها نظر!!.



وأحب أن أذكر لك، بهذه المناسبة، أن أمريكا قد انتبهت منذ ما قبل منتصف الثمانينات إلى خطورة استعمال الأكياس البلاستيكية، على البيئة والغلاف الجوى، وعادت أمريكا إلى استخدام الأكياس الورقية التي كنا نعرفها جميعاً فى مصر ولانزال نظنها من بقايا عهد عصر ما قبل الانفتاح.

وفى أمريكا يحرصون الآن تماماً على الإفادة من الصحف القديمة فى صناعة الأكياس الورقية، وعلى الإفادة من علب الصفيح الفارغة التي تستخدم للمشروبات والمأكولات كذلك.. وعندهم الآن نظام قومي، لإعادة التدوير أو إعادة الدورة Recycling يقتضيه أن يجمعوا هذه المواد، وأن يضعوها فى أكياس مخصوصة بحيث تذهب، بعيداً عن القمامة، إلى المصانع التي تتولى إعادة تصنيعها.. وتجد الأكياس الورقية مكتوباً عليها أنها صنعت من المواد المدورة أو من مواد ناشتة عن إعادة الدورة، وهكذا..

وللإنصاف أذكر أن هذا النظام متبع في المملكة العربية السعودية منذ مرحلة مبكرة، وبالنسبة لي فقد رأيت في السعودية بدون الاسم طبعاً قبل أن أراه في أمريكا . لا أذكر بالتحديد في أي المرات ٧٨ أم ٨٨ أم ٨٩؟ ولكنه أصبح اليوم بمثابة حمى جميلة تجتاح أمريكا كلها وفي معظم مصالحها وبيوتها وشوارعها أماكن مخصصة لإعادة الدورة Recycling .

(١٢)

اهتمام مراكز البحوث الأمريكية والجامعات هنا بموضوع ما قد يصل إلى حد الجنون!

هذه هي حقبة أزمة صدام مثلاً فإذا بالدراسات التي تتناول الموضوع من كل زاوية لا تنتهي.

أنت تعرف أن نظامهم التعليمي في الجامعة يقوم (في أغلب الأحوال) على ما يسمى بنظام الساعات المعتمدة، وهو نظام يتيح للطالب أن يختار مقرراته في حدود، وتكون النتيجة أنه ينجذب إلى موضوع الساعة.. أحياناً لأنه سيجد مواد متوافرة، وأحياناً لأنه يرضى فضوله، وأحياناً لأنه يمهد نفسه لشيء ما في الوظائف القادمة بعد انتهاء هذه الأزمة.

وفي كثير من الأحيان يُعبر الطلاب من خلال اختيارهم للمواد التي يدرسونها عن رغباتهم الشخصية، وفي هذا المجال يذكر أستاذ مسلم في جامعة أمريكية أنه وزع استبياناً على طلابه في نهاية الفصل الدراسي وكان من بين أسئلته: لماذا اخترت هذه المادة؟ وجاءته إجابة طالبة يهودية تقول: "to fight Islam" لأحارب

الإسلام، ربما لم تكن تعرف أن هذا الأستاذ مسلم، وربما لم تكن تعرف ولا تبالى.

وقد تداولت الصحافة العربية في منتصف الثمانينات، على ما أظن، ما اسمته بفضيحة التحقيق في مؤتمر إسلامي في جامعة هارفارد مولته المخابرات الأمريكية بخمسين ألف دولار، وهذا المبلغ كما تعرف مما تقرأ عن المؤتمرات المصرية (لا الأمريكية) ليس شيئاً ذا بال خاصة إذا علمنا أنه شارك في هذا المؤتمر ما لا يقل عن ثلاثين عالماً أتى معظمهم من الشرق الأوسط خصيصاً له.

(١٣)

هل نجت أمريكا من حمى الطائفية والتفريق العنصري أم أنها لا تزال تعاني؟

سؤال كان لا بد لي من أن أتأمل الواقع أمامي لأجد عليه إجابة.

ولابد أن أطلب إليك أن تحاول معي معرفة نسبة السود بين هذا الشعب، فأحياناً ما يهين المرء منا أن ٩٠٪ من الأمريكيان سود على عكس ما قد يعتقد الكثيرون منا أيضاً أن ٩٠٪ من الأمريكيان بيض - في الأتوبيس مثلاً ١٠٠٪ سود - بين طوائف معينة ١٠٠٪ سود - في الأسواق العامة، في مداخل الفنادق... إلخ، وعلى الرغم من أن هذا البلد هو بلد الإحصاءات فإنك لن تستطيع أبداً أن تقتنع بكثير منها.. ومع ذلك فهم يقولون إن ٦٠٪ من سكان ولاية أوهايو مثلاً من السود، والله أعلم.

تأمل بعد هذا إعلانات التليفزيون فمن الغريب أن تجد الإعلانات وقد قصرت

النجومية على السود..

هذا إعلان شهير عن دجاج كنتاكي: في هذا الإعلان نجد أبطال رياضات كمال الأجسام وكلهم من السود، وهم يستمتعون بهذه الوجبة، وينفثون شرر النار من أفواههم بعد تناولها، ثم إذا بهذا الشرر قادر على أن يضع كرة السلة في السلة بلا مجهود! مع أن دجاج كنتاكي هذا كما تعرف ياسيدى ليس إلا كثيراً جداً من المتבלات فوق قليل من الدجاج، وهو يكفي بالكاد لإطعام شخص أقل من العادى فيما يتعلق بكمال جسمه.. أريد أن أسألك هل لا يصلح هذا الإعلان بنجوم بيض؟ اعتقد والله أعلم أن مثل هذه القوة العضلية البارزة لا توجد فى البيض أبداً بنفس القدر الذى هى فيه فى هؤلاء السود الذين يبعثون الشرر القادر بعد ذلك على أن يخطف كرة السلة ليضعها فى سلتها.

(١٤)

وأخيراً..

أحب أن أقول لك إنه لا يزال عند الناس فى أمريكا [عموماً] شعور الصداقة، خذ مثلاً هذه المسافة التى أقطعها فى مرتفعات كليفلاند فى طريقى إلى الأتوبيس أو إلى السوبر ماركت أو لمجرد المشى، ها هم الناس يبدؤوننى بالتحية حتى أولئك الجلوس فى شرفات منازلهم عن بعد.. ولكنهم على النقيض من ذلك حين يكونون فى مجتمع مزدحم. تجدهم متحفظين إلى أبعد الحدود..

وفى المستشفى تجد الزملاء والزميلات حريصين على أن يطمئنوا على أحوالك كلها: سكنك، صيامك، سفرك، هواياتك، وقت راحتك.. ولكن ليس من اللحظة الأولى..

وحتى في الأتوبيس تجد السائق يفتح معك حديثاً عن عملك، وعن
مواعيدك ولكن ليس من المرة الثانية أو الثالثة التي يراك فيها ولكن ربما من
الرابعة.

هل أريد أن أقول إن الأمريكيين ليسوا إنجليزاً؟ نعم بالطبع.. ولكن هل هم
شركيون؟ نعم وربما أكثر من الشرقيين الذين نعرفهم الآن.

أمريكا تستعيد أم تستعير روح النصر

أمريكا تستعيد أم تستعير روح النصر

(1)

أول سؤال وجهته إلى صديقيّ اللذين تفضلا بمرافقتي من الفندق إلى المنزل كان عن هذه الأعلام الأمريكية الكثيرة المرفوفة على كثير من المنازل وكان الجواب: بمناسبة الحرب، قلت ولكن الحرب انتهت منذ أسبوعين بالصر، قالوا: نعم ولهذا يحتفظ بها الأمريكيون!!.

وطوال إقامتي وجدت الشعب الأمريكي وقد أصابته روح جديدة: روح تستعيد الانتصار على العراق! وتستعيد بهذا الحدث (الإعلامي) روح الانتصار!.

أما أن أمريكا انتصرت فأمر لا شك فيه.. وأما أن المعركة كانت صعبة فأمر هو الشك بعينه!! ولكن الإعلام الأمريكي لا بد أن يصورها كذلك ليجعل للانتصار معنى!.

أريد أن أقول إنه لم يكن هناك مبرر على الإطلاق لكي تخرج أمريكا من هذه المعركة بغير النصر! ولكن الأمريكيين لا يريدون إبراز هذه الحقيقة لأنهم بإبرازها يضيعون روحاً استعادوها. ثم أظهروا للناس وأنفسهم أنهم استعادوها!! لأنهم كانوا منذ حرب فيتنام في حاجة إلى استعادتها!!.

روح النصر التي تغمر الأمريكيين اليوم روح مستعارة.. وهم أول من يعرف ذلك.. فأمریکا وجدت نفسها أمام فرصة سانحة ربما لن يجود التاريخ بمثلها ومن المؤكد أنه لم يجد فيما مضى بمثلها على الإطلاق..

وقد عاملت أمريكا الفرصة السانحة التي أتتها كما يتعامل الرجل كبير السن مع كنز ذهبي لامع يجده في الطريق الخالي إلا منه فإذا هو مصمم على ألا يتناول الكنز إلا بعد الاطمئنان تماماً إلى انتفاء شبهة المفرقات عنه، لأنه لا يزال يذكر قصة الألغام التي كان العدو يلقيها على الناس على هيئة أقلام وساعات، فإذا ما انتهى من كل الشكوك استدعى للكنز الذهبي خبراء المفرقات! وأكثر من هؤلاء الخبراء، من دون أن يدفع لهم أجراً من جيبه، وإنما هو قد استطاع أن يقنع أصحاب البيوت المهجورة القريبة من موقع الكنز بأنه لا بد لهم أن يشاركوه عملية إنقاذه لكنزه لأنه يشك في أن خادمه نسي في داخل كنزه (الذي وقع منه!!)... وهكذا أصبح تعبيره عن الكنز مصمماً على وصف تملكه!! مادة مفرقة قد تودي بحياتهم إذا ما وجدوا بالصدفة بالقرب منه ساعة انفجاره.. وأصحاب البيوت المهجورة الواقعة في الشارع الذي فيه الكنز يدفعون الأجور لخبراء يتولون تطهير الكنز من ألغام وهمية أو شبه وهمية.. والرجل المسن يأخذ نصيباً من أجور الخبراء نظير استجلابهم من شركة هو المساهم الأكبر فيها.. وبعضاً آخر نظير أجهزته التي

يبيعها لهم من شركة أخرى هو صاحبها المنفرد، وبعضاً ثالثاً نظير تعليمهم وتدريبهم في معهد أمني يسيطر عليه بماله وخبرته.. ومع كل هذا يحتفظ بالكنز، ثم يحكى الرجل العجوز لأولاده وأحفاده المقيمين في البعد كيف أجهد نفسه في التقاط هذا النصر الثمين.. بينما كان هناك كنز آخر قريب لو وفقه الله إليه لكسب أضعاف ما كسب من الكنز الأول.. أقصد بالطبع حل مشكلة الفلسطينيين.

على أية حال فالانتصار الأمريكي في حرب الخليج أياً ما كان حجمه هو أصدق تعبير عن الشخصية الأمريكية اليوم في مجال الأعمال.

وقد خاضت أمريكا الحرب وأدارتها من باب علم إدارة الأعمال وليس من باب الحماس.

وكل ما حققته أمريكا في هذه الحرب هو انعكاس أمين لما وصلت إليه أمريكا في مجال إدارة الأعمال..

وكل ما افتقدته أمريكا في هذه الحرب هو انعكاس أمين أيضاً لكل ما تفتقده سياسات إدارة الأعمال في أمريكا.



وطوال ساعات وأيام ممتدة كنت حريصاً على أن أصل إلى بعض الأضواء الكاشفة التي حكمت تصرفات أمريكا في حرب الخليج الثانية.. ربما استغرقت في تفكير عميق ومتصل في بعض الأحيان، وربما انتبهت على لمحات سريعة ومتقطعة في أحيان أخرى، ربما أسرفت في التأمل حيناً، وربما أسرعت بالاستنتاج حيناً آخر، ربما حاولت تعمق بعض الظواهر في بعض الأوقات، وربما اضطرت إلى البعد عن تفسير الظاهر بغير ما هو ظاهر، ولكني مع هذا استطيت أن أزعم بأن

هناك عدة عوامل حاكمة كانت من أهم خصائص السلوك الأمريكي في حرب الخليج الثانية وهو السلوك الذي قاد إلى النصر الذي نعرفه. سواء استعادت أمريكا روح هذا النصر. أو استعادت أمريكا به روح النصر.

هذه العوامل الحاكمة هي:

□ □ تركيز العمل في خط واحد.

□ □ النقطة المثلى هي الهدف وليست النقطة القصوى.

□ □ التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ).

□ □ التجريب في نطاقات محدودة.

□ □ التوثيق القابل للاستدعاء الفوري.

□ □ وسائل الاتصالات المتعددة غير المتقاطعة.

□ □ تقبل الأمر الواقع كواقع.

□ □ تقدير الأمثال.

□ □ استثمار اللغة.

□ □ نمذجة السلوك الإنساني.

□ □ نمو التفكير الرياضى البيولوجى.

هل تسمح ياسيدى القارىء أن أتحدث عن هذه العوامل بشيء من التفصيل:

(١) التركيز فى خط واحد:

هذا هو أبرز (وأصدق وأدق) وصف للاتجاه الذى يسيطر اليوم على البيروقراطية الأمريكية فى دواوين العمل وفى البيوت أيضاً.. لا تجد موظفاً يلتفت إليك ولو بالتحية إذا كان مشغولاً مع عميل سبقك إليه.. وأنت تطلب التليفون فيأتيك الصوت من على الجانب الآخر أن انتظر دقيقة قبل أن تتكلم، ويحولك إلى موسيقى الانتظار ربما لعشرة دقائق حتى ينتهى الطرف الآخر من حديث تليفونى على خط آخر!!

هل هذا هو الهدوء أم هو البرود؟

قد نختلف فى التعريف والتوصيف.. ولكن العقلية الأمريكية اليوم لا تعمل فى أكثر من اتجاه فى ذات الوقت، وقد كانت معركة الخليج نموذجاً حياً للاقتصار على اتجاه واحد فى كل حين.

□ الحرب الإعلامية تأخذ شهوراً من وقت العالم.

□ القرارات الدولية والمشاركات تمضى خطوات لا يعوزها التعقل ولا الصبر الشديدان.

□ الهجوم الجوى يستغرق هذه الأسابيع الطوال، وليس من هجوم سواه.

□ ترتيب الأوضاع يستغرق كل هذا الوقت وبدون نظر إلى شيء آخر.

□ الانسحاب يتم كما لو كان مسألة بيروقراطية تجرى على مهل شديد.

ربما أنى قد بالغت فى تصوير الأمر، وربما أنى انخدعت بالنتائج التى تحققت

على مستوى التخطيط والتنفيذ في هذه الحرب التي كانت ناصيتها بيد الأمريكيين، ولكنى، فيما يبدو لى، أعكس إحساسى بطريقة عمل الأمريكية، وبخاصة فى مجال الطب.

(٢) النقطة المثلى هى الهدف:

كل من درس التفاعلات البيولوجية والكيميائية يفهم هذا المعنى جيداً... وسأحاول أن أختزله فى مثل بسيط وهو أن أنسب درجة حرارة لجسمنا هى حوالى ٣٧ درجة مئوية مثلاً.. إذا فليست زيادة درجة الحرارة أو قتلها هدفاً، وإنما الهدف هو الوصول إلى نقطة معينة على المنحنى، عند هذه النقطة يتم التفاعل المطلوب بأحسن ما يكون من نتائج.

وأتركك يا سيدى القارىء تتأمل موقف الإدارة الأمريكية كلها من حرب الخليج فى ضوء هذه الحقيقة.

□ الخلاف الظاهرى الذى لم نسمع عنه إلا بعد انتهاء الحرب بين الرئيس بوش والقائد شوارتسكوف حول تدمير قوة صدام حسين.. وما ظهر للناس جميعاً بعد ذلك من حرص أمريكا الشديد على صدام حسين وبقائه بدرجة محسوبة من القوة والنفوذ!!.

□ التعبئة الدبلوماسية فى الأمم المتحدة حتى صدور القرار الأخير بتحديد ١٥ يناير، مع أنه كان فى وسع الحلفاء التذكير بهذا الموعد (على مستوى القرارات) ولكنه كان الموعد المثالى على مستوى التعبئة الحربية.

□ الضوء الأخضر الذى أعطى لصدام حسين فى الوقت المناسب تماماً حين كانت سيارته قد تخطت الإشارة السابقة وأصبحت فيما بين إشارتين..

فأما الإشارة السابقة فقد غفل عنها عسكري المرور العربي لأنه كان يفقد أداة من الأدوات وهي الديمقراطية.. وكانت حرية الصحافة مغيبة غالباً (وبفعل دينارات عراقية في بعض الأحيان).

الإشارة التالية كان لها جهاز مرتبط لسبب تكنولوجي بحثت بالولايات المتحدة في غرفة تحكم مركزية.. والناس يرون عمود الإشارة ولا يرون الإشارة.. وقد تفضلت السيدة السفيرة الأمريكية في العراق فأعطت القائد الملهم انطباعها أو معلوماتها عن طبيعة الإشارة وأنها خضراء.

وكانت سيارة صدام مهياة لعبور الطريق بأكثر مما هي مهياة للاستجابة للفرامل التي كان صدام قد قلل وعطل وأهمل استخدامها منذ زمن بعيد في ظل ظروف الإسراع المستمر.

□ الجرعات الإعلامية المحسوبة في تقدير أوهام صدام وأوهام الناس عن صدام مع الاحتفاظ بروح التحفظ عند القادة الأمريكيين.

(٣) التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ):

قد تستطيع حكومات أو إدارات كثيرة أن تفخر بأنها وفرت التمويل أو نسبة منه قبل البدء في تنفيذ مشروع ما.. وفي الغالب يكون التمويل جزءاً من مرحلة التخطيط أو هو المرحلة الأخيرة منها، إلا أمريكا، فقد استطاعت هذه البلاد بقدرته قادر أن تروض نفسها على أن تجعل التمويل أولى خطوات التخطيط إلى الحد الذي يعرفه كل المتعاملين مع مشروعات التعاون المشترك مع الأمريكيين من أنهم يخصصون منحة أولية لإجراء دراسة الجدوى قبل البدء حتى في طرح التصورات المتعلقة بأي مشروع.

وقد نجحت أمريكا في حرب الخليج في توفير التمويل وبأكثر مما هو مطلوب لكل خطوة من قبل أن تبدأ هذه الخطوة.

(٤) التجريب في نطاقات محدودة:

يحرص الأمريكيون على استخدام ما يسمونه «موديل، أو نموذج، للمشروع يبدأون به ممارستهم للأفكار النظرية على الطبيعة. فيكتشفون من خلاله ثغرات التخطيط، وعيوب النظام القائم من أجل تحقيق الهدف.

وفي الحرب ربما يصعب تصور وجود فرص للتجريب في نطاقات محدودة.. ومع هذا فقد ساعدت قلة حنكة الرئيس العراقي وحماقته الأمريكيين على إيجاد فرص ذهبية للتجريب في نطاقات محدودة.. فكانت «معركة الخافجي، مثلاً نموذجاً مبكراً جداً لدراسة خطط المعارك البرية عند الجانب العراقي مما أدى إلى زيادة الثقة في تطويل أمد الهجوم الجوي.

(٥) المعلومات والتوثيق القابل للاستدعاء الفوري:

أمريكا اليوم أعظم الحضارات قدرة على الأرشفة، ووضع كل شيء في كل الملفات التي تتعلق بهذا الشيء. ولكن أمريكا التي تبذل من نفسها كل هذا الجهد في توثيق كل خطوة وزمنها ومكانها وحالتها وقدرها.. إلخ لا تفعل ذلك من باب حب الأرشفة (أو أداء الواجب كما نفعل) ولكنها تهيبء من كل هذا الأرشفة ذاكرة قوية قادرة سريعة منظمة تستطيع أن تستدعيها في ثانية واحدة..

والتسابق اليوم بين بنوك المعلومات ونظم المعلومات يدور حول المدى المتناهي في الصغر من الثانية لاستدعاء المعلومات.

وفي كل اللحظات التي كان على القائد الأمريكي فيها أن يفاضل بين خيارين كانت بنوك المعلومات تفاضل له بين تلال من المعلومات والبيانات إلى الحد الذي كانت نسبة الخطأ تتلاشى، ونسبة الزيف تنعدم.

ومع هذا فإنني متأكد أنك سوف تطالع في الشهور والسنوات القادمة انتقادات عنيفة من النواب والشيوخ الأمريكيين للمخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع لأنها على سبيل المثال لم توفر للجيش الذي تولى عاصفة الصحراء معلومات عن تكلفة سندويتشات الفول المصري التي كان من الممكن نقلها بالطائرة إلى القوات الأمريكية في عطلة نهاية الأسبوع كبديل ممتاز للكشري الأمريكي!! بدلاً من انتظار هذا الكشري من أمريكا فيأتي بعد ٢٤ ساعة من تصنيعه.

(٦) وسائل الاتصالات غير المتقاطعة:

نجحت أمريكا في أن تطور نظم اتصالات بحيث يصبح أمام كل زميلين (في كثير من المؤسسات التي أتيج أن أتأمل طريقة عملها) الفرصة لاتصال بعضهم ببعض من خلال ثلاث وسائل على الأقل.

ومع هذا فقد احتفظت هذه النظم بالقدرة على الخصوصية في الاتصالات بحيث يمكن بشيء قليل من التحكم الفعال إبعاد بعض المعلومات عن متناول الكثيرين، وإبقاء هذه المعلومات في إطار السرية المطلوبة، وأذكر على سبيل المثال كيف تطورت نظم الاتصالات داخل القسم الواحد في المستشفى الواحد إلى الحد الذي لا يستطيع أعضاء القسم ملاحظته. ولكنهم ساعة لجوئهم إلى هذه الوسائل يجدون من يدلهم عليها في التو واللحظة. وقد صادفت أثناء عملي في كليفلاند كلينيك كثيراً من الطرائف حين أتيج لي مثلاً أن أدل اثنين من هيئة الأطباء

العاملين هناك على السبيل إلى معرفة ما إذا كان المريض قد أجرى فحص الدوبلر المقرر له الآن أم لا دون الذهاب إلى حجرة الفحص، وذلك من خلال نهاية من نهايات الكمبيوتر اكتشفتها معلقة في مدخل معامل صدى القلب كلها.

وهذه المعلومات لا سبيل إلى احتكارها لأن احتكارها يضيع وقت المؤسسة في سؤال موظف مخصص لاحتكارها وتنظيمها بينما إشاعتها هي الأوفر.

وعلى الطرف الآخر كانت هناك معلومات أخرى تتعلق بأمور بيروقراطية بحتة هي في الواقع أقل أهمية بالنسبة للأطباء، ولكن النظام لا يسمح بإشاعتها وتداولها على هذا النحو، ومثل هذه المعلومات يصعب الوصول إليها على الجميع إلا أصحاب الخصوصية!!

والحديث عن مستويات المعلومات والتحكم في تدفقها وسريتها يطول.. ولكني أحب أن يتأمل القارئ معي كل سيناريو حرب الخليج ليتأمل هذه المستويات المتعددة وتعدد المعلومات نفسها.

(٧) تقبل الأمر الواقع كواقع وكواقع فقط:

أصبحت نفسيات الأمريكيين قادرة على تقبل الأمر الواقع ولكن في حدود وجوده فحسب.. فالأمريكيون لا يخفون رءوسهم في الرمال ولكنهم أيضاً لا يسلمون بالحقوق المدّعاة من خلال الأمر الواقع.. وعند الأمريكيين قدرة على التجاوز عن الخطأ إذا ما كان في الانشغال بالخطأ لضيق لوقتهم.. وتستطيع مثلاً أن تأخذ مكان غيرك في الطريق بسيارتك فإذا هو هاديء صامت إذا استطعت أن تفعل ذلك في غفلة منه، ولكنه نائر إذا لمحك وأنت تحاول ذلك فإن الأمر لا يزال بيده أن يمنعك.

أريد أن أزيد هذه النقطة وضوحاً فأقول لك إن الأمريكيين يبحثون في ثنايا الواقع عن بعض الحق - ولكنهم يقصرون هذا البحث على الأحوال التي يجدون أنفسهم فيها مضطرين لقبول الأمر الواقع - أو في حاجة إلى وجوده أو قبوله .. فإذا ما انتفت الحاجة للاضطرار، فالأمر الواقع عندهم ليس إلا شيئاً قابلاً للزوال وأحياناً أخرى: جديراً بالزوال، وأحياناً قليلة: واجب الزوال بأيديهم هم!!.

(٨) تطوير المعتقدات:

للحضارة الأمريكية اليوم قدرة بارزة على التحرر من الحكم والأمثال والأقوال المأثورة التي تحكم الحياة.. قارن هذا بعقلياتنا حين نحاول أن نتأمل المثل العربي القديم على أن يكون في بعض الأحيان أقرب إلى منظور «خدعوك فقالوا» وكيف نواجه الفشل مهما كانت خبراتنا وأدلتنا أقرب إلى الواقع والصواب.

هذه هي مجلة النيوزويك الشهيرة تخصص صفحة كاملة لهذه الأقوال التي تلعب بها البورصة كل أسبوع.. ترتفع بأسهم بوش مرة وتنخفض بها مرة أخرى وهكذا تفعل مع كل الشخصيات... مستخدمة الأسهم الصاعدة ↑ وأحياناً المتوازية → ← ثم تضع بعض الأقوال المأثورة الشائعة في ركن، وتضع في مقابلتها الأمثال الحديثة التي أسفرت عنها الظروف الجديدة.

قد اختصر لك بعض الأقوال المأثورة التي عدلتها النيوزويك في عددها الصادر في منتصف مارس ١٩٩١ حين تتناول شعار المظاهرة الأمريكية الذي كان يقول «لا دم من أجل البترول»! فتضع بدلاً منه مثلاً جديداً يعبر عن الحقيقة التي انتهت إليها الحرب من الحصول على «البترول بلا دم»!!.

كان المثل "No blood for oil" فأصبح المثل "Oil for no blood" هل رأيت تعبيراً أبلغ وأكثر قدرة على السخرية والتصوير معاً من هذا القول المأثور المحور!!
هكذا تمضى النيوزويك في إمتاعك بلاغياً وفي الوقت ذاته تضاعف من حزنك على العراق وزعيم العراق!!

وهكذا تصبح الحضارة الأمريكية (والأداء الأمريكي في الحرب) قادراً على أن ينتفع دائماً باتجاه الريح حسبما تأتي الريح لاحسبما كان يعتقد في اتجاهها قبل أن تقلع سفينة الحياة.... أو سفينة الحرب.

تستطيع أن تبالغ في التعبير عن هذا الخلق عند الأمريكيين فتقول إنهم لا يعبدون إلا الواقع، ولا يعتقدون إلا في الظروف، ولكنك لا تستطيع مع هذا أن تنكر على هؤلاء ثروتهم الضخمة من الأقوال والأمثال الكفيلة بهدايتهم في بحار الظلمات التي تحيط بالبشرية من كل جانب.

(٩) استثمار اللغة:

كنت أتحدث في عشاء رومانسي جميل بين أساتذة رفيعي الثقافة عن فضل الأمريكيين على اللغة الإنجليزية. فقلت إن الأمريكيين أعطوا هذه اللغة بعد البلاغة، بعدما أعطها الإنجليز بعد الدقة،... وأنه لكي نفهم هذا الفضل الأمريكي على اللغة الإنجليزية يكفي أن ننظر الآن مثلاً إلى قائمة الطعام التي سيحضرها لنا القائم بخدمتنا في هذا المطعم ونتأمل الصياغات المختلفة للعبارات المفترض أنها تؤدي وظيفة محدودة جداً في وصف أطباق هي في الأغلب تقليدية جداً.. فقد كان المطعم أحد المطاعم المكسيكية الكلاسيكية. لم يكن الأساتذة

الأناضل في حاجة لمثل هذا ليوافقوني على رأبي، بل كان عندهم من الفهم العميق ما دعاهم إلى إثبات موافقتهم التامة على مزاعمى هذه.

ولكنى وجدت نفسى أستفيض فى الحديث (بحرفية الأزهرين القدامى) عن بعض مظاهر البلاغة الطاغية فى استخدام الأمريكين للغة.. فلا تكاد تجد إعلاناً واحداً لا يصلح لأن تضعه فى امتحان البلاغة لطلاب المرحلة الثانوية للبحث عما فيه من مجاز لفظى أو لغوى أو استعارة أو كناية أو تشبيه بليغ على أقل تقدير.. دعك من الجناس والطباق والسجع والمحسنات البديعية التى لا تنتهى.. وقبل كل هذا هناك الأفكار التى لا جدال فى أنها مستحدثة حتى وإن جادلت بسهولة فى مغزاها وصحتها.

أحب أن آخذك معى بعض الشىء لاستكمال ما قلته ساعتها من أن الألمان قوم عظماء لاشك وقد أعطوا (شأنهم فى ذلك شأن العرب) لغتهم قدرة عظيمة جداً على «التعبيرية» حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من دقة تعبيرية بالغة.. ولكن لا الألمان ولا العرب استطاعوا أن يستغلوا اللغة كما استغلها الأمريكيون. فأنت ترى النص القانونى أو التاريخى فى اللغة الألمانية أو اللغة العربية وقد صيغ صياغة ممتازة تسمح لك بعد تأمله أن تتبين الصواب من الخطأ، والمشروع من المحذور، والواقع من الخيال، والمرغوب من المتروك. نعم تستطيع أن تصل إلى كل هذا من خلال الصياغة فى بناء الجملة العربية أو الألمانية فى نسيج النص اللغوى المتاح متى تأملته، ولكنك لا تستطيع أبداً أن تزعم أن هذا النص الألمانى أو العربى قادر على أن يصدك بما يريد بمجرد قراءته.. قارن هذا بما تجده من نفسك من هذا النص الأمريكى المفكك (غالباً) فى صياغته حين تجد نفسك قد

فهمت منه كل ما يريد هؤلاء القوم أن يوصلوه إليك بكل ما حملوا به اللفظ من إحياءات ربما لا يستطيع أن يحملها، ولكن الأمريكيين بطريقة ما جعلوه قادراً على هذه الوظيفة.

قد يضع الأمريكيون اللفظ مثلاً في غير موضعه .

ولكنهم بهذا الوضع يوفرون على أنفسهم ثلاثة سطور كاملة من التعبير الجميل الدقيق!.

وقد يضع الأمريكيون بعض كلمات متجاوزة كأنها معطوفة ومعطوف عليها، ولكنهم لا يقصدون إلا التعبير عن صراعات بين الأفكار التي تمثلها هذه الكلمات من دون أن يزعموا لأنفسهم - حتى لحظة التعبير - قدرة على فهم علاقة هذه الصراعات. ولهذا فهم يكتفون بالفصل بين هذه الكلمات وبين ما تمثله من معان بتلك الشرطة البسيطة .

أريد أن أقول إن الأمريكيين أخذوا اللغة على أنها وسيلة من وسائل النجاح في الحياة والتعامل اليومي، واستغلوها أوسع استغلال (ولك أن تقول أبشع استغلال)، وربما أنهم تبسطوا معها إلى الحدود التي يمكنك معها أن تقول إنهم ابتذلوا تماماً، وربما تكون رومانسياً مثلي فتقول إنهم أعطوا لغة الإنجليز البلاغة بعد ما أعطاهم الإنجليز الدقة. ولكنك في كلا الحالين تبقى موافقاً على أن هناك فرقاً كبيراً بين اللغة الإنجليزية في تلك الجزر البريطانية وبين هذه اللغة الأمريكية في القارة الواسعة المسرعة القادرة على تحطيم كل شيء من أجل أي شيء يتصادف أن يكون هو الشيء المراد، ولهذا فلا تدهش إذا سألك واحد من الأمريكيين ذات يوم عما إذا كنت تتكلم اللغة الأمريكية!!.

(١٠) نمذجة السلوك الإنساني:

بلغ تقدم العلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعات ومعاهد الولايات المتحدة الأمريكية الحد الذي مكن من إتمام دراسات متقدمة حول كثير من الموضوعات التي تبدو لنا وكأنها محكومة تماماً بالعامل الشخصي أو العامل الوقتي، وأنه لا مجال أمام العلم لدراستها على نحو تفصيلي..

من ذلك أن جامعة هارفارد بالاشتراك مع عدد من الجامعات القريبة منها مثل Tufts و MIT أتمت مشروعاً بحثياً أسمته «مشروع مفاوضات هارفارد»، وذلك من خلال دراسة قرارات الصراع، وكان من أبرز نشاطات هذا المشروع، على سبيل المثال، تطوير أفكار عملية «الوساطة ذات النص الواحد»، التي استخدمتها أمريكا في مفاوضات كامب ديفيد من أجل السلام في الشرق الأوسط (١٩٧٨) حيث كان هناك نص واحد أجريت عليه تعديلات كانت كفيلة بجعله مقبولاً من الطرفين.

ولعل مما ساعد مثل هذه الجامعة التي هي من أبرز مؤسسات الحضارة الأمريكية على النجاح والتقدم في مثل هذه الدراسات ذلك الصبر والدأب في تعمق دراسة الجوانب المختلفة من النشاط الإنساني السيكولوجي والعقلي والاجتماعي إلى الحد الذي جعل التنبؤ بردود الأفعال الخاصة جداً ممكناً جداً.

وعلى هذا النحو استطاعت أمريكا وحضارة أمريكا أن تتعامل في سهولة ويسر مع كل الأطراف في حرب الخليج بدءاً من الرئيس صدام حسين ومروراً بكل الرؤساء والزعماء الآخرين، مايجور، وميتران، وكافيو، ومبارك، وكول، وفهد، والأسد، والشاذلي بن جديد، وأوزال، وانتهاءً بالرئيس الإيراني رافسنجاني الذي

كان من الصعب على أى منجم الوصول إلى «تنجيمة» محتملة لموقفه وموقف إيران فى كثير من لحظات الحرج الظاهرة فى حرب الخليج الثانية.

(١١) التفكير الرياضى - البيولوجى :

مع أن الأمريكين قوم عمليون جداً فإنهم فى دراسة السلوك الإنسانى نظريون جداً.. ثم إنهم عند الوصول إلى قرار ما يتميزون بأنهم أصحاب قدرة على البعد عن القرار الواحد، والتأكيد على البدائل المتعددة.

سأنقل لك فقرتين من كتاب كنت اطلعت عليه منذ مدة فى الإنجليزية، وقرأته كاملاً خلال هذا الأسبوع بعد أن وجدته لحسن الحظ قد صدر فى اللغة العربية. الكتاب اسمه «نحو التآلف والاتفاق أو بناء علاقات إيجابية» مؤلفاه هما روجر فيشر وسكون براون - ومترجمه هو الدكتور محمد محمود رضوان، وقد أشرفت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بالقاهرة على ترجمته وإخراجه، ونشرته الدار الدولية للنشر والتوزيع (١٩٩١).

الفقرة التى يطيب لى أن أدلك عليها تتحدث عن اختلاف الرؤى بين مستوى المدير الأوسط ومستوى المدير التنفيذى الأعلى.. ليس فى الفقرة شىء جديد عليك.. أنت تعرف كيف يفكر المدير الأوسط وكيف يفكر المدير التنفيذى الأعلى فى الموضوع ذاته.. لكنى أدعوك إلى تأمل قدرة الحضارة الأمريكية على وضع كل هذا فى جدول وبناء دراسات نفسية واجتماعية، ومدى استغلالها بعد ذلك لهذه الحقائق فى متن السياسة.

المدير الأوسط:	المدير التنفيذي الأعلى:
الرئيس يغير سياسته كما تغير الحرباء جلاها.	الذين يعملون معي يستجيبون لتوجيهاتي ببطء.
هناك كثير جداً من الأعمال الكتابية في هذه المؤسسة.	العاملون يتأخرون في تقديم تقاريرهم الشهرية.
أنا أعمل معظم الفترات المسائية وعطلات الأسبوع ولكن رئيسي يغادر العمل في الساعة السادسة مساءً.	حينما كنت في مستواهم كنت أعمل ليلاً ونهاراً لكي أحصل على ترقية.
هذه الشركة تكافئ الخبرة الغربية، يحضرون غرباء ليرأسوني.	العاملون الذين ندرهم يهجرون من أجل المنافسة.
ربما أستطيع أن أحصل على دخل أكبر في مكان آخر.	إننا ندفع أجوراً لعمالنا أعلى بكثير مما كنت أتقاضى وأنا في مثل سنهم.
عندما أبلغ مستوى أعلى سوف أكون أكثر تحكماً في حياتي.	ليس لدى مـرءوسى فكرة عن الضغوط التي تقع على.
إننا لا نسمع عن السياسات الجديدة أبداً إلا في اللحظة الأخيرة.	إننى لا أسمع من العاملين معي عن مشكلة يواجهونها إلا في اللحظة الأخيرة.

إن رئيسي لا يثق بي؛ إنه دائماً يظهر من فوق كتفي.	إنني أحطم ظهري لكي أقضي وقتاً مع العاملين معي وأدريهم. إنهم لا يقدرّون ما أقوم به من عمل.
--	---



الفقرة الثانية تحتاج منك إلى خلو البال حتى تتأمل طبيعة المشكل فيها، وتصل إلى التفهم الكامل لما قد نسميه نحن في حياتنا العامة بحساب الأرباح والخسائر في علاقة ثنائية بسيطة جداً... وانظر معي كيف يستطيع هؤلاء «النظريون»، أن يضعوا مثل هذا النموذج «الحاد، للصراع، الفعال»، في علاقة ثنائية كهذه العلاقة.. دعك من كل هذا التقديم الذي أقدم به الفقرات وأقرأها على مهل.

لقد قارن منظرُ الألعاب دينامية العلاقة الثنائية بنموذج يطلق عليه «مأزق المسجونين»، ففي إحدى الأمثلة القصصية لهذا النموذج هناك مسجونان متهمان بارتكاب جريمة خطيرة، وقد وُضع كل منهما في الحبس الانفرادي، وكان المدعى على يقين من أنهما مذنبان، ولكن كانت تعوزه الأدلة الكافية لإدانتهم، وهكذا أخبر كلاً من المتهمين أن أمامه اختياراً بسيطاً: أن يعترف، أو لا يعترف.

● فإذا تعاون المسجونان معاً ولم يعترف أي منهما، فإن كلا منهما يمكن أن يتوقع الحكم بالسجن سنة واحدة جزاء حيازة سلاح بطريقة غير قانونية.

● أما إذا اعترف كلاهما فإن كلا منهما سيحكم عليه بالسجن ثماني سنوات جزاء الجرائم الخطيرة.

● أما إذا اعترف أحدهما ولم يعترف الآخر فإن رافض الاعتراف يمكن أن يتوقع الحكم بالسجن عشر سنوات، ولكن الذي اعترف سوف يلقي معاملة رقيقة باعتبار أنه «شاهد الملك»، ومن ثم يمكن أن يتوقع أن يطلق سراحه ويوضع تحت المراقبة البسيطة..

هذا مع العلم بأن السجينين لا يمكن أن يتصل أحدهما بالآخر.

والآن، فكل من السجينين يواجه مأزقاً: إذا كان الآخر سيعترف، فمن الخير لي أن أعترف كذلك. إذ أن ثماني سنوات أفضل من عشر، أما إذا لم يكن سيعترف فمن الخير لي أن أعترف أنا، إذ أنني - حينئذ - سوف يطلق سراحي برفق، وهكذا يبدو أنه من الخير لي أن أعترف بغض النظر عما يفعل الآخر، ولكن إذا اعترف كل منا فإننا - معاً - سنكون أسوأ حالاً مما لو رفضنا - معاً - أن نعترف.

كان هذا هو «مأزق المسجونين»، فهل تستطيع الآن أن توافقني على أن هناك ما يسمى بالتفكير الرياضى البيولوجى الذى استطاعت هذه الحضارة الأمريكية حتى الآن أن تجد فى صياغته، وأن تجيد، وإن لم تكن قد بلورته تماماً بعد!!.

ثم هل تستطيع بعد ذلك ياسيدى القارئ أن توافقني على أن هذا الجانب من الحضارة الأمريكية كان ذا شأن عظيم فى حرب الخليج.



هل تأذن لى ياسيدى أن أختتم هذا الفصل بالفقرة الثانية التى وعدتك بها وهى فقرة من خرافات إيسوب الشهيرة عن الريح والشمس:

«ذات مرة ثار نزاع بين الريح والشمس، أيهما أقوى وأشد. وفى سبيل إنهاء الجدل تحدث الشمس الريح فى مباراة: أيهما يستطيع أن يحمل عابر طريق على أن يخلع معطفه فهو الأقوى. كانت الشمس واثقة أنها ستفوز، ولذلك تركت الريح تأخذ الفرصة الأولى، أما الشمس فقد اختفت وراء سحابة تنتظر، وأما الريح فقد أثارت عاصفة ثلجية، ولكن كلما اشتد عصف الريح تشبث عابر الطريق بمعطفه حول جسده، وفى النهاية لم يسع الريح إلا أن تستسلم، وحينئذ خرجت الشمس من وراء السحابة، وبدأت تضيء وترسل أشعتها بكل قوتها نحو عابر الطريق الذى بدأ يحس الحرارة والدفء، وإذا أخذت الحرارة ترتفع رويداً رويداً فإنه خلع معطفه وجلس فى الظل ليستريح.»

كليفيلا ند : المدينة والمجتمع

كليفيلاند : المدينة والمجتمع

(١)

حوالى ١٧٦٥ أى منذ أكثر من مائتى عام كان الجنرال جورج واشنطن أول من تنبأ بهذه المدينة. تعبير غريب طبعاً أن تقرأ فى تاريخ مدينة أن فلاناً هو أول من تنبأ بها. لكننى لا أجد أدق من هذا اللفظ لأعبر عن أن واشنطن لاحظ أن مصب نهر كايهوجا فى بحيرة إيرى يناسب مجتمعاً تجارياً سريع النمو.

بعدها بحوالى ثلاثين عاماً وفى ١٧٩٦ جاء مؤسس كليفيلاند بفريق من شركة كونكتيكت للأراضى، واختار موقعاً كان يسمى بالاحتياطي الغربى وأقام عليه نواة كليفيلاند.

فى ١٨١٠ أصبحت هذه المدينة هى المجتمع الرئيسى فيما يسمى بإقليم

كايهوجا. أحب هنا أن أذكر لك أنني أترجم County بإقليم. والكلمة فى الإنجليزية فيما يبدو مأخوذة من الكونت، فالكلمة على هذا تشير إلى ممتلكات الكونت. وقد تترجم بمقاطعة أو إقليم، ولعلها هى المرادف للإقطاعات والابعاديات.

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت صناعة السفن فى هذه المدينة. كان لابد بعد ذلك من تطوير الاتصال النهري البحرى لهذا المجتمع الجديد، ولابد أن نفهم أن كثيراً من التحضر الذى أصابته أمريكا كان نتيجة سعيها الحثيث فى تطوير مرفق النقل والمواصلات، والطرق السريعة، والطائرات، والمطارات، والتليفونات، والفاكس، والبريد الجوى الأمريكى منذ أوائل القرن التاسع عشر.

خذ مثلاً على ذلك إنشاء قناة إيرى فى ١٨٢٥ ثم توصيل هذه القناة بنهر أوهايو نفسه بعد سبع سنوات فى ١٨٣٢، وما صاحب ذلك من ازدهار صناعة السفن وتجاريتها فى مجتمع كليفلاند الجديد.

فى عام ١٨٣٦ بلغت كليفلاند مجداً عظيماً هكذا يرون أو يروون... وذلك: أنه فى ذلك العام وصل تعداد سكانها إلى حوالى ستة آلاف نسمة!!.. وها هى كليفلاند فى أواسط القرن التاسع عشر- تبدأ فى تشغيل مينائها فى حوالى سنة ١٨٥٢ وتبرز فى أثناء الحرب الأهلية كمركز صناعى هام، وفى ١٨٧٠ تتأسس فيها بفضل جون روكفلر شركة ستاندرد الشهيرة للبتترول وتبدأ معالم المدينة والتحضر والحكومة المحلية تأخذ طريقها إلى كليفلاند فى مطلع القرن العشرين.

وفى أثناء الكساد العالمى العظيم فى الثلاثينات بنت كليفلاند أول مشروع للإسكان الشعبى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

فى السبعينات حظيت كليفلاند بشهرة اقتصادية سلبية حين أصبحت أول

مدينة أمريكية كبيرة تعاني الإفلاس منذ الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات، وتحطمت صناعة السفن في كليفلاند بسبب ارتفاع اليد العاملة، ولكنها سرعان ما استعادت وضعها في الثمانينات، وأصبحت مرة ثانية من أهم المراكز الأمريكية.

هذه هي كليفلاند - عاصمة إقليم من أقاليم أوهايو، وتبقى لأوهايو (الولاية، عاصمتها كولومبوس).

(٢)

من الطبيعي أن أعدد لك الجامعات في هذا الإقليم (لا في الولاية كلها).

لعلك طالعت فيما مضى من كتابي هذا إشارة إلى جامعة كيس ويسترن التي تقع في نفس المدينة. هناك كذلك جامعة كليفلاند الحكومية (أجدني مضطراً إلى ترجمة State في كل اسم جامعة تحتوى هذا اللفظ بكلمة الحكومية، وكنت فيما مضى أتبع ما اعتدنا عليه في مصر من ترجمتها بـجامعة ولاية كذا. مع أنه لا توجد ولاية مثلاً اسمها كليفلاند).

تمثل هذه الجامعة اندماج جامعة «كاس»، وجامعة ويسترن ريسيرف الذي تم عام ١٩٦٥ ولكن تاريخ هذه الجامعة يعود إلى حوالي ١٨٢٤.

نأتى إلى الكليات العليا:

بالدوين ولاس أنشئت عام ١٥٤٨

كايهوجا عام ١٩٦٣

ديك عام ١٨٤٨

عام ١٨٨٢

معهد كليفلاند للفنون

عام ١٩٢٠

معهد كليفلاند للموسيقى

(٣)

البلان ديلر، هي كبرى جرائد أوهايو، وهي الجريدة التي أستعيض بها هنا عن الأهرام القاهرية كل صباح. وتقع هذه الجريدة في مائة صفحة على الأقل كل يوم، فلا تقل صفحاتها الرئيسية عن ٥٠ صفحة عدا ملاحق الإعلانات الملونة التي تبلغ ثلاثة أضعاف هذا الحجم، وهي تتضخم إلى أكثر من هذا بكثير في أيام الآحاد بالطبع، ولكن صفحات كاملة من هذه المائة مخصصة بالطبع للإعلانات التي لا بد أن تكلفتها أقل بقليل من التكاليف المناظرة في مصر. وإلا فكيف بالله عليك تجد صفحة كاملة قد أفردت للإعلان فقط عن مسحوق غسيل وأنواعه وعبواته المختلفة مثلاً.

أستطيع أن أقول لك إنني كنت أطلع هذه الجريدة كل يوم على مرتين ففي حوالي الساعة السابعة وخمس دقائق وقبل أن تتحرك سيارة ربة البيت أطلع بسرعة أربعة أو خمسة مواضع من الجريدة:

أطلع آخر تطورات الحياة الدولية وبصفة خاصة حرب الخليج. أو قل بقايا حرب الخليج من حرب أهلية في العراق، إلى أسرار تتكشف في الولايات المتحدة، هذا في عناوين الصفحة الأولى.

ثم أطلع في نهاية الملزمة الثانية من الصحيفة أنباء الطقس وموعد غروب الشمس أي موعد الإفطار الرمضاني!!

وفى الملزمة الرابعة ألقى نظرة على السعر الخاص بالجنيه المصرى أمام الدولار فى الجزء المخصص لأسعار العملات الأجنبية، والجنيه المصرى على أية حال عملة أجنبية بالنسبة للدولار، ودعك من كون العملة الأجنبية عملة صعبة أم لا فهذه تعبيرات مصرية سيكولوجية!!

وفى الإعلانات المبوبة ألقى نظرة على الركن الخاص بأجهزة الكمبيوتر..

وفى صفحة برامج التلفزيون ألقى نظرة أخرى على برامج القنوات الرئيسية، وكل نظرة من هاتيك قد لا تكفى عشرين ثانية كما تعلم. ولكن تصفح المواضيع المختلفة حتى تصل إلى ما تريد هو ما يأخذ منك الوقت.

بعد عودتى من المستشفى أقرأ على مهل هذه الجريدة المحترمة؛ صياغة الصفحات الأولى لا تختلف كثيراً عن صياغة «الأخبار» القاهرية، أما العناوين فأميل إلى «الجمهورية»، منها إلى الأهرام أو الأخبار. أسماء المحررين والمراسلين تحظى باحترام تام من حيث أبنائها والعناية بها. وكثير من المواد لا تحمل توقيعاً على الرغم من إنها عصارة فكر وجهد مبذول. صفحة الرأى فى الداخل لها رئيس تحرير مسئول، واسمه موضوع فيما يسمى بالترويسة مع الناشر والمدير العام ورئيس التحرير. بل إن «الترويسة» نفسها موضوعة أعلى صفحة الرأى لا فى الصفحة الأولى. الاشتراك فى الجريدة أسبوعى، ويبدو أن الاشتراك السنوى الموجود عندنا لم يعد يناسب روح الحياة السريعة المتغيرة وإن كان سيظل مناسباً لمصر..



يعجبنى فى هذه الصحيفة اهتمامها البارز بالكتب الجديدة، وبالحياة الثقافية

على وجه العموم، وللصحيفة ملحق أسبوعي لبرامج الإذاعة والتلفزيون يتناول كل شيء في البرامج بالتفصيل، ثم إذا هذه المعلومات تتوزع كل يوم في الصحيفة في صفحة كاملة نصفها الأيمن للقنوات السبعة والعشرين (تسعة فوق تسعة فوق تسعة) والنصف الأيسر يلقى الضوء على برامج مختارة، وعلى برامج الراديو.

أحب أن أذكر لك أنني خرجت من مطالعة الصحف الأمريكية بانطباع أن إعلاناتها إعلانات وقتية بمعنى أنها تؤدي الغرض الوقتي ليس إلا. في أوكازيون يوم السبت تجد صوراً لكل ما هب ودب، والأسعار فوقها، واسم المحل وعنوانه، وكان الله يحب المحسنيين. طبعاً الصور منظمة وجميلة والأسعار مكتوبة بأبناط بارزة ولا بأس من فتاة تضحك أو طفل يصيح.. ولكن الإعلان كله على بعضه شيء من لزوم الشيء: مجرد خطوط، ومجرد تنسيق، وليست هناك مساحة لما يسميه فنانون إخراج الصحف براحة العين، وإنما هو استغلال للمساحة المتاحة بطريقة بدائية. طبعاً هم يعرفون ذلك وأعتقد أنهم يأخذون الإعلان من صاحبه كما يجهزه، هذه مساحة 30 x 50 مثلاً فالمعلن يحضر لهم الإعلان جاهزاً إلى درجة أن الأفلام مفصلة ألوانها، وهم يطبعونها هكذا.

ولا أبلغ إذا قلت لك إنهم في جريدة السبت أو الأحد يتحفونك بعشرات الصفحات الإعلانية الملونة ذات الأحجام المتنافرة. وليس لها أرقام اللهم إلا تسلسل خروجها من ماكينات التوضيب فوق بعضها.

والعاملون في الصحافة يفهمون المسألة في منتهى البساطة، فالصحيفة تستغل انتشارها وجمهورها بأن توزع هذه الإعلانات لأصحابها وتتقاضى منهم قيمة الإعلانات مقابل خروجها مع الصحيفة من دار الجريدة ودخولها معها البيوت.

والمعلنون بالطبع سعداء بما يدفعون للجريدة فهم سيطبعون الإعلان أياً ما كان
الوضع وسيدفعون غالباً من أجل توزيعه بالبريد أو من أجل بث الصبغة الصغار به
على أبواب المساجد والمدارس كما تفعل البلاد النامية.

وقديماً، وفي مطلع الصحافة المصرية وقبل حوالى قرن من الزمان كان فى
مصر صحيفة توزع بالمجان إذ تعتمد تماماً على الإعلانات. هنا فى كليفلاند
توجد أكثر من صحيفة من هذا النوع. ولكنى أعتقد أنه لا يزال من الأوقع أن تكون
الصحيفة بثمن رمزى. ومع هذا فإن جيلاً من مديرى الصحف فى مصر لا يكاد
يقدر نعمة «الثمن الرمزى» على الصحيفة ويريد أن يشتط بأسعار الصحف ما أمكنه
ذلك مع أنهم يعلمون تماماً أنه مهما رفع سعر الصحيفة فلن يفى، وحده، بتكاليفها.



تعجبني فى «البلان ديلر» أيضاً تلك الكلمات الرصينة التى تتضمنها صفحة
الرأى، بل عناوين هذه المقالات نفسها حيث التعقل والنظرة المتأنية بعيداً عن
عبادة الرأى الشائع. وعبادة الرأى الشائع مأساة خاصة إذا كان هو رأى الشارع.

ويعجبني أيضاً أن الجريدة لا تستتكف، شأنها شأن الصحف الأمريكية، أن
تعطى لحرب الخليج خمس صفحات أو ست صفحات كاملة، ولكنى أتألم كثيراً
للصور التى تنشرها عن خراب الكويت، أو تشرد الأكراد، أو ظلم نظام العراق لشعب
العراق ولجيش العراق.

يعجبني أيضاً أن الجريدة خصصت للكاريكاتير صفحة وجزءاً من صفحة أخرى
وأنها تنشر صوراً كاريكاتيرية لأكثر من عشرين رساماً، وكنت أتساءل هل كلهم

معينون ويتقاضون رواتب، أم أنهم شبان هاوون مثل الذين كانوا يرسلون الأستاذ مصطفى حسين في ملحق الخميس الأسبوعي الذي كانت جريدة الأخبار تصدره، وحين زرت الجريدة سألتهم وعرفت أن هناك نقابة لرسامي الكاريكاتير وأنهم يشترون من هذه النقابة هذه الرسومات.

توزع «البلان ديلر» ٤٣٠ ألف نسخة يومياً، وفي الآحاد يرتفع توزيعها إلى ٥٧٠ ألف نسخة، وهي بهذا الجريدة الخامسة عشرة على مستوى الولايات المتحدة. مما يعنى نجاحاً حقيقياً لها إذا تذكرت أن كليفلاند هي تقريباً المدينة الثانية عشرة من حيث ترتيب السكان. لهذا فإن «البلان ديلر» فخورة بأنها الأولى في الاستحواذ على سكان منطقتها إذ يطالعها ٥٨% من قراء الصحف في الاقليم الذي تصدر فيه. وهي الأولى كذلك في الاستحواذ على سكان منطقتها فيما يتعلق بعددها الأسبوعي حيث يطالعها حوالي ٧١% من هؤلاء. وفي هذه المكانة تليها بفارق بسيط جداً (٧١%) أيضاً) الواشنطن بوست.



مباني «البلان ديلر» تم بناؤها في ١٩٢٠ على سبعة هكتارات، وفي خطة المستقبل أنها ستمتد إلى ٥٠ هكتار إضافية.

ويعمل في هذه الصحيفة ألف وثمانمائة فقط من بينهم ثلاثمائة وسبعون صحفياً ومعلقاً وربما أدهشك حين أقول لك إن كل هؤلاء الصحفيين يعملون جميعاً في صالة واحدة تضم ما يزيد على ٢٠٠ كمبيوتر!!.

طبعا هذه التي اسمها «صالة» هي الدور الثاني كله. ربما تبلغ مساحتها مساحة

أكبر من صالة تحرير الأهرام، ولكنها ليست بجمال صالة تحرير الأهرام.. إنما هي مزدحمة ومكدسة ومقبضة تماماً أيضاً.

منذ ثلاثين عاماً كان عدد العاملين في البلاد ديلر ١٨٠٠ أيضاً، ولكن مع اختلاف النوعية. فقد كان هناك ٥٠٠ عامل في قسم اللينوتيب وحده وكان هناك ٢٥ آخرون في قسم السيترينوتيب. اليوم ليس هناك أحد في هذين القسمين لأنه لم يعد لهما وجود.

مدير الشؤون العامة يكمل هذا العام ثلاثين عاماً من العمل في «البلان ديلر»، وهو يرى أن في كليفلاند مؤسستين عالميتين: الكلينيك التي يأتيها الناس من كل مكان، وشركة البترول الكبرى التي لها فروع في كل دولة كأنها سفارات. وهو سعيد جداً بالعلاقة بين كليفلاند كلينيك، وبين الصحيفة. وقد روى لي كيف ضيقت الصحيفة أكبر خبطة صحفية في العام الماضي (١٩٩٠) حين حصل محررها على تصريح من الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء (الذي كان يجري فحوصاً في كليفلاند كلينيك) بأن مصر ستشارك مع الحلفاء من أجل إنهاء احتلال العراق للكويت. ولكن رئيس التحرير المسئول يومها لم يبرز التصريح لا شيء إلا لأن الذي حصل عليه محرر محلي في مركز كليفلاند الطبي. وفي اليوم التالي كانت عناوين صحف العالم كلها مخصصة لهذا الموضوع بعد تصريحات الرئيس مبارك.

كان من حظي حين زرت «البلان ديلر» وطففت بين أرجائها أن التقيت بكبير المحررين، ورئيس القسم الفني، ومدير الانتاج، وقد أطلعوني جميعاً على كل خططهم وماضيهم، ولكني فيما يتعلق بكتابي هذا لا أجد نفسي قادراً على التوسع

فى روافة ءفصفااء العء الصءفى . وفى الوقت ذاته لا أسءطفع منع نفسى من ءسءفل بعء اللءاء السرفعة عن هءه ءرفءة .

ءءسع صالة ءءرفر ءرفءة لكل الصءفففن (٣٧٠) ولءوالى ٢١٠ كمبفوءر شءصى أمامهم فسءطفعون من ءلالها الاءصال بالمنءوبفن؁ وءءابة ما فرفءون وءنظفم أو ءنسفق ما فسى بالسءرءارفة والءفسء .

مءبعة ءرفءة لا ءبءأ العء إلا بعء ءاسعة مساء وءسءمر ءءى الرابعة والنصف صباءاً . وفى أفا السبء والأء ءبءأ المءابع مبءرة منذ السادسة لءباعة الملاحق!!

(٤)

ءفءر كلفففلاء بأنها ءضم أعرق أورءسءرا سفففونى أمرفكى؁ وقد ءاومت على الاسءماع إلفه فى كل أفاى من ءلال الرافءو؁ وإن لم أسعء بعءور إءءى ءفلاءه؁ ولكننى ءضرت مع أءء الزملاء الفرنسفن ءفلة موسفقفة فى ءامعة كفس وفسءرن؁ أقمء ءفلة ءءء شعار «موسفق ءءز فى الشابل» .

الفرقة مءموعة من طلاب ءامعة . اصءلاح طلاب ءامعة هنا لا فءءصر مءل مصر على طلاب مرءلة البكالورفس ولكنها ءعنى هؤلاء الطلاب وطلاب الماءسءفر والءءءورا؁ وهءا الفرنسى الذى فءوء الفرقة طالب ماءسءفر .

وقء بءأء ءفلة فى ءامنة وانءهء ءوالى العاشرة .. أما عءء ءاضرفن فقلل .. ولكن أءأاً منهم لا فسلك سلوكاً فءعله أقل من مسءوى ءضور .. العازفون سعءاء .. والمسءمعون سعءاء .. وفنءهى ءفل ففنصرف كلٌ ومعه سعءاءه إلى ءال سبفله .

(5)

هل ذهبت «الفلاتس»؟ لا بد أن تذهب «الفلاتس» ما دمت فى كليفيلاندا! أو لم تذهب «الفلاتس» بعد؟! ستكون فى غاية السعادة إذا ذهبت «الفلاتس».

هكذا تعاقبت التعليقات مرة بعد أخرى من العائلة التى أسكن بيتها، ومن الزملاء الأطباء فى الكليتك، بل من الزميل الأرجنتيني الذى كان مثلى يسكن فى هذا البيت فى أغسطس الماضى، وجاء لزيارتنا زيارة عابرة ليوم واحد.

قلت لنفسى: لا بد أن أذهب إلى «الفلاتس» تحفة كليفيلاندا، الطريق طويل، ربما لأنى قادم من شرق المدينة، والفلاتس فى غربها، ولكنه بالفعل بعيد.

القنطرة التى تعبر النهر جميلة إلى أقصى حد، فخامتها لا توصف، تأمل أن هذه المعجزات بنيت منذ مائة وخمسين عاماً ونحن فى مصر لا نزال ننتشى عند افتتاح كوبرى هنا أو هناك على النيل العظيم ونقول ساعتها: «ويعد هذا أطول كوبرى على النيل»، وأحياناً «أعرض»، وأحياناً نتواضع فنقول: «إنه يعبر النيل عند أعرض نقطة فى ممره».

كوبرى بنها على النيل الذى تغنى له داليدا وهى فى باريس «على كوبرى بنها يانور عيني منديل حبيبى طرف عيني»، يتبرأ تماماً من أغنية داليدا ويؤكد للرائح والغادى أنه لم تقع عليه هذه الحادثة الرومانسية أبداً، وأنه إذا كان ولا بد أن منديلاً طرف عين محبوبية فقد يحدث ذلك على كوبرى آخر إلا كوبرى بنها الاستراتيجى الذى تقف أمامه السيارات فى حالة انتظار وجمود ربما لنصف ساعة.. تيار الهواء

ساكن إذاً، والمندبل لا يتحرك، وبالتالي لا يطرف عينا حتى وان كانت عين
داليدا..

كوبرى بنها هذا العظيم الذى كان أهم كبارينا الاستراتيجية، منذ بنى فى عهد
الملك فؤاد حوالى سنة ١٩٣٢ يتواضع أمام هذا الكوبرى البسيط على نهر بسيط فى
بلد بسيط، ومع هذا فنحن لا نزال فخورين بأننا دولة زراعية.. وبلد النيل. وأن
عندنا طرقاً زراعية وطرقاً وكبارى تعبر النيل (!!).

قد تظننى ياسيدى فى حاجة الآن إلى الاعتذار عن هذا الاستطراد الذى لامبرر
له.. لكن عذرى أنى كنت أحب أن أصور لك حالتى النفسية وأنا ذاهب إلى
«الفلاتس»، بأقرب ما يكون التصوير إلى الحقيقة.. وها أنت ترانى الآن وقد انتابنى
الشعور بالتواضع.. وقلت لنفسى والآن سنرى «الفلاتس»، حيث تتواضع أمامه كل
فنادقنا وكازينوهاتنا ونوادينا التى على النيل الساحر فى القاهرة.



لن أحدثك عن «الفلاتس»، الذى كانت مضيفتى فخورة به وهى تطأ الأرض
ولكنى أؤكد لك أن أى مقهى نيلى متواضع فى أى قرية من قرى مصر العامرة
أكثر حياة ورقياً وفناً وفندقة من هذا «الفلاتس»، الميت الصامت.. عندما أخذت
مكانى فى أفخر صالونات «الفلاتس»، زال تواضعى، وبدأت أفهم لماذا يقال إن مصر
هى بلد السياحة والمتعة الجميلة. وإن مصر هى البلد الذى لا بد للسائح أن يراه حتى
وإن كانت الكبارى التى فيه لا تطرف عيون المحبوبات، ذلك أنه حتى
«الكباريهات»، فى مصر تطرف عيون المحبوبات.

سوف تتهمنى ياسيدى بالتحامل على «الفلاتس»، قرّة عين أهل كليفلاند.. لك أن تتهمنى، ولكنى سأذكر لك نل مزايا الفلاتس.

هناك فى جانب جميل من «الفلاتس»، توجد شجرة مستعارة من ذات الورق العريض يسمونه Bird of Paradise إلى جوارها شجرة أخرى من نوع Oleander هذا الشجر يحتوى على مادة مخدرة.. ربما لا يعرف الطيبون من أمثالك وأمثالى أنه يحتوى على هذه المادة المخدرة، ويكتفون بالإعجاب بشكله المتناسق.. أما أن الشجرتين مستعارتان فلأننا كنا فى مارس ولا يزال الجليد هو صاحب السيادة.. ولما تبزغ شمس الربيع بعد.. فإذا وجدت هاتان الشجرتان على هذا النوع البديع الرائع فإن هذه ميزة من مزايا الفلاتس.

الميزة الثانية إن للفلاتس مساحة واسعة لانتظار السيارات. ولكن هذه الميزة تتبخّر (أو تتضاعف فى نظرك) إذا علمت بقية قصتها.. فهذا الجراج يديره مجموعة من القبضايات أو البلطجية المحترمين.. وصلنا إليهم بسيارتنا فإذا بهم يقولون: لا توجد أماكن بينما الأماكن فسيحة أمام ناظرينا.. فتحت مضيفتى محفظتها الصغيرة، وشاهدوا أوراق النقد من فئة الدولارات الخمسة.. أو قل على طريقة المصريين من فئة الشلن.. فقال هؤلاء إذا كان الأمر كذلك فهناك أماكن.. أخذنا التذكرة، ومضينا بالسيارة قرب باب الفلاتس وهناك أقبل علينا من كشكه الزجاجى حارس آخر.. أخذ السيارة منا بعد ما أخذنا تليفونها. وانطلق بها يضعها حيث يريد للنظام أن يتم.. فلما عزمنا على المغادرة كان هو الذى لمحنا من كشكه الزجاجى من دون أن نناديه وأتى لنا بالسيارة حيث وقفنا على باب المدخل..

أذكر هنا أن الدكتور رفعت حواس كان فى محطة مترو الأنفاق بباريس كثيراً ما

يلفت نظري إلى حقيقة أن المترو يقف بحيث يكون باب عربة الدرجة الأولى (التي هي في الوسط منه دائماً) أمام فتحة الرصيف مباشرة بحيث لا يتعب (سعادة البيه راكب الدرجة الأولى) في ملاحقة عربات المترو!!.

الميزة الثالثة في الفلاتس أنه لا يتقاضى منك إلا هذه الإتاوة التي هي غير كافية لأن تكون حداً أدنى لفرد واحد!!.

(٦)

صحيح أن في كليفلاند وما حولها كثيراً من الأحياء الراقية والمواقع المتميزة شبه الآمنة ولكن كل ذلك لن يخلد في ذهنك إلا مرتبطاً بهذا الرعب من هذه الجرائم التي لا تستحي وهي تفرض نفسها كل صباح في عناوين صحف الصباح بل كل ساعة في مقدمات نشرات التلفزيون المحلية.

كان أحد أصدقائنا قد جاء إلى كليفلاند مشعباً بما فيه الكفاية بكل القصص الحقيقية عن الإجرام هناك.. وحين وصل في حوالي الساعة الثالثة صباحاً إلى ما كان يسمى بفندق الجامعة.. وجد حارساً أسود لم يكن من سلطته أن يتيح لزميلنا أى تسهيلات أو ضيافة إلا أن يبقى مع حقائبه في المدخل حتى يأتي موظف استقبال هذا الفندق الجامعي في الصباح!

صاحبنا يسأل الحارس: هل هناك جرائم قتل، والحارس يجيبه: نعم كثيراً ما أكون في طريقى هذا فتحدث أمامى جرائم قتل وعنق.. ويشير إلى بعض المواقع وهو يروى قصص ما رآه، وتكون إشارة أصبعه في بعض الأحيان قريبة جداً: هنا مثلاً، يستبد الرعب بصاحبنا، ولكن ماذا في وسعه أن يفعل؟

يستدير الحارس فيلحظ صاحبي أن في جيبه شيئاً ما يبرز في نهايته قبضة معدنية تماماً كتلك التي في المطواة المسماة في مصر بقرن الغزال.. يقرأ صاحبي الشهادتين وينتظر الموت، وفيما بعد يكتشف مع الأيام أن هذا الشيء الذي في نهايته قبضة معدنية ليس إلا مشط الشعر الذي يستخدمه الزوج..

ومن الطريف بهذه المناسبة أن صديقاً من أصدقائنا ذهب إلى الحلاق فسأله في إنجليزية بسيطة: هل تريده على هيئة مربع أو على هيئة دائرة؟ وبحسن نية ظن صاحبنا أنه يسأل، على عادة أصحاب صالونات الحلاقة في مصر، عن الهيئة التي يكون عليها تهذيب نهايات شعره في مؤخرة رأسه، ويجيب صاحبنا من فوره: على هيئة دائرة.. فيفاجأ زميلنا في النهاية بشعره، وقد تحول إلى الهيئة التي يراها في شعر الزوج: صندوق مدور من الشعر كتاج فوق رأس شبه أصلع!!

(٧)

في الأسبوع الأول من إبريل كان علينا أن نقدم الساعة فقد بدأ التوقيت الصيفي في مدينة كليفلاند، لعلك تظن أن الربيع على الأقل قد حلّ على المدينة، ... لا ياسيدى فلا يزال الجليد يكسو وجه هذه المدينة ببياض محبب إلى النفس ولكنه أحياناً غير مريح بالطبع. ولكنك لا بد أن تلتزم بالتوقيت الصيفي! في عز الشتاء!! إلى هنا وليس في الأمر شيء.

ولكن الطرفة الكبرى ياسيدى أن مسألة التوقيت هذه من المسائل الخلافية بين الولايات، فهناك ولايات تقدم الساعة، وولايات لا تقدم الساعة.. وهكذا تصبح في حيرة من أمرك وأنت تخاطب ولايات أخرى بالتليفون.. فلا بد أن تحسب أولاً

فروق التوقيت الموجودة في الولايات المتحدة الأمريكية فالتاسعة في لوس أنجلوس هي الثانية عشرة في نيويورك ثم تنظر هل تلتزم هذه الولاية بالتوقيت الصيفي أم لا.. فإذا كانت معك على نفس خط العرض ولا تلتزم بالتوقيت الصيفي فهي لازالت في السابعة على حين أنك في الثامنة، لا تبتس إذا لم تجد الموظفين أو زملاءك يردون عليك في ذلك المستشفى العظيم في الولاية الأخرى..

وربما يكون هناك فرق طبيعي في التوقيت بحكم خطوط العرض فإذا به يتلاشى مع تقديم الساعة في ولاية أكثر بعداً عن الأطلنطي ولكنها تقدم ساعة بينما أنت تحادثها من ولاية على الأطلنطي لم تقدم الساعة.

لهذا فمن الطبيعي أن تجد الناس يسألون محادثيهم في التلفون: كم الساعة الآن عندكم؟ وهم ينظرون في ساعاتهم!

على أن أطرف ما في موضوع التوقيت الصيفي ما حكاها لنا الدكتور أسامة سليمان من أن بعض المدن الصغيرة في كثير من الولايات لا تلتزم في كثير من الأحيان بتقديم الساعة رغم التزام الولاية كلها بذلك!! لماذا أيها السادة؟ فيقولون لك حتى لا نزعج البقر الذي تعود على تناول طعامه في ساعات معينة في الصباح، فإذا نحن نغير له مواعيده بحكم أن الساعة تتغير في الظاهر فقط. وهم يقصدون الساعة البيولوجية، التي سأحدثك عنها في موضع آخر من هذا الكتاب.



ها هو الربيع يبدأ في كليفيالاند، وها هي الصحف تزف للناس في إعلاناتها أسعاراً متعددة للشركات التي تتولى تنسيق الحدائق وزرع الشتلات، وها أنا اليوم

أستمع طوال الصباح بمشاهدة هذا «الجنائني» النشط ومعه الشتلات الجميلة للزهور
الصفراء والحمراء والزرقاء، يحرث الأرض بمحراث كهربائي يدفعه بيده ليس
إلا.. صوت مزعج ولكن لا بأس فكل الآلات الأمريكية مرتفعة الصوت على ما
يبدو، ثم هو ينتقى الشتلات يغرستها في أماكنها المحددة سلفاً، وما هو المنظر يتغير
تماماً في أقل من ٢٤ ساعة من شتاء تام إلى ربيع تام!!! صحيح أن السماء لا تمطر
ذهباً ولا فضة.. فهذه الطبيعة الجميلة، طبيعة حقاً ولكنها غرس الإنسان والطبيعة،
والإنسان من صنع الله الذي أتقن كل شيء.

في بيت عائلة أمريكية

في بيت عائلة أمريكية

(١)

لا أعرف بالضبط هل أقع تحت طائلة قانون العقوبات الأمريكي إذا أنا تحدثت بشيء من التفصيل عن البيت الذي عشت فيه مع أسرة أمريكية في كليفلاند على الرغم من أن الأسرة تعلم تماماً أنني سأكتب عنها وعن بيتها.. وربما تعلم على وجه التقريب كثيراً من مضمون هذا الذي أكتبه.

كنت حريصاً عند الترتيب لهذه الزيارة أن أقيم في بيت عائلة أمريكية لأن قضاء مدة طويلة في فندق ليس بالأمر التي تتحمله نفسية أي إنسان سوى حتى وإن تمنى بعض الناس ذلك في ساعات ملل من مسئوليات البيوت!!

والواقع أن هذا كان هو السبب الثالث، أما السبب الأول فهو أنني كنت أريد ما

يريده كل إنسان على ظهر الأرض من أن يستكشف حياة الأمريكيين في بيوتهم بعد هذه الصور المتلاحقة التي تطلعتنا عليها جميعاً السينما الأمريكية عن البيت الأمريكي الفاخر، والأسرة الأمريكية المفككة.

أكاد أجزم ياسيدى ولكنى متأكد من أنك تصدقنى إذا قلت لك بدون يمين إن هنا أمريكيين أيضاً يريدون أن يشاهدوا على الطبيعة صورة ذلك البيت الأمريكى التى تقدمها السينما الأمريكية.. تماماً كما أن من المصريين من يريد أن يتأمل حياة القاهريين الذين تصورهم السينما المصرية وكأنهم لا يعرفون شيئاً إلا كباريهات شارع الهرم.

هذان هما السببان الأول والثالث، أما السبب الثانى فسبب شخصى بحت، فقد كنت فى حاجة إلى فترة من الاستجمام البدنى والذهنى والاجتماعى أقضيها فى قراءة القرآن ومذاكرة كتب الطب وكتابة بعض التجارب الذاتية فقط، وكنت أعتقد [ويبدو أننى كنت مصيباً فى هذا الاعتقاد] أن وجودى فى بيت غير بيتى كفىل بهذا.. ولهذا كنت عازماً وقد نفذت ما عزمت عليه على ألا أقود سيارة، أو أخرج بليل أو أتحدث فى التليفون إلا فى أضيق الحدود.

وعلى قدر ما أسعدنى أن تحقق لى هدفى هذا رغم كل الدوافع والمغريات بشراء سيارة أو قيادة سيارة أو استئجار سيارة، فقد أسعدنى بالطبع أنى خلوت إلى نفسى فترات متتالية استطعت أن أكتب فيها ضمن ما كتبت هذا الكتاب.



ولكنى أريد أن أحدثك قبل هذا عن أول الأزمات فى الوصول إلى منزلى الجديد. ذلك أنه فى صباح يوم الأربعاء السابق على سفرى تلقيت بالتكس فى

الزقازيق رسالة فحواما أن العائلة الأمريكية لن تدرن قادرة على استقبالي في الموعد الذي حددته شركة الطيران المصرية في الثانية عشرة وسبع دقائق بعد منتصف الليل ولهذا فإن على أن أحاول تغيير موعد وصولي: إما مبكراً يوم الجمعة وإما في صباح اليوم التالي يوم السبت. أو أن أقضى ليلة في الفندق وقد حجزوا لي من باب الاحتياط ليلة واحدة يلغى حجزها تلقائياً إذا لم أحضر حتى الثالثة صباحاً. ومرّ في تلك اللحظة أمام عقلي شريط الذكريات المقروءة حين كان المصريون يسافرون على مصر للطيران فقط ويضطرون لكثير من التغييرات غير المنطقية في رحلاتهم من أجل الالتزام بمصر للطيران. وها هي مصر للطيران الناجحة الرابعة تعود فتضطرنا إلى مثل هذا في مطالع العقد الأخير من القرن العشرين. فطائرتها لا تسافر أمريكا إلا يومى الجمعة والأحد. وإذا فاتتك طائرة الأحد ضاع عليك أسبوع كامل في أمريكا لأنك حين تصل إلى أمريكا يوم الجمعة التالي في الرابعة والنصف مثلاً تكون عطلة الأسبوع قد بدأت هناك. ومصر للطيران تدخل أمريكا من باب نيويورك وهو أصعب أبواب الجنة الأمريكية.

يكفيك منه أن تقف في طابور لا يكف عن الانثناء والانحناء يميناً وشمالاً بين مسارات حدودها بتلك القوائم النحاسية الأنيقة بحيث يقف فيه ألفان أو يزيد من البشر. تتعجب للرقم «ألفان في طابور، نعم. هذان الألفان هم ركاب أربع طائرات فقط. تسألنى ومن أين تأتى الطائرات الأربع فأذكرك ياسيدى أن هذا المطار يستقبل طائرة كل دقيقة. لا تتعجب ياسيدى من هذا واستمر معنا فى تصور رحلة مصر للطيران. النتيجة بالطبع أنك لن تستطيع أن تصل من طائرة مصر للطيران إلى أى مطار أمريكى آخر إلا بعد وقت وعناء. وبالتالى فإنهم فى مكاتب مصر

للطيران فى القاهرة يحتاطون ويحجزون لك موعداً على الطائرة التى تتحرك من نيويورك بعد وصول طائرتهم بست ساعات على الأقل!! . فإذا خطر ببالك وأنت فى القاهرة أن تطلب إليهم أن يضعوك على طائرة أسبق موعداً أخلصوا لك النصيح بعدم التعجل فى مثل هذه المواقف لأنهم لا يضمنون الظروف .

مع هذا كله لستُ (مع أنى أنا العجول الذى تمثله عجلته عيباً بارزاً فى شخصيته الحافلة بالعيوب الأخرى) بالذى يتقبل مثل هذه الخطوات البطيئة .. وماذا يبقينى أنا فى هذا المطار الكئيب الذى هو فى الحقيقة بمثابة مجموعة من الدول (لا دولة واحدة) .. وأنا لا أبالغ فى هذا الوصف . فكل شركة من الشركات فى هذا المطار شبه مطار مستقل، ولكى تتحرك من مطار إلى مطار هناك أتوبيسات لذلك ومسارات . وإذا كنت قادماً من مدينة نيويورك أو خارجها بالسيارة إلى المطار ودخلت بسيارتك فى مسار خاطيء فإنك لكى تعود إلى المسار الصحيح تقضى وقتاً طويلاً يكون كفيلاً بضياع موعد طائرتك عليك .. والعودة فى اليوم الثانى كى تستقل طائرة الغد .. (وفى حالة مصر للطيران العودة بعد خمسة أيام)



ها هى طائرة مصر للطيران تقوم من باريس متأخرة .. إذن سنصل نيويورك متأخرين ولكن قائدها الماهر يصل فى مواعده!! أطلب استثنائى من الطابور لأنى أريد اللحاق بطائرة أخرى أزف موعداً .. وها هم يجيبونى إلى طلبى بعد أخذ ورد .. وهأنذا أمام مكتب شركة PANAM فى صالة الوصول ولا أحد فيه، ولا أحد يرد على التليفون المخصص للاستعلامات .. وهأنذا أعود مرة أخرى إلى مكتب مصر للطيران، ولا أحد يستجيب من مكتب PANAM ... والحل الذى تسوله لى

خبرتي في السفر أن انطلق بحقائبي من دون أن أسلمها على السير Check in وأن أكون جاهزاً تماماً لصعود الطائرة بدون أن أسلم حقائبي مقدماً، وأن أتعهد بأخذها معي كحقائب يد في طائرة PANAM وأن يتقبلوا هم هذا الوضع لأنها بحجمها الذي راعيته لن تزعج متن الطائرة .

كل ما يتطلبه هذا الحل هو عشر دقائق من الجري أو السير السريع (حتى أصل من مطار الشركات الدولية الصغيرة المشتركة في مطار أليطاليا (ومنها مصر للطيران) إلى المطار الأفخم للشركة الأمريكية PANAM) في صقيع نيويورك، وعواصفها وأمطارها لا بأس من ذلك، وأن أكون حاملاً حقائبي ولا بأس أيضاً.. ما دام ذلك يوفر لي ست ساعات من الانتظار الممل في مطار نيويورك الدولي J.F. Kenndy ولا تقل عنه هنا غير J.F.K جي أف كيه .. ويضمن لي أيضاً راحة بعد هذه الساعات بأن آوى إلى فراش بدلاً من العذاب المتصل بعد رحلة طيران طويلة جاءت هي الأخرى بعد ليلة لم أر النوم فيها في القاهرة إلا متأخراً جداً.



خطر ببالي في تلك اللحظة أنه أحياناً ما يكون من حظ الأشخاص الذين ترغب شعوبهم أو دولهم في تخليدهم أن تطلق أسماءهم على مؤسسات يكثر ترداد أسمائها فيكونون محظوظين بكثرة هذا التردد، وأحياناً أخرى يكون من حظ هؤلاء أن تطلق أسماؤهم على منشآت لا تتردد أسماؤها إلا مع شيء من اللعنة والمال والضيق، كما هو الحال مع كل زائر لأمريكا حيث لا بد له أن يذكر اسم كنيدي بكل ضيق، وربما بالسب واللعن إذا مر بمطار كنيدي وأن يكفر من سيئات الدون جوان. أو مع زائر القاهرة حين تضطره الظروف إلى طريق صلاح سالم حين تصيبه لعنة الازدحام والتوقف .. ما علينا!!

هأنذا أصل إلى مطار «بان أم» وأنجح بمزيد من التوفيق من الله في إقناع السيدة المسئولة عن الترتيب في وضعى على الطائرة المزدهمة، فيما بعد وجدت أن الطائرة حين أقلعت لم يكن فيها مكان واحد خال... ربما تعاطفت معى هذه السيدة لان اسمها كان مدام محمد... زوجها محمد وكفى.. هل هو مصرى أو أمريكى أو أفريقى أو عربى لا أعلم، هل أسلم أو ولد مسلماً لا أعلم. كل ما أعلمه هو أن اسمها الأخير والوحيد على البادج محمداً أما اسمها الأول فقد اكتفت منه بالحرف الأول فحسب.

ولابد الآن من هذا التليفون لأتصل بكليفيلاند ليرسلوا السائق لاستقبالى فى المطار فى موعد وصول الطائرة.. ولكى تستعمل التليفون لابد من العملات المعدنية. ولابد من أجل الحصول على العملات المعدنية من ترك حقائبك جانباً والذهاب للحصول على العملات الأجنبية من الكاشير المخصص لذلك فى هذا المطار.... وقد وفقنى الله وأدركت الموظفين فى كليفيلاند قبل أن يتركوا مكاتبهم ويغادروها... ووعدونى من كليفيلاند بإرسال السائق!!.. الآن ينتابنى الغرور لنجاحى فى كل هذه الخطوات، بل وأمامى بعد هذا كله فسحة من الوقت حتى تقلع طائرتى إلى كليفيلاند ومن ثم فإنى أستطيع الآن أن أبدأ الحوار الأمريكى حول كل ما يهمنى الحوار عنه.



..... وتصل الطائرة إلى كليفيلاند وأجد الليموزين فى انتظارى على نحو ما حدثتك فى مقدمة هذا الكتاب، والسائق على علم مسبق بخط سيرى وهو يقول لى: إننا سنذهب للفندق حيث أقضى هذه الليلة، وفى الصباح يمكننى أن أذهب المنزل

المفترض أنني سأقيم فيه . لم أسأل السائق بالطبع لماذا؟ فالمنطق يقول إنه لا بد أن هناك شيئاً في الأمر وأنهم قد رتبوا الأمور على هذا النحو، ما دام السائق قد جاء في الموعد المحدد.

وصلنا إلى الفندق وتركنى السائق، أنا الآن أمام موظف الاستقبال يبحث عن الحجز الذى باسمى فلا يجد حجراً، وقبل أن أطلب إليه أن يعاود البحث كان السائق نفسه واقفاً أمامى مرة أخرى يعتذر لانه عندما أعطى لإدارة شركة الليموزين التمام باللاسكى، قالوا له إن الطلب الموجود عندهم أن يوصلنى إلى «بيت الضيافة»، وليس إلى «الفندق». ورغم أن المسافة بين الاثنين حوالى ٢٠٠ متراً إلا أن السائق عاد وحمل حقائبى، وتحرك بى وبالليموزين إلى بيت الضيافة حيث وجدت الحجز الخاص بى بالفعل.

انصرفت إلى سريرى فى حوالى الساعة التاسعة مساء بعد وجبة خفيفة استغرقت ربع ساعة، وحمام دافىء استغرق ربع ساعة أخرى، وخمس دقائق أمام التليفزيون، وخمس دقائق أخرى فى فتح الحقائب وترتيب ما قد احتاج إليه من حاجياتى، ويبدو أنني بمجرد أن وضعت رأسى على الوسادة دخلت فى النوم كما يقولون.



فى الثانية عشرة تماماً وقبل أن تنقضى ثلاث ساعات على بداية نومى كنت استيقظ بسبب ما نسميه الساعة البيولوجية التى فى أجسامنا.. هذه الساعة البيولوجية لا تعرف فروق التوقيت ولا يمكن تحريك عقاربها بهذه السهولة التى ضبطنا بها ساعتنا حين وصلنا مطار باريس أو مطار نيويورك، فهذا الجسد ~~يستطيع~~

في القاهرة ما بين السادسة والسابعة صباحاً ولا يتأخر عن السابعة مهما كان منهكاً.. فلا بد أن يستيقظ في نيويورك في الثانية عشرة التي تناظر السابعة في القاهرة.. مهما كان منهكاً.. فليستيقظ ثم لينم بعد ذلك... لا بأس، ولكن لا بد له من أن يستيقظ!!.

أستيقظ إذاً، وأبدأ في الوعي، أحس بالجوع الشديد فأتناول وجبة خفيفة أخرى وأبدأ في محاولة للحديث إلى القاهرة بالتليفون ثم ما هي إلا دقائق، ويتمكني التعب فأذهب مرة أخرى في النوم العميق.

في الرابعة صباحاً استيقظت مرة أخرى وبذلت محاولات للنوم حتى السابعة بلا جدوى، ولم يكن بد إذاً من أن أستيقظ وأفتح الستائر، ومذ أن دقت الساعة الثامنة صباحاً وأنا أحاول الاتصال بالعائلة الأمريكية كي أتفق معها على الموعد الذي يمكنني فيه أن أحظى باستقبالها لي.. وفي كل حين تجيء سماعه التليفون بصوت مسجل يقول إن هذا الرقم قد قُطعت عنه الحرارة، نفس الرد الذي سمعته منذ كنت في نيويورك.. حتى إذا كانت الساعة العاشرة تماماً كانت العائلة هي التي تحادثني تليفونياً، سائلة عما إذا كنت قد استيقظت.. إذاً فهي العائلة لا تزال في كليفلاند. بعدما كنت قد بدأت مع زميلي المقيم في كليفلاند الدكتور حسام الشراوى البحث عن مكان بديل أقيم فيه.

وأجيب بسرعة: نعم أنا الذي في انتظاركم وأنا الذي عانيت من الاتصال التليفوني بكم..

لا عليك.. Never mind .

وماذا عن تليفونكم..

قالت: إنها تستعمل جهاز الإجابة الأتوماتيكية ..

انتابني العجب، هل يضع إنسان في شريط الإجابة عبارة تقول إن تليفونه قد فقد الاتصال .. ولكن ليس من حقى أن أتعجب مبكراً من مثل هذا التصرف، فأنا ما زلت رغم كل شيء ضيفاً أجنبياً...

دعيني ، يا سيدتى، أعرف متى يمكننى أن أحضر إليكم بالضبط وأتصل بكم ثانية .. ها أنا قد حددت مع حسام موعداً وأعود الاتصال بالعائلة فإذا نفس الإجابة فى التليفون مرة واثنين وثلاثاً وأربعاً .. فلنصبر وسوف نتحدث .. حتى إذا كانت الساعة الحادية عشرة تحدثت ربة العائلة .. يا سيدتى تليفونك لا يزال يرد على بما يعنى أنه لا يزال معطلاً .. طلبتك أكثر من أربع مرات .. لا عليك مما مضى ولكن اطلبى «مصلحة التليفونات» ..

طيب حاضر! أرجوك! ولكن حاول أن تطلبنى مرة ثانية ما إن ننتهى من مكالمتنا هذه .. لا أمل أيضاً ..

فى الثانية عشرة خطر فى بالى أن أطالع اسم هذه العائلة فى دفتر التليفونات الخاص بكليفيلاند ووجدت أن هناك صفحة كاملة من الذين يحملون لقب هذه العائلة .. أما اسم هذه العائلة فهو موجود فعلاً فى العنوان ذاته ولكن رقم التليفون مختلف .. هنا سر المأساة إنه ليس مختلفاً تماماً كما يتوقع القارىء من اقتران كلمة «تماماً» بكلمة مختلف فى حديث المصريين عما يتعجبون منه حين يقولون مختلف «تماماً» أو مختلف «خالص خالص» .. إنما كان الاختلاف فى رقم واحد .. يا الله .. فى ذات اللحظة كانت العائلة الأمريكية تتصل .. انتظرت فقد تعلن بنفسها عن اكتشاف الخطأ لأنها بالطبع لن تسكت فى الساعة الماضية عن بحث هذه المشكلة ..

ولعلها طلبت بل لقد طلبت مصلحة التليفونات بالفعل وأجروا لها اختباراً وكلموها من السنترال ولم يعد هناك من احتمال للبس إلا أن يكون الرقم المطلوب (أى الذى معى) خطأ.. وهكذا طلبوا أن أقرأ الرقم المرسل بالتلكس.. وبدأنا مرحلة من التنهم الصحيح.. وحين راجعت الخطابات الأولى التى فيها عنوان العائلة اكتشفت أنها تضم الرقم الصحيح، ولكن الخطأ حدث فى آخر اتصال وهو الذى تم عن طريق التلكس، حيث أخطأت موظفة المركز الدولى فى كتابة (أو بعبارة أدق! فى نقل رقم التليفون).

وصباح الإثنين حين كان على أن أبدأ عملى كنت أعود من حين لآخر إلى القول المنسوب فيما أظنه للإمام الشافعى عليه رحمة الله:

«إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده»



وحين جاءنى د. حسام الشرقاوى ود. عمر مسعود لاصطحبى إلى المنزل المفترض أن أعيش فيه آثرت أن نبدأ بقراءة الخرائط.

وكانت مفاجأة.. لو اتبعنا هذه الخرائط فسوف نمضى فى الطريق قرابة أربعين ميلاً حتى نصل إلى بداية طريق كبير يحمل هذا الاسم. ولكن بما أننا جميعاً متأكدون من أن منزل العائلة يقع فى مرتفعات كليفلاند فلا بد من أن نبتعد عن هذا العنوان الذى فى الخريطة.. وها نحن نعود للفندق فنسأل العائلة بالتليفون. وإذا بالشارع الذى يقع فيه المنزل يشترك فى اسمه مع طريق كبير، وأبسط لك المسألة بأن أقول إن الشارع يحمل اسم صلاح سالم مثلاً بينما هو موجود فى ضاحية

المعادى على حين أن شارع صلاح سالم الذى على الخريطة وفى فهارسها هو طريق صلاح سالم المعروف بالطبع.. ولا يلقذك من هذا إلا أن تكون على علم (كما كان زميلاى) أن طريق صلاح سالم لا يقع (بصور أو بأخرى أو فى أحد أجزائه) ضمن حى المعادى ومن ثم فلا بد أن يكون هناك فى حى المعادى شارع يحمل نفس الاسم الذى يحمله شارع كبير جداً فى المدينة الكبيرة التى يقع فيها الحى.. وتبسط لنا العائلة وصف منزلها فعلى بركة الله.



كانت ربة العائلة تقف خلف زجاج منزلها وتشير بأصبعها تصيح لنا: إن طريق الدخول إليها بالسيارة (Drive) إلى الشمال وليس إلى اليمين.. هكذا حتى تكون قبالة الباب بالضبط.. من حسن الحظ أن حسام وعمر يفهمان تماماً تقاليد الأسر الأمريكية، وهكذا انتظرا فى الخارج ولم يساعدانى فى حمل الحقائب ودخول المنزل بها.. ربة البيت تقودنى إلى حجرة نومى فى الدور العلوى وتعطينى فكرة سريعة عن حجرة التليفزيون والاسترخاء الخاصة بى فى البدروم، وإلى جوارها حجرة المغسلة.. والمطبخ فى الطابق الأرضى (الأول) ومع هذا أجدنى أسرع فى الاستئذان حتى لا أؤخر حسام وعمر على وعد بالاجتماع معها عند عودتى فى المساء... أو فى صباح اليوم التالى للاستماع إلى التعليمات الكاملة وفهم هذه التعليمات.. ومع هذا فقد أخذت النسخة المخصصة لى من مفتاح هذا البيت وانطلقت.

(٢)

حين عدت فى حوالى الثامنة مساء كان النور مضاء فى الطابق الأول.. ولكن

العائلة غير موجودة.. لعلها تركت النور مضاء ليؤنسني حين أقدم. لا بد أنهم نيام الآن في الطابق العلوى.. أخذت أتحمس خطواتي إلى الطابق العلوى وأنا حريص كل الحرص على ألا آتى بأية حركة.. إلى اليمين حجرة بابها مفتوح ثم حجرتي ثم الحمام وإلى اليسار باب مغلق ثم حجرة بابها مفتوح.. لا بد أنهم نيام وراء هذا الباب المغلق. أغلقت باب حجرتي وأخذت أرتب متاعى... ثم نزلت إلى الطابق الأرضى وأخذت أرتب الأطعمة التى اشتريتها من السوبر ماركت فى ذلك الرف الذى أخبرتنى ربة العائلة فى الصباح أنه مخصص لى فى الثلاجة، وفى ذلك الرف المناظر فى دولاب الطعام، وفى ذلك الجزء الأيسر من الفريزر. كان الفريزر ممتلئاً تماماً رغم سعته.. ومع هذا وجدت مساحة كانت كافية بالكاد للكبد واللحوم والسماك والدواجن التى أحضرتها اليوم.



انتويت الصيام لأول يوم فى رمضان وللشهر كله وأويت إلى فراشى.
وفى حوالى الثانية عشرة أيضاً، استيقظ جسدى لأنه تعود على ذلك بفعل الساعة البيولوجية كما أخبرتك وليس هناك من أمل فى أن يعدل عما اعتاد عليه بين يوم وليلة.
فى الخامسة والنصف استيقظت لأداء صلاة الفجر وظللت فى حجرتي حتى التاسعة.

فى التاسعة تماماً كنت فى الطابق الأرضى حيث وجدت ربة العائلة لاتزال فى المطبخ تتناول قهوة الصباح، وبدأنا الاجتماع، هذه ورقة طويلة بالتعليمات ناقشناها معاً.. لن أذكر لك تفاصيل كثيرة.. ولكنى سأذكر على بعض ما يهكم من أمر

الحياة الأمريكية اليوم، وقد تكون عندك فكرة أسبق منى، ولكنى سأحدثك بانطباعاتى حتى لو اتهمتنى بالتخلف.



يبدو أنه لم يعد لجهاز البوتوجاز مكان فى المطبخ الأمريكى.. فالاعتماد اليوم على جهاز الميكروويف.. وعند هذه العائلة جهاز جديد.. ولكن كيف يمكن لى أن أعتد عليه فى إعداد شرائح الكبد المحمرة.. التى تحتاج زيتاً مقلياً؟ ربة البيت تتناول المرجع المناسب الموجود فى مكتبة المطبخ.. وفى المرجع المذكور أننى فيما يختص بالكبد بحاجة إلى تشغيل الميكروويف لمدة دقيقة ثم إلى أن أترك الطعام فى الميكروويف ١٥ دقيقة أخرى.. بينى وبينك لم أقتنع تماماً. ونويت أن أجا إلى الوسيلة القديمة إلى موقد الغاز الكهربائى..

وأسأل نفسى: هل انتابتنى الشيوخوخة أنا الذى لم يترك جديداً إلا جربه.. لا يلسيدى فإن اليوم أول يوم فى الصيام وليس عندى فرصة أخرى لطعام آخر.

ولكن الأمر حُسم بطريقة أخرى فحين أقبل المغرب كانت ربة البيت على رأس مائدة الطعام بالقرب من المطبخ ومعها ثلاث من صديقاتها، وأصبح من الصعب على أن أتقبل أن أركم أنوف هؤلاء جميعاً ببخار الزيت المقلى.. حتى مع وجود هذا الشفاط الذى علمت منذ الصباح أنه على أن أبدأ تشغيله بمجرد البدء فى استعمال موقد الغاز.

لن أقول لك إن الكبد بالميكروويف كانت أحلى كبد فى حياتى، ولكنها كانت بلاشك قريبة من هذا المعنى.

إذا كان لك أن تسألنى عما فعلت فى هذه الكبد قبل أن تدخل إلى الميكروويف

فإننى أخص لك القول بأنها غُمست تماماً فى الفلفل.. وأحيطت بزيت المازولا الشهير.. وبدعاء الصائم المضطر المغترب!!.

عودة إلى أول صباح لى فى المنزل: فى الضحى فقط وحين انتهت ربة البيت من اجتماعها تركتنى لتعود بعد حوالى نصف ساعة فى ملابس الخروج.. ساعتها فقط أدركت أن حجرة نومها هنا فى الطابق الأرضى.. أما ذلك الباب المغلق فلم يكن وراءه [طبقاً لما فهمت بعد ذلك من ورقة التعليمات] إلا المكينة الكهربائية.. وأدوات التنظيف.

للعائلة ابن هو ريتشارد، وابنة هى كريستين.

الولد هو الأصغر ويعمل معملياً فى إحدى مستشفيات سلاح الجو الأمريكى.

والإبنة كريستين ٢٦ عاماً متزوجة وتعيش فى كولومبوس، أما ربة البيت نفسها فإخصائية اجتماعية. تعمل فى إحدى جمعيات مرضى السرطان فى الجانب الغربى من المدينة.

(٣)

دعنى أحدثك بعد ذلك عن روتين الحياة اليومى فى بيت العائلة الأمريكية. بالنسبة لى كانت هذه السكنى بمثابة النموذج الأمثل لما أريد:

- لن يضيع وقتى فى حكايات عن الوطن البعيد مع زميل مصرى .
- سأعيش الثقافة الأمريكية بمعنى الثقافة الواسع كأسلوب حياة وهو ما لا يتاح للمرء إلا إذا عاش معهم فى بيوتهم وخارج بيوتهم لا فى مجرد العمل وساعاته فحسب.

● بالإضافة إلى هذا هناك فاصل واضح بين حجرة النوم وبين حجرات الطعام والمطبخ والمعيشة - على حين أن شقق الحجرة الواحدة (الاستوديو) تكندس كل هذا وتكرسه في مساحة محدودة قد تكون واسعة، ولكنها موحدة أو مشتركة على كل حال.

● في حجرتي كرسى مريح ومكتب أكثر راحة، ودولاب حائط، ودولاب آخر، ومنضدة إلى جانب السرير ومكتبة في الحائط - كل ما أبتغيه تقريباً.

● كل صباح هناك جريدة وقد تعودت أن أقرأ صحيفة الصباح حتى في البلاد التي لا أعرف لغتها جيداً، وأعتقد أن مجرد تصفح صحف الصباح في أي وطن لا يحتاج معرفة اللغة.

● هناك مطبخ حقيقي وليس مطبخاً يتكون على عجل وفي حالة طوارئ.. صحیح أنني لست مداوماً على الطبخ المستفيض إنما هي وجبات عاجلة تعودت عليها منذ بدأت اغترابي منذ أكثر من ١٧ عاماً ولكن لا بد من مطبخ من أجل «إذا قدر».. أو في «حالة»، أو كما يقول الأمريكيان In Case، يقصدون من باب الاحتياط.

● هناك أدوات متعددة للنظافة على حين أنك في الشقة الصغيرة ستجد نفسك مضطراً لتنفيذ كل عمليات النظافة بأداة واحدة.. أي أداة تقع في يدك قبل غيرها - فلا مانع من أن تكندس بالمساحة أو تمسح بالمقشة.. إلخ).

● هناك الشعور بالوجود في بيت وبالانتماء إلى أسرة..

● هناك من تفكر في أنه سيسألك إذا تأخرت في المساء عن عودتك - هذا الشعور

يربح الذين نشأوا على نشأة تجمع بين الفطرة السليمة والحربة الحقيقية، وأحمد الله أن أنعم على بهذه النعمة.

● هناك الشعور بالانتماء إلى مجتمع بكل ما يحمله موقع البيت والمنطقة السكنية التي هو فيها من معانٍ..

● هناك بعد ذلك كل الخبرة بتأثيث البيوت، وترتيبها، والإفادة من أركانها، وتوظيف المباني للمعاني، والمساحات للأغراض، ولمسات الفن الجميل سواء في التشكيل أو التكوين أو الزخرفة أو الزهور أو الأثاث أو الألوان أو الترتيب..



في السابعة وعشر دقائق تفتح ربة البيت باب جراج السيارة بالريموت كنترول بينما هي لاتزال في المنزل ثم تنزل إلى سيارتها فتبدأ في إدارة محركها وتتركها وتعود لتستأنف ترتيب ما سوف تأخذ من متاع معها وقبل السابعة والرابع تتحرك بالسيارة إلى الخلف ريثما أغلق أبواب المنزل بمفاتيحي وأستقل السيارة في الكرسي الأمامي بينما الصديق والزميل البولندي الذي يسكن عند العائلة المجاورة قد سبقني إلى الكرسي الخلفي أو يلحقني فيه.

في السابعة و٢٢ دقيقة أكون في المستشفى وتستأنف ربة البيت طريقها إلى عملها - حوالي ٤٥ دقيقة. وتبقى هناك حتى الخامسة مثلاً، وتعرج في طريق عودتها على من تريد من أصدقاء أو مصالحي.

أما عطلة نهاية الأسبوع عندها فهي كذلك حافلة بالعمل والنشاط.

في نهاية أسبوعي الأول كانت على موعد مع والدتها.. على بعد ١٥٠ ميلاً من

كإيفيلاند.. ولهذا سافرت منذ الخميس، غابت الجمعة والسبت - وجاءت في مساء الأحد.. كان هذا الأسبوع: ناظر عندنا عيد الأم في مصر ولكنه لم يكن كذلك في أمريكا ومع ذلك كانت هذه السيدة عند والدتها محملة بكثير من الهدايا!!.

في نهاية أسبوعي الثاني كان عيد الفصح يوم الأحد.. وكان عيد ميلاد أقرب صديقاتها إلى قلبها يوم السبت.

في نهاية الأسبوع الثالث كان عليها أن تسافر إلى بيتها الريفي حيث دعت أخاها وخطيبته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هناك حين قابلتهم معاً، لأول مرة عند والدتها قبلها بأسبوعين.. سافرت ربة البيت صباح الجمعة ولكنها كانت منذ ظهر الخميس مشغولة باستقبال ثلاثة ضيوف هم ابنتها وزوج ابنتها ووالده الذين خرجوا في سيارتين من كولومبوس في وداع الأب المسافر إلى كندا عبر كليفلاند.



وليس هذا هو كل السفر في حياة ربة البيت التي قاربت الستين. ففي أحد أيام الخميس كانت مسافرة إلى توليدو، لتحضر ندوة موضعها «النكتة كجزء من العلاج»، لك أن تعجب من أن تسافر هذه السيدة كل هذه المسافة لتحضر مثل هذه الندوة حتى إن احترمت موضوعها باعتباره موضوعاً مهماً حتى وإن بدا من اسمه أنه موضوع كاريكاتير عن ندوة لا موضوع ندوة.

ولكن عجبك يزول إذا علمت أنه لا بد لهذه السيدة شأنها شأن كل الأمريكيين الذين يمارسون مهناً من أن تنتظم في برامج ما يسمى «التعليم المستمر» حتى تكون قادرة على أن تستمر في أداء مهنتها والبقاء في وظيفتها.

وعلى كل الذين يمارسون المهن المختلفة في الولايات المتحدة أن يبحثوا بأنفسهم عن الندوات، وأن يحضروها، وأن يسجلوا حضورهم بشهادات وتتضمن هذه الشهادات قيمة هذه الندوة من حيث الساعات المعتمدة حسبما تقدر الهيئة المشرفة على ممارسة المهنة: فإذا كانت هذه السيدة مثلاً مطالبة بخمسين ساعة في العام من التعليم المستمر فإنها لا بد أن تحضر عشر ندوات من مثل هذه الندوات التي قدرت لها نقابة الاجتماعيين [مثلاً] أو اللجنة الدائمة للوظائف الخاصة بالخدمة الاجتماعية [مثلاً] أو جمعية الاجتماعيين [مثلاً] خمس ساعات في مقياس ساعات التعليم المستمر حتى وإن كانت الندوة تستمر لمدة ١٢ ساعة ما بين مناقشات ومحاضرات واجتماعات... إلخ. هذا هو الأسلوب الذي ينفذون به تعليم الكبار أو التعليم المستمر..

وفيما مضى ومنذ حوالي ١٢ عاماً بدأنا في مصر برنامجاً للتعليم الطبي المستمر ثم أجهضناه... أجل أجهضناه. وكان هذا الإجهاض شأنه شأن تصرفنا مع كل أجناسنا الفكرية، والتنفيذية، التي نجهضها دون أن نستشعر حرمة قتل ما من شأنه أن يكون زادنا وثروتنا في تطلعاتنا نحو المستقبل.

(٤)

جانب آخر من حياة ربة البيت الأمريكية أريد أن أحدثك عنه بشيء من التفصيل وهو اهتمامها بالثقافة والكتب، ففي الحجرة الرئيسية مكتبة صغيرة، وفي دولا ب حجرتي مكتبة أصغر، وفي الحجرة المجاورة مكتبة أصغر وأصغر، وفي الطريقة التي أمامها مكتبة صغيرة أيضاً، وفي الحجرة الرابعة مكتبة أكبر من الصغيرة. وفي المطبخ مكتبة مطبخ صغيرة، وفي حجرة الاستقبال شبه مكتبة أيضاً.

أكون مبالغاً إذا أهملت الجانب الآخر من الموضوع ولم أحدثك عن أن المكتبة من هاتيك الصغيريات لا تضم أكثر من عشرين كتاباً، وأن مكتبات الدور العلوى كلها فيما يبدو حصيلة الاهتمام المفرط للابن بالسيارات - فعنده موسوعة السيارات عاماً بعد عام - وكتاب عن سيارات العالم، وآخر عن سيارات أمريكا وأعداد من مجلة Hot rod وهى مجلة للدعاية للسيارات تضم أو تتعاقد مع ست من السنوات، والمجلة تصور كل سيارة وعليها أو فيها أو على طرفها أو بجوارها فتاة عارية إلا قليلاً.. هل يا ترى يعجب القارىء بالسيارة من أجل السيارة أم من أجل الفتاة التى معها؟ لست أدرى.

أما مجموعة كتب المطبخ التى عند ربة البيت الأمريكى فشيبة بمجموعة كتب الطب عند الأطباء المصريين الشبان، تجدهم رغم كثرتها يحتفظون بورق صغير يصورونه من هنا وهناك ويعتمدون عليه فى بعض عملهم. هذا هو ما حدث حين جاءت ربة البيت باعتزاز شديد بثلاث ورقات مصورة من مرجع ليس عندها منه نسخة وشرعت فى عمل «كيك القهوة»!!.

أما كتب ربة البيت نفسها تلك التى تستحضرها من حجرة نومها فتحدثك عن ثقافتها الحقيقية - فعند ربة البيت أكثر من موسوعة تلجأ إليها فى الحصول على المعلومة التى نختلف حولها، أو تحتاج إليها. وعندها مجلدات قيمة لأعمال أدبية من التراث العالمى، ربما تحتفظ بها كما تحتفظ أمريكا ببعض هذه الأشياء فى متاحفها القومية!. وعندها المجموعة الكاملة للمجلة العلمية للإخصائين الاجتماعيين. وعندها أيضاً مجموعة متفرقة من الكتب فى الفن والتاريخ والآثار، وعندها بالإضافة إلى هذا كتابان فى الموسيقى.

أنا لست مبهوراً بمكتبة ربة البيت الأمريكية - ولست في نفس الوقت مستخفاً بها إذا قارنتها بأى من مكتباتي، ولكنى أريد أن أحدثك عن أن الأمور لا تقدر إلا في إطارها الصحيح. فإن الأمريكيات المتعلمات اللاتي في سن هذه السيدة قليلات إذا ما قورن بالأوروبيات من جيلهن، أو حتى بالأمريكيات من الجيل الذي بعدهن. ولا بد أن تعرف أن في أمريكا أمية، ولا بد أن أحدثك أن علاج الأمية في أمريكا هو رابع المستحيالات لا أحدثك بذلك رثاء للأمريكيين أو استخفافاً بهم، ولكن لأذكرك أننا في مصر والبلاد العربية على وشك الدخول في ذات المرحلة من استعصاء الأمية على الحل.. تسألني لماذا؟.

وأظنك لست بحاجة إلى السؤال فهذا التليفزيون بقنواته الأربعين والفيديو من ورائه - ثم هذا التليفون ومن ورائه دائرة المعارف التليفونية المجانية كفيلان بأن يتيحاً للأمي كل ما كان يستشعره من نقص يدفعه إلى تعلم القراءة والكتابة، كي يقرأ كتاباً أو صحيفة مثلاً أو فاتورة أو إيصالاً أو عقداً، أو ليكتب خطاباً إلى ابنه المقيم على بعد، أو طلباً للحكومة المحلية!! ها هو التليفون وها هو التليفزيون يشبعان في البشر الحاجة إلى المعرفة من دون أن يمتلك المرء القراءة التي كانت أداة البحث عن المعرفة..

أعرف أنني بهذا التفسير ربما كنت أقرب إلى أن أسطح الأمور وأننى ربما أتجاوز حدودى حين أتناول المعرفة بمثل هذا التناول السطحي، وحين أختزل الحاجة إلى المعرفة إلى هذه الأمثلة البسيطة.. ولكن الحقيقة التي لاشك في أنها تصدمنا جميعاً هي أن هذه المعرفة التي تراها أنت وأراها أنا سطحية هي كل ما يهم الأمي وأكثر مما يهم الأمي. وإذا شبع الأمي بهذا وتوقف عند هذا فلن يشكو لك ظمأ ولا جوعاً.

وبودى أن أسألك: أليس فى وسع الأمريكى الأمى أن يتحصل اليوم من بين أفلام القنوات المتعاقبة فى التليفزيون الأمريكى على مشاهدة خمسة أو ستة أفلام كاملة.. هل كان فى وسع المثقف فى القرن التاسع عشر أن يقرأ روايات هذه الأفلام جميعاً فى شهر واحد!! أليست ساعات معدودة أمام التليفزيون كفيلا بأن يطالع الأمريكى ما يناظر ست صحف أمريكية يومية مختلفة الألوان والأقلام والاتجاهات؟.

نعم يا سيدى تبقى أنت، وأبقى أنا، ويبقى كثيرون معنا لا يستغنون عن قراءة الصحف ولا عن مطالعة الروايات، ولكنى أحدثك عن السواد الأعظم فى عصر أصبحت الثقافة فيه متأثرة إلى حد بعيد بفلسفة الـ Mass Communication، ولكن إذا لم تكن تأملت المعنى الحرفى فى اللغة الانجليزية فاعلم أنها لا تعنى إلا وسيلة الاتصال بالسواد الأعظم أو بالكتلة الكبيرة.

(٥)

هل أحدثك بعد هذا كله عن المنزل الأمريكى من مطبخه ربما كان من حقاك على ومن حق المنزل الأمريكى على كذلك أن أتحدث عنه بشيء من التفصيل هو الآخر. فهذا هو مطبخ العائلة لا يكاد يتسع للدواليب التى فيه، ودواليبه لا تكاد تتسع للأرفف، والأرفف لا تكاد تتسع لما عليها.. الأطباق من كل حجم أكثر من ٥٠... وهناك أكثر من ٥٠ ملعقة وأكثر من ٥٠ شوكة وأكثر من ٥٠ سكين.. عن المقالى حدث ولا حرج.. وهذه أدوات الميكروويف، وهذه أوانى لفرن البوتاجاز.. وهذه أوانى للموائد الفخمة.. وهذه أوانى للموائد المتواضعة.. وهذه علب من جميع المقاسات للثلاجة والميكروويف.. وهذه علب أخرى للبهارات.. وعلب لوازم الآيس

كريم .. وعلب لوازم الكيك .. وعلب لوازم المائدة والسرفيس .. أدوات كبيرة وصغيرة .. أدوات للخلاطات .. والماكينات المختلفة .. أوراق مفضضة لحفظ الأطعمة المطهية، وأخرى سلوفانية، وأخرى ورقية . مساحيق الغسيل تفوق العشرة .. أطقم التوزيع لا حصر لها .. الفناجين يتعدى عددها المائة وكذلك الكؤوس ولكل استعماله: هذا للمشروبات .. هذا للشاي .. هذا للقهوة .. إلخ .

القهوة نفسها أنواع .. المحمصة أنواع كثيرة بعضها يحفظ في علب بلاستيكية، وبعضها في أكياس ورقية، وبعضها في علب معدنية، وبعضها جاهز مباشرة لماكينة القهوة ... وهناك أوان متنوعة للعصائر المختلفة، وأقول لربة البيت إن عندها أشياء كثيرة جداً جداً لأشياء كثيرة جداً .. فتسعد بهذا التعليق ولكنها تردف بالقول بأنها مسألة عمر فمع مرور الزمن يضيف الإنسان إلى ما عنده .

كان على في هذا المنزل أن أستوعب أسلوب تشغيل أكثر من عشر آلات:

١- الغسالة الكهربائية، ونظامها مختلف تماماً عن غسالتى، وكما حكيت عن وجوه الاختلاف هذه تعجب ربة البيت لهذا التقدم الاليكترونى الذى أصاب الغسالات!!

٢- المجفف، وربما كان أمره أسهل الأمور لأنك تضبط ساعته وتنظر فى النهاية إلى الملابس هل جففت أم لا؟ والحقيقة أنه لا يجفف الملابس فحسب وإنما يحمصها.

٣- البوتاجاز الكهربى، وربة البيت حريصة أن تجعلنى أستعمل الشعلة المناسبة لما أريد إنضاجه بينما أنا كعادتى استسهل الشعلة الأمامية اليسرى لأنها فى متناول يدى عن يمينى، وتعطى ما أريد، ويمكننى التحكم فيها بالقليل، ولكن ربة

البيت لا توافق على هذا المبدأ لأن نتيجته ستكون ضارة بحواف الأواني الصغيرة التي توضع على هذه الشعلة فيصيبها اللهب من أطرافها أو بسطح البوتاجاز من حول الشعلة حين يصيب رذاذ الوقود واجهة البوتاجاز التي تضم عدادات الحرارة!!

٤- الميكروويف: وقد سبق لى أن صارتك باعتقادي أنه لن يصبح هناك محل للبوتاجاز إذا تطور هذا الميكروويف في السنوات القليلة القادمة على أيدي اليابانيين وبأموال الزبائن العرب.

٥- التليفزيون: وهو أسوأ الأجهزة لأنك لا بد أن تكتب عليه بنفسك (بلمس الأزرار طبعاً) القناة التي تريدها قبل أن ييئها لك.. ما أحلى وأسهل الريموت الذى نشره اليابانيون فى بلادنا.

٦- الفيديو.. وكنت استخدمه، حيث وضع فى حجرة البدروم، لمشاهدة بعض برامج جمعية القلب الأمريكية.

٧- المكواة الكهربائية: سبحان الله كنت أظن الماركات التى نعرفها أرقى الأنواع فكيف نصف هذه التى لا يزيد وزنها عن الخمسين جراماً ومع هذا فإنها تجعل الصوف الثقيل مستويا بمجرد لمسة.

٨- ماكينة صناعة القهوة.. وأمرها سهل.. فهى تقريبا نفس الماكينة التى نعرفها جميعاً.

٩- المكنسة الكهربائية وهذه فى حد ذاتها تحتاج خبرة طويلة لأنها متعددة الأغراض والاتجاهات والاستعمالات.

١٠- التكييف المركزى وأمره سهل.

١١- غسالة الأطباق وأمرها سهل أيضاً لأن كل إناء يوضع فى محله ثم تدور.

١٢- الراديو بالساعة والمنبه وسوف أستعمل الراديو فقط.

فإذا أضفت إلى كل هذه الأجهزة خبرة لابد لك بها مع كل مفاتيح الإضاءة.
ومفاتيح التحكم فى مفاتيح الإضاءة.. ما هذا؟ وهذا يضىء ماذا؟.. أدركت أن
المسألة ليست بالبساطة التى تظنها من السهولة إذا ما أردت التأقلم على بيت جديد.



قبل أن تسافر العائلة فى أول مرة أوصتني ربة البيت خيراً بقطتها الأثيرة
«باتشى»، وأسألها: ولماذا لاتأخذينها معك ياسيدتى؟. الجواب: حتى لا تتعب
أعصابها بأماكن لم تتعود عليها، أو بالركوب فى سيارة قد تهتز فتقلق باتشى
النائمة دائماً.. من هذا الدولاب تستطيع أن تأتى لباتشى بالطعام إذا نقص
طعامها.. وفى هذا الاناء تضع لها الماء.

والمسئولية عن حيوان أعجم أمانة ثقيلة، وكل فترة لابد أن أذهب لأطمئن إلى
أن باتشى لا تزال بخير، ولكنى أسائل نفسى: ماذا تفعل هذه القطة النائمة؟ لست
أدرى. هل تأكل الفئران؟ أعتقد أن أى فأر مهما كان ضئيلاً قادر على أن يأكل
هذه القطة وأن ينتهى من مضغ لحمها كله فى خلال أسبوع واحد. وحتى هذا الفأر
المصنوع من الموكيت والبلاستيك والملقى أمام باتشى على الأرض كفيل بها، هكذا
انتابنى الإحساس تجاه هذه القطة، وقديما كنا نعرف خيال المآته على أنه يخيف
الطيور.. الآن يبدو أن هناك خيال مآته من نوع آخر كهذا الفأر الخيالى الذى
يعطى الثقة للقطة بأنه لازالت هناك فئران فى الحياة الدنيا.

بعد أيام من إقامتى اكتشفت شيئاً خطيراً حمدت الله عليه .. كانوا يسألوننا فى مراسلتهم أن نحدد إذا كنا مدخنين أم لا . لأن العائلات التى سنقضى عندها وقتاً ترغب فى تحديد هذه النقطة منعاً لإزعاج أى من الطرفين . جارتنا (ف) التى يقيم عند عائلتها زميلى البولندى مدخنة .. لكن المأساة التى رحمنى منها الله أن عندها
٣ كلاب!!

يااللهول!!

أما كان أولى بهم أن يسألونا: هل أنتم تطيقون الكلاب أم لا؟ فكرت فى نفسى (لو قدر لى بعد هذا أن أكرر مثل هذه التجربة) أن أكتب فى ورقى إننى غير مدخن وغير مطيق للتدخين ولا للكلاب وحمدت الله على نعمة الستر.

فى صباح اليوم التالى وفى صدفة غريبة كانت ربة البيت تسألنى بينما نحن فى السيارة .. هل يربون الكلاب عندكم فى البيوت .. نعم ياسيدتى بعض الناس ولكنى لا أحب .. وتستطرد ربة البيت إنما أردت أن أسأل لأنه حدث ذات مرة أن جاءت طبيبة من الأردن كان المفروض أن تقيم عند جيراننا فلما وجدت الكلاب اعتذرت عن الإقامة فى مثل هذا البيت.

فيما بينى وبين نفسى أقول ولو كنت مكانها لفعلت هذا أيضا بالطبع .. وفيما بينى وبين مضيقتى لابد من حديث آخر .. حديث عن الإنسان وكيف يخاف من الحيوان الأليف .. وأنا أعرف أن حديثى الجميل يعبر عن خوفٍ صغيرٍ وجميلٍ أيضا.

كيفية لاند كمينك : المكانة و المكان

كليفيلا ندكليتك: المكانة والمكان

أحب أن أحدثك الآن ولبعض الوقت عن العمل في مستشفى كليفيلا ندكليتك الذي قضيت فيه شهرين زائراً لأقسام القلب والأوعية الدموية. والذي يعد من أحسن المستشفيات في الولايات المتحدة.

إذا فمن المنطقي أن أحدثك عن أحسن المستشفيات في الولايات المتحدة. وأنت تدرك للوهلة الأولى أن هذا حديث صعب، لأنه يصعب عليك أن تميز بين القمم، ومع هذا لا بد من التمييز، دعني أذكرك بالمائة الأوائل في الثانوية العامة - هل هناك فرق كبير بين الطالب الأول والطالب المائة؟ ربما ثمانية درجات أو ٢٪ في المتوسط ولكن لا بد أن يكون هناك أول المائة، ولهذا فإنك أحياناً ما تجد الأول فالثاني فالسابع لأن هناك خمسة يحتلون المركز الثاني.. كل منهم الثاني مكرر..

ولهذا يحتلون مراكز الثالث والرابع والخامس والسادس إضافة إلى المركز الثاني نفسه .

إذاً هذا الترتيب هو بمثابة البحث عن «أحسن الحلوين» ..

وإذا كنا في حياتنا كثيراً ما نقنع بأحد البدائل لا لشيء إلا لأنه أحسن الوحشين .. فإن أحسن الحلوين يصبح بالنسبة لنا مشكلة كبرى .

هناك بالطبع معايير كثيرة لتقييم المستشفيات، ولن تنتهي هذه المعايير، وبالطبع هناك جداول ومقاييس ومعايير موحدة و Scores لهذا في كتب إدارة المستشفيات وتقييمها، ولكني مع هذا سأحاول أن أخص لك تقريراً عن أحسن مستشفيات أمريكا أعدته صحيفة أنباء الولايات المتحدة وتقرير العالم (U.S. News & World Report)، وهي الجريدة التي لا تكاد توازئها عندي إلا الهيرالد تريبيون .

كان أسلوب الصحيفة في إعداد هذا التقرير أنها سألت ٤٠٠ طبيب في ١٢ تخصصاً وكانت إجابات الأطباء منصبة على ٥٧ مستشفى . وقد اختارت أكثر هذه المستشفيات تردداً في اختيارات الأطباء ورتبتها على هذا النحو (الرقم المذكور يدل على عدد التخصصات التي حظيت بتقدير الاخصائيين) .

□ مستشفى مايو كلينك في مينيسوتا: ١١ تخصصاً .

□ مستشفى جون هوبكنز في بالتيمور: ١٠ تخصصات .

□ مستشفى جامعة دوك - ولاية كارولينا الشمالية: ٩ تخصصات .

□ مستشفى مساشوستس - بوسطن: ٨ تخصصات .

- المركز الطبي لجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس: ٨ تخصصات.
 - المركز الطبي لجامعة واشنطن في ولاية سياتل: ٧ تخصصات.
 - مستشفى بارنيس - سان لويس: ٤ تخصصات.
 - مستشفى كليفلاند كلينك: ٤ تخصصات.
 - المركز الطبي المشيخي في كولومبيا - نيويورك: ٤ تخصصات.
 - مستشفى جامعة ستانفورد، كاليفورنيا: ٤ تخصصات.
 - المركز الطبي لجامعة كاليفورنيا سان فرانسيسكو: ٤ تخصصات.
- طبعاً من الملاحظ أنهم سألوا ١٢ تخصصاً فقط، ولو سألوا تخصصات أكثر فلربما تغيرت النتيجة - ولكن، على كل حال، هذه فكرة سريعة وصادقة إلى حد بعيد.



هل تحب أن أزيدك في هذا المجال بعض الشيء فأنقل لك قائمة أحسن الحلوين في تخصص القلب إذا فهذا هو الترتيب:-

- مايو كلينك: ٧١٪ من الأصوات.
- مستشفى مساشوستس: ٧١٪ من الأصوات.
- كليفلاند كلينك: ٥١٪ من الأصوات.
- مستشفى جامعة دوك: ٤٩٪ من الأصوات.

- مستشفى برجهام وومن: ٤٦% من الأصوات.
- مستشفى جين هويكنز: ٣٧% من الأصوات.
- مستشفى جامعة ستانفورد: ٣٧% من الأصوات.
- مستشفى جامعة إيمورى: ٣٧% من الأصوات.
- مستشفى جامعة ألاباما: ٣١% من الأصوات.
- المركز الطبى المشيخى، كولومبيا بنيويورك: ٢٦% من الأصوات.
- للمركز الطبى لجامعة بنسلفانيا: ٢٣% من الأصوات.

ها أنت ياسيدى قد أخذت فكرة عن المستشفيات - ولعلك ونحن بلد يفرق بين القطاع العام والقطاع الخاص وبين الجامعة ووزارة الصحة .. إلخ تدرك معى من الأسماء التى كتبتهام كاملة أن كلا من مايو كلينك وكليفيلاند مؤسسات خاصة وليست بمستشفيات جامعية ولا حكومية وأن القائمة تضم ما نسميه فى بلادنا: مستشفيات جامعية ومستشفيات عامة كذلك.

□

ساعد على ذبوع مركز كليفيلاند كلينك والشهرة العالمية التى حظى بها أنه شارك فى صياغة كثير من الإنجازات الرائعة التى شهدتها السنوات الأخيرة فقد شارك فى تطوير جراحات القلب والتصوير الصبغى لشرابين القلب، كما شارك فى تطوير جراحات سرطان الثدي والدرقية والقولون والأمعاء وكذلك فى زراعة الكلى والكلى الصناعية . وبالإضافة إلى هذا ساهم هذا المستشفى فى تحديث وتطوير الأعضاء الصناعية وبخاصة الوسائل المعينة للقلب (I.C.U) وفى زراعة القلب.

أما البحوث التي أجريت على الضغط وعلاقته بتصلب الشرايين فهي نموذج رائع للبحوث العلمية الدعوية والمتكاملة والتي درست كثيراً جداً من العوامل والجوانب المتعلقة بالموضوع.. ويكفيك أن تطالع مثلاً قائمة عناوين البحوث التي نشرها اثنان من أساتذتنا المصريين الذين عملا في هذا المستشفى منذ السبعينات وهما الدكتور روبر طرزي والدكتورة فطنة فؤاد لترى كيف عني قسم البحوث في هذا الصرح الطبي العظيم عناية خاصة بهذا المرض.

وفي الطريق إلى المراجع الطبية وإلى استخداماتنا في كثير من المستشفيات في جميع أنحاء العالم نتائج التطبيق لأجهزة دراسات التصوير الصبغى للشرايين بالطرح الرقمي (Digital subtraction Angiography) وأجهزة الرنين المغناطيسي (Magnetic Resonance (MR) التي أصبح لأقسام الأشعة هنا خبرة واسعة بها منذ أتيج لأطباء هذا القسم العمل على الطرازات الأولى من هذه الأجهزة وتسخيرها لخدمة أغراض العلاج والتشخيص.

لا غرابة إذاً في أن يستقبل هذا المستشفى كل عام ٦٣٠ ألف حالة في العيادات الخارجية وأن يدخل هذا المستشفى للعلاج الداخلي ٣١ ألفاً كل عام.

ولا غرابة في أن تتسع مظلة جنسيات هؤلاء المرضى لتغطي ٧٨ دولة خارج الولايات المتحدة.

ومن الطبيعي إذاً أن ينتبه الأمريكيون إلى إنشاء ما يسمى بالمركز الدولي في هذا المستشفى لينظم ويساعد في تنمية علاقات المرضى الأجانب بهذا المستشفى، ويضم هذا المركز مجموعة من المترجمين، يساعدهم وقتهم على أن يرافقوا المرضى من قسم إلى قسم، ويتابعوا لهم مواعيد الفحوص والعمليات.. إلخ، ولهذا

كانت كليفييلاند كلينك أول مؤسسة حظيت بأن أطلق عليها الكونجرس ووزارة الصحة والخدمات الإنسانية الأمريكية مصطلح «مركز قومي للاستشارات».. وهي جملة تعنى ما تعنى ولكنها ترتفع بالمركز من هاتيك المراكز إلى المكانة التي تحتلها في القضاء محاكم النقض والإبرام.. أو المحاكم العليا كما يسمونها في بعض البلاد.

أحب أن أنتهز الفرصة هنا لأذكر أن الدكتور محمد كامل حسين عليه رحمة الله حين كان يتحدث عن مستشفى قصر العيني (الجديد أيامها) منذ ستين عاماً يقول إن الهدف من تطوير القصر وتطوير التعليم والعلاج فيه أن يكون بمثابة محكمة عيا للحالات الصعبة.

المعنى واضح وإذا كان التشبيه بالقضاء لا يروق لك، فخذ مثلاً على ما أريد أن أقول بما يسمى في فقه طائفة الشيعة بالمرجعية.



تسألني عن عدد الأطباء العاملين في هذا المستشفى فأجيبك بأنهم لا يبلغون الخمسمائة فهم حوالي ٤٥٠ ولك أن تعجب من قلة عددهم بالمقارنة بعدد أطبائنا في الجامعات أو وزارة الصحة.. ولكني أعتقد أنك تقدر أن هؤلاء متفرغون تماماً للكlinik، غير مسموح لهم بأى عمل خارج الكlinik حتى الأطباء العاملون في أقسام البحوث والتعليم.

وأريد أن أكون صادقاً معك حتى النهاية فأستثنى لك النواب الخمسمائة الذين يساعدون هؤلاء الأطباء فهؤلاء النواب هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يختطفوا

من أوقاتهم المسائية يوماً أو اثنين في الأسبوع يكونون خالين فيه من النوبتجيات ليعملوا في النوبتجيات المسائية الساهرة في المستشفيات الخاصة الصغيرة.. يسمون هذه النوبتجيات هنا بالعمل في ضوء القمر Moon Light وهو تعبير جميل بلاشك.. ولكن الأجل منه أنهم يتقاضون عن الساعة الواحدة حوالى ٣٥ - ٤٠ دولاراً ومع ذلك لا يعجبهم الحال.. مع أن هذه الساعة تفوق مرتب زميلهم المصرى فى شهر كامل!!...

ونعود إلى عدد الأطباء القليل فنجد أنه مسنود بعدد ضخم من الموظفين - يكفى لكى تأخذ فكرة عن الموظفين قبل أن أعطيك عددهم الكلى، أن أذكر لك أن لكل طبيب من أطباء القلب ممرضة خاصة، وسكرتيرة خاصة - تصور ٤٥ ممرضة و٤٥ سكرتيرة لأطباء القلب. دعك من ممرضات الرعاية والقنطرة والموجات فوق الصوتية، والأجنحة العادية، وسكرتيرات الاستقبال والمواعيد وتوزيع الحالات على الأطباء والعاملات على الكمبيوتر.. إلخ كل هؤلاء.. ألا يستلزم هذا كله أن يكون عدد العاملين فى المستشفى تسعة آلاف موظف وموظفة (بمتوسط ٢٠ لكل طبيب).

وتتيح المستشفى لنفسها الفرصة الكبرى من كفاءات النواب والباحثين حين تتيح الفرصة لتدريب ٥٠٣ نواب و١٣٤ زميل أبحاث و٢٣٩ من طلاب العلوم الصحية المتصلة بالطب و٤٢٦ طالباً (يقضون شهراً أو شهرين)، ست وستون منهم من طلاب الصف الثالث، وثلاثمائة وستون من طلاب الصف الرابع من مدارس الطب.



هل تريد أن تُكون فكرة عن أسعار العلاج فى هذا المستشفى - ربما يمكن لك أن

تكون هذه الفكرة من أن سرير الرعاية المركزة يتكلف في الليلة ألفاً وخمسمائة دولار تقريباً، أما السرير في الحجرة العادية فيتكلف من ٥٧٥ إلى ٧٧٥ دولاراً في الليلة الواحدة. أما القنطرة فتكلف المريض ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار. وأما فحص الموجات فوق الصوتية فيكلف المريض ألفاً من الدولارات.

كيف يختار هؤلاء المتميزون متميزين آخرين جديداً للعمل معهم؟

في أثناء إقامتي كانت كليفلاند كلينك بصدد اختيار رئيس جديد لقسم القلب، فقد بلغ الأستاذ شيلدون الستين وقد تولى رئاسة القسم منذ الستينات، وكان هناك في المرحلة الأخيرة من الاختيار اثنان يمثلان أبرز المرشحين ولم يبلغا الأربعين بعد: أستاذ مساعد من ميتشجن وأستاذ من جامعة دك.. أما مرشح مايو كلينك فلم يلق القبول من اللجنة.. واللجنة مكونة من سبعة من كبار أطباء المستشفى من أقسام أخرى غير القلب.. واختيار رئيس قسم جديد ليس بالمهمة السهلة على الإطلاق، ففضلاً عن الحرص على اختيار الأفضل والأنسب تأتي مراعاة رغبات وفلسفات المرشحين فقد يطلب المرشح مثلاً خمسين مليوناً للأبحاث كل عام.. قد يرى أنه لا ينبغي لراتبه السنوي أن يقل عن رقم معين!!... قد يرى زيادة عدد معامل القنطرة إلى النصف.. قد يرى مضاعفة أسرة الرعاية المركزة أو تعديلاً جذرياً في خطط العلاج فيها.. إلخ.

ومثل هذه السياسات ترتبط تماماً ولا بد أن ترتبط بالسياسات العامة الكبرى للمستشفى وموازنته.

هكذا فإن عملية اختيار من يتولى رئاسة القسم أصعب بكثير من أن تُشبه بالمخاض فحسب.

يكفى أن نذكر أن الطبيب العالمى الدكتور سون بكل عظمته لم يستمر فى موقعه وعمل تحت رئاسة شيلدون. وقد توفى سون منذ سنوات قليلة وسميت معامل القنطرة باسمه، ومازال كل من فى القسم يذكرونه ويذكرون فضله.. وقد التقيت برجل عظيم هو الأستاذ إيرل شيرى Earl Shirey كان أول من عمل مع سون فى القنطرة، وهو الآن يحمل لقب Resident Emeritus وله مكتب وأبحاث.



ربما يكون السبب فى شهرة كليفيالاند فى مصر تميزها الشديد فى جراحات القلب المفتوح، وعلى الرغم من أننا حققنا كثيراً من النجاح فى كليات الطب وفى معهد القلب القومى فى إمبابة إلا أننا لانزال نفضل أن نعالج أنفسنا خارج مصر: غالباً فى كليفيالاند أو هيوستون تكساس فى الولايات المتحدة - وأحياناً أخرى فى لندن.

ومن حق القارىء على أن أتجرد الآن من مهنتى كطبيب قلب لأعترف له أنه سيأتى يوم قريب وقريب جداً يصبح فيه الذين يجرون جراحاتهم فى مصر فخورين بأنهم أجروها فى مصر، ولم يضطروا إلى اللجوء إلى الخارج، ذلك أن مراكزنا اليوم تتقدم بسرعة رهيبه فى هدوء، وتتغلب بعزيمة قوية، ونية صادقة على ما يصادفها من متاعب، والأهم من ذلك أن خبرة هذه المراكز فى مواجهة المصاعب تنمو فى بناء متكامل.. .. إلى حين تصل المهن الطبية المساعدة والموازنة فى مصر إلى النقطة المثالية للاتزان مع الخبرات الطبية والإمكانات العملية... أدعو الله أن يتاح لنا، أى لى ولجيبلى، أن نشهد هذا اليوم عن قريب.

تجرى كليفيالاند فى العام ثلاثين ألف عملية جراحية منها ٣٢٠٠ عملية جراحة

قلب، هذا الرقم يعطيك فكرة عن كليفييلاند وكيف أصبحت من أكبر مراكز جراحات القلب في العالم.

وقد تولى الجراح الأشهر لوب رئيس قسم جراحة القلب في الكلينيك رئاسة مجلس المديرين التنفيذيين في المستشفى مؤخرًا، ولهذا خلفه في رئاسة قسم جراحة القلب الدكتور كروسكوف، ولا يزال لوب يمارس جراحاته..



ولمصر ثلاثة أقطاب بارزين في كليفييلاند كلينيك سأحدثك عنهم بترتيب قدومهم إلى الكلينيك.. (وبالمناسبة هو نفسه ترتيب أقدامياتهم في مصر..).

الدكتور فوزى اسطفانوس خريج عين شمس ١٩٦١ - عمل طبيباً بمستشفى سيدناوى حتى ١٩٦٧ حيث سافر انجلترا وحصل على زمالة التخدير من كلية الجراحين الملكية عام ١٩٧٠ فعمل شهراً في هولندا ثم عمل منذ ١٩٧٠ وحتى الآن في كليفييلاند كلينيك، ورأس قسم تخدير جراحة القلب والصدر منذ ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٧، ومنذ يناير ١٩٨٧ أصبح رئيساً لأقسام التخدير في مستشفى كليفييلاند كلينيك ولكنه لا يزال يحتفظ باهتمامه الشديد بتخصصه في جراحات القلب والصدر حيث يمثل الرعيل الأول من أطباء التخدير الذين تخصصوا في مثل هذا المجال وحولوه إلى شبه تخصص مستقل. وفي ١٩٨٨ تولى فوزى اسطفانوس تحرير كتاب «التخدير ومريض القلب، بالاشتراك مع ٥١ مؤلفاً.. ومن أطباء التخدير المصريين الأمريكيين الذين شاركوا فوزى اسطفانوس تحرير هذا الكتاب: عادل العتر في فلوريدا، ورامز سالم في شيكاغو، ونبيل فهمى في هافارد، وعزت أبو العيش في تكساس.

القطب الثانى: الدكتور فطنة فؤاد، كانت أولى دفعتها فى قصر العينى ١٩٦٥
وحصلت على الدكتوراه فى الأمراض الباطنية ١٩٧٤ من جامعة القاهرة، ومنذ
١٩٧٦ وهى تعمل فى الكليفلاند كلينك وتقود الدكتوراة فطنة بحوثاً متقدمة فى
مجال ضغط الدم، ووظائف القلب الانبساطية والانقباضية.

القطب الثالث: الدكتور محمد عبدالحميد تخرج فى كلية الهندسة ١٩٦٧ وكان
من أوائل الذين وقع عليهم الاختيار فى مصر (الطموحة إلى التقدم دائماً) للعمل
فى المجال الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بالهندسة الطبية، وعمل فى معهد
السمع والكلام بامبابه وابتعث إلى إنجلترا بعد ذلك حيث حصل على الدكتوراه Ph.D
وفى ذلك العام قدم كليفلاند ينتوى العمل لمدة عام ولكنه بقى حتى الآن لمدة أحد
عشر عاماً.. ويرأس الدكتور محمد عبدالحميد معمل ووظائف الاتزان فى قسم
الأنف والأذن والحنجرة، وفى الوقت ذاته يقوم بدراسة الطب فى جامعة كيس
ليجمع بذلك بين شهادتى Ph.D و M.D.



أما فى جامعة كيس ويسترن فيبرز عدد من النجوم المصريين فى كثير من
الكليات ولأنه لم يتح لى أن أتعرف عليهم جميعاً المعرفة التى تمكننى من الحديث
عدهم فإنى سأعذر عن ذلك توخياً للامانة إلى أن تتاح لى هذه الفرصة، وسأكتفى
بأن أحدثك عن الدكتور عادل عبدالفتاح محمود رئيس قسم الباطنة فى كلية الطب
وهو خريج طب القاهرة ١٩٦٣ وكان أحد الأقطاب البارزين فى الحركة الطلابية
والشبابية، وهو الآن أحد الأقطاب البارزين أيضاً فى مجال الأمراض المعدية..

ويقود فرقاً للبحث في كثير من المواقع، وهو الذى تولى كتابة الفصل الخاص بالبلهارسيا فى المرجع الطبى الكبير سيسل لوب.

ولابد أن أذكر لك كذلك بكل الخير قطبين بارزين من أطباء كليفيلاندا الأحرار الذين يعملون خارج الجامعة أولهما الدكتور سيد حسنى وهو خريج طب الاسكندرية ١٩٥٦، وقد قدم كليفيلاندا فى ١٩٧٠ حيث يمارس تخصص النساء والتوليد منذ ذلك الحين متمتعاً بسمعة طيبة ونجاح مطرد، وبيته هو بيت المصريين فى كليفيلاندا وزوجته السيدة نادية هى أم المصريين فى كليفيلاندا، وثانيهما هو الدكتور محمد الملواتى وهو خريج طب القاهرة ١٩٦٧ وكان ثانى الدفعة وعمل نائباً لأمراض النساء والتوليد فمعيداً وهو اليوم من أبرز المتخصصين فى جراحات الليزر والمناظير.



هل تسمح لى ياسيدى القارىء أن أعود بك الآن إلى أول صفحات كتبتها فى هذا الكتاب مصوراً على طريقة اليوميات ما صادفنى فى كليفيلاندا كلينك!!
هذه ياسيدى هى يومياتى الحقيقية:-

يوم الاثنين: قبل أن تبلغ الساعة الثامنة كنت واقفاً أمام السكرتيرة الإيطالية فى المركز الدولى حيث كان على أن أملأ استمارة تفيد قدومى، واستمارة أخرى من أجل التأمين الصحى، واستمارة ثالثة من أجل استخراج البادج الخاص بى. حتى تصل زميلتها سألتنى السكرتيرة أن أبقى بعض الوقت فى قاعة للمؤتمرات.
كى أستخرج البادج كان على أن أسلك طريقاً محدداً ولا أقول طويلاً.

تأخذ مصعد مبنى الفندق الذى أنت فى الدور الرابع منه حتى الدور الأول من الفندق وتمضى إلى الخلف حتى الباب الخلفى للفندق تنتظر هناك أتوبيس المستشفى الأبيض الخاص الذى يحمل حرف A سوف ينقلك هذا الأتوبيس إلى المبنى المسمى «شوستر» ضمن المباني الأخرى التى يمر بها هذا الأتوبيس.. وهذا الأتوبيس ليس وحده الذى يؤدي هذه الخدمة المجانية فى التنقل بالأطباء والمرضى والزائرين والعاملين بين أرجاء مستشفيات كليفلاند والمرافق الأخرى المرتبطة بأقسام المستشفيات سواء الفنادق أو بيت الضيافة.. إلخ.

إذا وصلت إلى مبنى شوستر فعليك أن تأخذ المصعد إلى الدور A لأن الدور الذى يوازى الشارع هو الدور C وتحت طابقان A&B وفوقه طابقان D&E وعلى هذا النمط كل أبنية المستشفى ف A لا يناظر A دائماً، والطابق الأول لا يناظر الطابق الأول دائماً.. ربما ناظر الدور الثالث فى هذا المبنى وربما ناظر الدور الثانى فى مبنى آخر.. وربما ناظر البدروم الأول أو البدروم الثانى وهكذا..

ولكنك مع ذلك كله لا تضطرب فى البحث عن هذه المستويات من المناظرات، بل لا تفكر فيها على الإطلاق..

بل إننى مع تقدم الوقت بى فى المستشفى اكتشفت (أو لكى أكون صادقاً: اكتشف مجموعة من أساتذتنا المصريين الذين زارونا) أننى أعرف بعض طرق المستشفى وتخاريمها Shor-Cut أحسن من بعض الذين يعملون هنا أكثر من ١٥ عاماً. الحق أن الوصول إلى هذا المستوى من المعرفة ليس معجزاً لأنك تجد التعليمات واضحة ومحددة واللافتات الدالة على ما أنت فيه، وعلى ما تريد، واضحة ومعبرة ومنتشرة مع كل خطوة تخطوها.

وحيث تذهب لاستخراج البادج فإنك تملأ استمارة أخرى، وتوقع عليها، وتجلس أمام كاميرا، والكاميرا متصلة بالكمبيوتر، والسكرتيرة تأخذ اسمك وتكتبه على لوحة مفاتيح الحروف، وفي الوقت نفسه توجه الكاميرا إليك لتلتقط صورتك، ويخرج لك البادج سريعاً من هذا الجهاز الذي يمكن وصفه بأنه الكاتب المصور المغلف والمحتفظ بالمعلومات في ذات الوقت. ماذا يسمونه؟ لست أدري!!

وفي التعليمات المكتوبة في الورقة أن هذه العملية تأخذ من عشرين إلى خمس وأربعين دقيقة، ولكنها لم تأخذ معي أكثر من ثلاث دقائق.. أجد قلمي يريد أن يقول قل خمسة حتى لا تتهم بالمبالغة.

وتطلب السكرتيرة عشرة دولارات كتأمين لهذا البادج، وتخبرك التعليمات المكتوبة أن هذه الدولارات قد تضيع عليك إذا مارست هواية البشر في الاحتفاظ بالبادج كذكرى. أما إذا أردت الدولارات العشرة فعليك أن تسلم البادج في اليوم الأخير لوجودك في المستشفى.

وها أنا أعود من حيث أتيت إلى المركز الدولي في الطابق الرابع من الفندق. فإذا مسئولة التأمين الصحي في انتظاري لأملأ استمارة أخرى، ثم تعطيني ورقة بموعدي عند طبيب الأسنان في الساعة الحادية عشرة والنصف عند الديسك S-52، وكل اللقاءات على هذا النحو.. رقم للديسك يتكون من حرف أبجدي ورقم. والرقم يعني رقم الدور من خزانة العشرات، والحرف الأبجدي يدل على المبنى.

إذا فعندي وقت من الساعة التاسعة والنصف حتى الحادية عشرة والنصف أقضيه عند الدكتور جبران الذي سوف يكون من حظي أن أعمل معه هذا الأسبوع.

فلأذهب إلى F 25. وهذا هو رقم الديسك الخاص بقسم القلب الذى سوف أعمل فيه .

إذاً فلا بد أن أذهب إلى مبنى F وهو كما تقول الخريطة: المبنى الملاصق لمبنى الفندق.. إذاً فلا داعى للتوبيس هكذا أفكر بصوت عال أمام السكرتيرة التى توافقنى وتقترح علىّ الذهاب عن طريق ما يسمى طريق السماء..

وطريق السماء هذا كوبرى مشاة طويل يبلغ طوله ٧٠٠ قدم وعرضه لا يقل عن ٥ أمتار، وهو زجاجى الجنبات مكيف الهواء، وبساطه المفروش من أفخم أنواع السجاد، وجدرانه من أروع الديكورات والزجاجيات.. ربما يمر بخاطرك ذلك الممر الضيق بين مبنيين للبنك الأهلى فى شارع شريف بالقاهرة، ولكن ذلك الممر القاهرى لا يمثل واحداً على المليون من جمال ولا جلال ولا كمال هذا الممر: «طريق السماء» الذى يربط مبانى مؤسسة كليفلاند كلينك الطبية معاً.

وفى «طريق السماء» هذا مصاعد لكل مبنى - فإذا انتقلت من مبنى الفندق إلى المبنى F مثلاً.. فإنك لابد أن تنزل إلى الطابق الأول من الفندق وهو اللوى وفى نهايته تصعد طابقاً لتكون فى مستوى طريق السماء الذى تمضى فيه حتى تصل إلى مصاعد المبنى F وهناك تطلب إلى المصعد أن يقف بك لا تقل هنا يصعد أو يهبط، لأن الأمر كما قلنا يختلف من مبنى إلى مبنى حسب مستواها مع طريق السماء] عند الطابق الثانى مثلاً، وفى الطابق الثانى تبحث عن الديسك الذى أنت موجه إليه.

أما الدكتور جبران فقد بدأ المرور فى الرعاية المركزة هكذا جاءنى الرد بغد ما استدعوه بالبليب، ولن يفرغ إلا فى حدود الحادية عشرة والنصف ولكنى أنا الآخر

سأكون مشغولاً بدءاً من الساعة الحادية عشرة والنصف .. ويجيء رده مرة أخرى بعد الاتصال به بالبليب .. إذا فلأذهب إليه بعدما أنتهى من كل ما يشغلنى .
وأمامى الان قرابة المائة دقيقة يتيحها الله لى لأبدأ كتابة هذا الذى كتبتة عن
كليفيلانند .



هل يكون حديثى معك عن بعض التفصيلات فى مستشفى كليفيلانند كلينيك حديثاً ثقيل الظل بعض الشيء حين أحدثك عن المستشفى العظيم الذى أتيج لى أن أمضى فيه هذا الوقت المثمر .. نحن نقول دائماً بشيء من الفخر التعويضى إن أمريكا بلد بلا تاريخ أعرق ما فيه عمره مائتا عام .. نعم ياسيدى ولكن معظم ما فيه من رموز الحضارة الحديثة جداً أيضاً قد قارب عمره على المائة عام !! ونحن لا نزال بين يوم وآخر حين نريد أن نرفع من قدر شيء نلجأ إلى حقيقة واحدة أو إلى حيلة واحدة - لست أدرى - فنقول إن هذا هو أول مركز وأول معهد وأول برنامج وأول مؤتمر .. إلخ، إذا فنحن فى بلاد العراق معظم مؤسساتنا وإنجازاتها لم يبلغ العام ولا الشهر، وهم فى بلاد الحدائة معظم مؤسساتهم قارب المائة عام .

نحن فى كليفيلانند، وفى كليفيلانند أكثر من جامعة .. هل تعرف هذه الجامعة التى تسمى جامعة كيس ويسترن ريسرف CWRU؟ التى ننظر إلى مستشفياتها - نحن الذين فى كليفيلانند العظيمة - من على!! هذه الجامعة ياسيدى بدأت عام ٢٤ -
طبعاً تخيل أنها بدأت بالكاد قبل جامعة القاهرة بعام واحد - نعم لك الحق ياسيدى إذا
ظننت ذلك، ولكن من جحك علينا أن نقول لك إنها بدأت عام ١٨٢٤ وليس

.. ١٩٢٤

وكليفيلاند هذا الصرح الطبي أنشئ عام ١٩٢١ حين وجد ثلاثة من أساتذة هذه الجامعة أنهم سيتقاعدون بينما هم مازالوا يمارسون الطب.. فبدأوا بناء هذا المستشفى وانتهوا منه في عام. وقد كان أجر العامل يوم بنوا هذا المستشفى دولاراً لكل ساعة، وفي تلك الأيام كان الغداء يتكلف ٢٠ سنتاً أى خمس دولار، وكان طابع البريد بسنتين اثنتين فقط، وقد قام أول مبنى فى هذا المستشفى على مساحة ٧٦ قدماً x ١٢٠ قدماً واستخدم فى بنيانه حوالى ٤٨٠ ألف طوبة وقد عهد بتصميمه إلى المهندس العظيم إليري Ellerbee وهو نفسه الذى تولى بناء مستشفى مايو كلينك العظيم من قبل.

أما اليوم فتقوم الكلينك على مساحة ١٠٥ هكتارات أى أكثر من ١٠٠ فدان وتضم عدداً من المباني المتباينة تماماً فى ذوقها وبنائها ومعمارها، يبلغ عددها أكثر من ٣٠ مبنى ولكنها مرتبطة مع بعضها كما حدثتلك من قبل بطريق السماء، وسأحاول أن أصور لك الأمر بشيء من التفصيل مع أن كل القريبين منى يجمعون على أنى أسوأ من يشرح!!.

أنت الآن فى شارع يوكليد، والذى يفترض أن عنوان الكلينك عليه وهو رقم ٩٥٠٠ شارع يوكليد، ويوكليد هذا عالم يونانى. وأنت الآن قادم من وسط البلد.. ستجد إلى اليمين مبنى قديماً له مدخل صغير على الشارع تكاد العين تخطئه اليوم.. نعم لأنه اليوم مدخل فرعى لقسم صغير هو مركز الأورام.. إذا دخلت من هذا الباب، وعبرت الطرقة الطويلة التى تمر عبر قسم الأورام هذا فإنك تجد نفسك فى مدخل استقبال فسيح (يكفى عليه وصف فسيح لأننا سنصادف بعد هذا مداخل فسيحة جداً: مدخل M ومداخل فسيحة جداً جداً: كمدخل مبنى F&G ومداخل أخرى

ليس إلى وصف فساتها من سبيل: كمدخل مبنى A) هذا المدخل يمثل المدخل الحقيقي لأحد الأجنحة الثلاثة الضخمة التي تكون مع بعضها شكل حرف U الذي يتمثل معه المستشفى القديم تماماً.

أما الجناح الأيمن فهو الذي يضم المباني التي تحمل حروف M,S&T .

وأما الجناح الذي يمثل قاعدة حرف U فيضم المباني التي تحمل حروف

A,G&F

وأما الجناح الأيسر فهو مبنى البحوث.

أما مبنى T فهو مخصص للعيادات الخارجية وأما المبنى الذي يحمل حرف S

فهو الآخر للعيادات الخارجية.

والعيادات الخارجية مصطلح يعنى تلك الأجزاء من المستشفى التي لا تقتضى من المريض المبيت بالمستشفى، إنما هو يأتى إلى المستشفى يعالج أو يشخص من دون أن يبيت فيه، وفى هذا المبنى فى الدور الخامس مثلاً عيادات الأسنان، وفى الدور السادس من نفس المبنى القسم الذى يتولى تشخيص أمراض الجهاز الوعائى بواسطة الدوبلكس.

وأما حرف M فهو مستشفى فيه عنابر داخلية، ويضم أيضا مستشفى الطوارئ

وفيه أيضاً عيادات الألم التابعة لقسم التخدير.

فيما بين حرف S وحرف M يوجد مبنى كامل للأغراض التعليمية اسمه مبنى

التعليم Education وفى هذا المبنى قاعات عديدة للمؤتمرات وفيه المكتبة .. وتجتمع

هذه المباني الأربعة M,S&T والمبنى التعليمى على مدخل واحد جميل وضعت فيه

الماكينات الخضراء التي تسمح لك بصرف أموالك التي في البنوك ببطاقات الفيزا..
وفيه كافيتريا للوجبات السريعة.. وفيه خزينة للتأمينات والمستحقات، وفيه ماكينات
بيع الصحف، وفيه أكشاك للاستعلامات، وأكشاك للدعاية لمشروعات التوعية
الصحية المتنوعة كالحملة ضد السموم - أو ضد السرطان أو ضد الإيدز أو من أجل
التغذية السليمة.. إلخ. وفيه مكتب للبريد.. كل هذا ياسيدى تجده في المدخل الذي
تبذل عليه عظمة كليفلاند بكلمة فسيح جداً.

أكون مقصراً في حق المباني الأربعة إذا لم أقل لك إن لها مداخل أخرى فالمبنى
T كما قلت لك له مدخل على شارع يوكليد نفسه وللمبنى التعليمي مدخل خلفي
على الشارع الشرقي التسعين، وإلى الجانب الآخر من الشارع تجد أحد الجراجات
الكبرى بالمستشفى، ومبنى M وهو مبنى الطوارئ له مدخل هو الآخر على
الشارع الشرقي التسعين.

هذه هي المباني الأربعة التي تمثل الجناح الأيمن من الكتلة الكبرى من
كليفلاند كلينك... تصور نفسك قادماً معي من وسط البلد ماراً بشارع يوكليد حيث
الباب الصغير الذي يطل به مبنى حرف T على شارع يوكليد، فإنك تجد قبل هذا
المبنى عدداً من المباني يطل على شارع يوكليد ولكنها لا تنتمي إلى كليفلاند
كلينك - ولكن ما وراء هذه المباني مباشرة من مباني هوما يهمني أمرها.

تقع هذه المباني الثلاثة فيما بين الشارع الشرقي التاسع والثمانين والشارع
الشرقي التسعين اثنان منها جراجان.. أحدهما اسمه جراج الموظفين.. والثاني
اسمه جراج التسعين، أما المبنى الثالث فهو مستشفى ويحمل حرف P. ها أنت
ياسيدى تدرك الآن أنه لا بد لمبنى p وللجراجات أن تتصل عبر الشارع التسعين

بكتلة المستشفى الأصلية من دون أن يعبر المرضى أو الموظفون أو الزوار الشارع..
نعم.. وهناك طريق شبيه بطريق السماء فوق الشارع التسعين الشرقى.

أعود معك إلى حرف U، ها أنت قدمت من شارع يوكليد سواء أقدمت بالسيارة
أم على قدميك، ودخلت في حرف U حيث النافورة التي تتوسطه والتي تمر حولها
السيارات. وأنت الآن عرفت أنه في الشمال يقوم مبنى البحوث وإلى اليمين المبنى
الثلاثة M,S&T فماذا في الواجهة؟

في الواجهة ياسيدى ثلاثة مباني أحدث عمراً من السابقة. تبدو لك كأنها مبنى
واحد ولعلها كذلك.. مدخلها فسيح جداً جداً. وينضم إلى مدخلها جزء كبير من
مساقط النور. ومساقط النور في هذا المدخل مغطاة بالزجاج ولكن ليس من الطابق
الأول وإنما من الطابق الثاني.. وإذن فلارتفاعها عظمة شاهقة تريح النفس وتبهرها
في الوقت ذاته والفكرة المعمارية فيها تقليد لفكرة العمارة الإسلامية في مساقط
النور الداخلية. والجلوس في هذا المدخل الكبير متعة كبيرة: صالونات فخمة،
وزهور جميلة وتليفزيونات ذات شاشات كبيرة الحجم، تكييف جميل، فإذا ما
تجاوزت المدخل الفسيح جداً إلى عمق المدخل حيث مساقط النور المغطاة بالزجاج
الجميل على هيئة هرم أو نصف هرم أحسست بالراحة التامة من هذا المعمار
المريح.

أما مبنى F فهو مخصص للعيادات الخارجية ومكاتب الأطباء وأما مبني M&G
فهما مخصصان للجراحات والرعاية المركزة والأقسام الداخلية للمرضى. وترتفع
هذه المباني أحد عشر دوراً.

تريد أن تسألنى عن بقية مبانى الكلينك. دعنا ننظر من علٍ كما لو كنا فى طائرة من فوق الكلينك كنه لأصور لك الأمر كله تصويراً بسيطاً. إذا كانت مبانى المستشفى تطل على ميدان فسيح يطل على شارع يوكليد وإذا كان المستشفى يأخذ شكل حرف U وإذا كانت مبانى H&G وكذلك P بمحاذاتها تمثل قاعدة حرف U فعلام تطل هذه القاعدة من الجانب الخلفى؟ إنها تطل ياسيدى على شارع عظيم لا يقل اتساعاً عن شارع يوكليد وهو مسمى باسم رجل عظيم آخر هو كارنيجى. أنت الآن ستدرك بذكائك، أنه لا بد وأن هناك امتداداً لكيفيلاند كلينيك بعد شارع كارنيجى، نعم ياسيدى هناك مبنى ضخم جداً جداً هو مبنى حرف L وهو المخصص للمعامل.. وفيه جزء كبير شبه مستقل مخصص لأجهزة الرنين المغناطيسى وقد صمم معمار هذا المبنى بحيث لا يسمح للتأثيرات المغناطيسية فى خارج المبنى أن تؤثر على الأجهزة العاملة فيه، وقد كان هذا هو الاعتقاد فيما مضى، أما بعد التطوير التكنولوجى فقد أمكن التغلب على هذه الصعوبة.

طبعاً ياسيدى لا بد من طريق السماء، كى يعبر فوق شارع كارنيجى ليصل المعامل بمبانى المرضى H&G وبقية كتلة المستشفى.

حين أكون واقفاً فى حجرات المرضى فى الرعاية المركزة فى مبنى G فإننى أطل على شارع كارنيجى من هذه الحجرات. وشارع كارنيجى هذا من حيث المرور يطبق قاعدة مهمة فهو فى ساعات الذروة من يوم الإثنين وحتى الجمعة من الرابعة وحتى السادسة والنصف يكون اتجاهاً واحداً فقط ناحية الشرق، وفيما عدا ذلك فهو اتجاهاً.



لك ياسيدى أن تتجاوز كل هذه الفقرات التى أكتبها فى وظيف المبانى والخرائط.

وتستغفر لى ولنفسك عن اللحظة التي فرضتَ فيها على نفسك أن تقرأ هذا الكتاب الممل - ولكننى لن أسامح نفسى إذا أهملت وصف المباني والشوارع والمرور - وأهملت من هذه الحضارة إنجازاتها الرائعة، وتنظيمها الدقيق، وتغلبها على كل المشكلات التي تصاحب النمو المتراكم والاتساع المدروس عبر السنوات.

أريد أن أقول ياسيدى إن هذه المباني التي أحدثك عنها مبعثرة أكثر من بعثرة مباني طب عين شمس التي تظنها «متبعثرة» بين مستشفى عين شمس التخصصى على يمين شارع الخليفة المأمون.. ومستشفى عين شمس القديم على شمال شارع رمسيس، ومستشفى الدمرداش من أمامه، ومستشفى النساء الجديد المطل على شارع أحمد لطفى السيد، ومستشفى الأطفال الذي كان من قبل مستشفى للنساء وللأطفال، ومركز الطب النفسى فى عرب المحمدى، ومباني الكلية والمدرجات والأكاديمى خلف مسجد النور.

وكليفيلاند كلينيك مبعثرة أكثر من بعثرة مستشفيات قصر العينى القديم، والجديد، وأبو الريش، واليابانى، ومستشفى الباطنة، والمدرجات، ومبنى الأكاديمى، ومستشفى النساء... إلخ.

ولكنهم ياسيدى أكثر منا قدرة على الربط والتوحيد، وتحويل الأنغام المتفاوتة والضربات المختلفة التون إلى سيمفونية واحدة.. وهذه صورة من صور موسيقى الإدارة والتخطيط ياسيدى.

ولا يتأتى هذا الربط والتنظيم إلا من خلال:

□ خرائط واضحة.

□ مسميات لا ايس فيها ولا تكرار، تعتمد على الحروف، والأرقام،
والاختصارات لا على الأسماء الطويلة، أو الرنانة، أو المكررة.

□ لوحات إرشادية مبعثرة في كل مكان.

□ معمار جميل يبتدع أشياء من قبيل ما يسمى بطريق السماء.

• وهو طريق مقفول لا مدخل له إلا من هذه المباني.

• عال لا يشغل الأرض.

• لا يقطعه المرور ولا يقطع هو المرور.

• جدرانه من الزجاج تجعله واضحاً وتجعل السالك فيه مهتدياً تماماً إلى المواقع
التي من أمامه ومن خلفه و التي عن يمينه وعن شماله.

• مزدوج الفائدة إذ تتم فيه أيضا برامج تأهيل المرضى بالمشى بعد العمليات
الجراحية الكبرى.

□

وأعود بك ياسيدى إلى مبنى المعامل لأذكر أنه يحتل الكتلة الكاملة التي بين
الشارعين الشرقيين الثالث والتسعين، والسادس والتسعين فكأنما الشارعان الرابع
والتسعون والخامس والتسعون جزء من كتلته لو كان لهذه الكتلة أن تنقسم على نحو
ما تقسمت في مواضع أخرى من المدينة.

وها أنت تدرك الآن أننى لا أذكر لك الشارع السادس والتسعين إلا لأحدثك عن
مبنى جديد يطل عليه .. نعم ياسيدى هناك مبنى للبحوث يطل عليه.

إذا وعلام يطل مبنى البحوث الجديد هذا، ومبنى المعامل من ناحيتهما الأخرى.. إذا كانا يطلان بواجهتيهما على شارع كارنيجي فإنهما يطلان من الناحية الأخرى على شارع سيدار. وهو شارع ثالث مواز لكارنيجي ويوكليد.

ياالله.. هل رأيت إلى الآن كيف تمتد هذه المستعمرة لتطل على ثلاثة شوارع رئيسية كبرى من التي تعبر كليفلاند من شرقها إلى غربها.. وسيأتي ذكر الرابع والخامس فيما بعد.

لم يعد أمامنا كثير.. فها نحن الآن في الشارع الشرقي السادس والتسعين الذي تستطيع أن تصفه بأنه الشارع العرضي الذي ينصف المستشفى تماماً أو هكذا يبدو لك في الخريطة وفي الواقع..

أنت الآن تدرك أيضاً لماذا يطلق على المستشفى رقم ٩٥٠٠ يوكليد لأنها ياسيدى (أو لأن بابها القديم) كان على شارع يوكليد في المربع الذي بين الشارعين الشرقيين ٩٥ و ٩٦ وهكذا تستحق رقم ٩٥٠٠.

لعل أنتهز الفرصة هنا لأشرح للقارئ أن الأرقام الضخمة التي يجدونها للبيت في الشوارع ليست ذات دلالة على أن في هذا الشارع ٩٥٠٠ بيت مثلاً أو نصف هذا العدد، وأحياناً ما تصل الأرقام إلى خمس خانوات وليس معنى هذا أن البيوت في الشارع (أو الطريق) تصل إلى تسعة وتسعين ألفاً.. ولكن المسألة في منتهى البساطة أنهم يتركون خانتي الآحاد والعشرات للبيوت التي في المربع حتى ولو كانت بيتاً واحداً.. لماذا ياسيدى يفعلون هذا، الإجابة: حتى يسهل التعرف على موقع البيت في الشارع الطويل بموقع الشوارع العرضية فأنت في منتهى السهولة تستطيع أن تدرك أن ٩٥١٠ شارع كارنيجي يكون موازياً لـ ٩٥١٠ شارع يوكليد.. وهكذا.

دعنى لا أترك هذه النقطة إلا بعد أن أذكر لك أن مؤدى هذا أن كثيراً من الشوارع
لن تبدأ أرقامها من رقم ١ ولا حتى من رقم ١٠١. وخذ على سبيل المثال الشارع
الذى كنت أسكن فيه إنه يبدأ برقم ٢١٠٣ ومعنى هذا أن حدوده على الخريطة لا تبدأ
إلا عند الشارع الشرقى الواحد والعشرين وهكذا.

وفى أمريكا تجد الشوارع التى تمضى من الشمال إلى الجنوب تحمل أرقاماً، أما
الشوارع التى تمضى من الشرق إلى الغرب فتحمل أسماء.

وفى مدينة واشنطن تحمل شوارع الشرق إلى الغرب حروفاً بالإضافة إلى الأسماء.
لم أجد هذا الشرح مكتوباً فى كتاب ولكنى أجهدت نفسى حتى استنتجت، ولم
أحصل على اعتماد رسمى له بعد... ولكنى مع هذا أحب إن أقول لك إن بوسعك
الاعتماد على هذه المعلومات.



أعود بك ياسيدى إلى الشارع السادس والتسعين حيث يفتح الفندق الخاص بالكليذك
أبوابه على الشارع.. وفوق هذا الشارع يمر طريق السماء.. وعلى هذا الشارع نوافذ
عديدة لمبنى البحوث ومبنى F ومبنى G ومبنى L ومبنى للبحوث غير ذلك المبنى
المتصل بالمستشفى F وهو مبنى البحوث الثانى الذى يطل على شارعى سידار
والسادس والتسعين.

على هذا الشارع أيضاً يطل مبنى كبير ومهم جداً لا يقدر قيمته غير المصزى الذى
يذهب القاهرة من حين إلى آخر فىرى الجراچات متعددة الأدوار ويشكر للحكومة
جهدها فى بنائها.

هذا هو الجراح الثاني من جراحات المستشفى واسمه جراح شارع يوكليد يطل من الشمال على يوكليد ومن الشرق على السادس والتسعين ومن الغرب على مدخل المستشفى بحيث يكون على يدك اليسرى وأنت داخل المستشفى مقابلاً لمبنى T&S ومحاذياً لمبنى البحوث المتصل بالمستشفى F. وبين مبنى شارع يوكليد طريق صغير اسمه طريق الكليتك تمر به كل السيارات التي تريد أن تأتي من كارنيجي إلى باب المستشفى.

يحتل الفندق (وكذلك مبنى البحوث الثاني المطل من بعد على سیدار) مربعاً يمتد ما بين الشارع السادس والتسعين والشارع المائة.

وفيما بين الشارع الشرقي المائة والشارع الشرقي الثاني بعد المائة هناك الهرم الضخم أقصد المبنى الجديد ذا الأدوار الخمسة عشر على هيئة الهرم وهو المبنى الذي افتتح عام خمسة وثمانين.. إنه مبنى A، وكل هذا المبنى مخصص للعيادات الخارجية.. والعيادات الخارجية هنا تتسع لتشمل كثيراً مما نسميه في الطب بالـ procedure أو العمليات التي يقوم بها الأطباء الباطنيون كالمناظير مثلاً. وكذلك القثطرة في القلب، ولو أن القثطرة هنا مرتبطة بمبنى المستشفى نفسه لارتباطها الآن بكثير من الجراحات.

وفي الحقيقة إننا في مجال الطب في البلاد المتكلمة بالعربية لم نحدد حتى الآن كلمة لمثل هذه العمليات Procedure مع أنه تصدق عليها كلمة عمليات بالفعل، ولهذا فإنه يمكننا أن نقول عنها العمليات فحسب، ونخصص كلمة الجراحات للعمليات الجراحية.. ويصبح الفرق واضحاً بين الـ Procedure الـ Operation أو بين العمليات والجراحات. إلا أن هذا الذي أقترحه الآن في هذه الفقرة لم يجد مكاناً على أرض

الواقع بعد، ربما يأخذ أساتذتى وزملائى بما أرى. ولكن من الصعب (خاننى القلم- أريد أن أقول وليس من الصعب) أن يفهم الجمهور فى المستقبل ذلك الفرق حين يرى بعض اللافتات وقد كتب عليها حجرة العمليات، ولافتات أخرى وقد كُتب عليها حجرة الجراحات.. فأنا من الذين يحسنون الظن بالجمهور إلى أبعد الحدود.

وأذكر أننى كنت من الحريصين دائماً على لفت الأنظار (بل والتغيير باليد فى كثير من الأحيان) فيما يتعلق بتسمية الأمراض الباطنة، كانت كشوف أقسام الكليات ووزارة الصحة تسميها الباطنية، وكنت لا أترك فرصة التنبيه إلى ذلك حتى مع الموظفين الذين يكتبون الكشوف فى الكليات المختلفة، حين كنت أتولى إصدار كتابى المتضمن دليل الخبرات الطبية، لا أزعم أننى صاحب دور كبير فى هذا التصحيح، ولكنى أستطيع أن أؤكد أن أحداً من حوالى خمسين نبهتهم إلى هذا لم يستجب إلى ما طلبته إليه، وهذه نسبة عالية جداً من الإيجابية التى يتمتع بها شعبنا العظيم العريق.

ومن الطريف أن واحداً من أساتذتى الأفاضل قال لى مازحاً: الله يفتح عليك، ريحتنا من سيرة الباطنية، بكل ما فيها من موبقات.. يقصد السمعة التى يتمتع بها حى الباطنية فى تسويق المخدرات.

وقد أفدت بالطبع من هذه اللمحة فى إقناع الآخرين والدفع إلى أن يربأوا بأنفسهم عن هذه السبة!



إلى الجنوب من مبنى A نجد الجراج الثالث واسمه جراج الشارع المائة.. يطل

على شارع كارنيجي بواجهة البحرية، يطل بواجهته القبليّة على شارع وليبر وهو شارع طولى آخر يقع بين كارنيجي وسيدار. ولا يبدأ إلا بعد الشارع المائة.. فيما بين كارنيجي ووليبر وإلى الشرق من چراج الشارع المائة نجد مبنى E وهو مبنى مستشفيات.

وفيما بين كارنيجي ويوكليد وإلى الشرق من مبنى A الضخم نجد ثلاثة مبان متتالية: مبنى الغسيل الكلوى ويحمل حرف D وبعده مبنى يحمل اسم يوتر ميللين ثم مركز حصوات الكلى، الأولان فيما بين ١٠٢ و ١٠٥ والأخير إلى الشرق من ١٠٥.

إلى هنا ياسيدى تنتهى كل مستعمرة الكلينك التى على يمينك وأنت قادم فى يوكليد من غرب المدينة ومن وسطها - إلى شرقها. كل هذا على يمينك وكل هذا وحتى مبنى A متصل بطريق السماء بالإضافة إلى الأتوبيسات الخاصة التى تنتقل بين مبانى المستشفى.

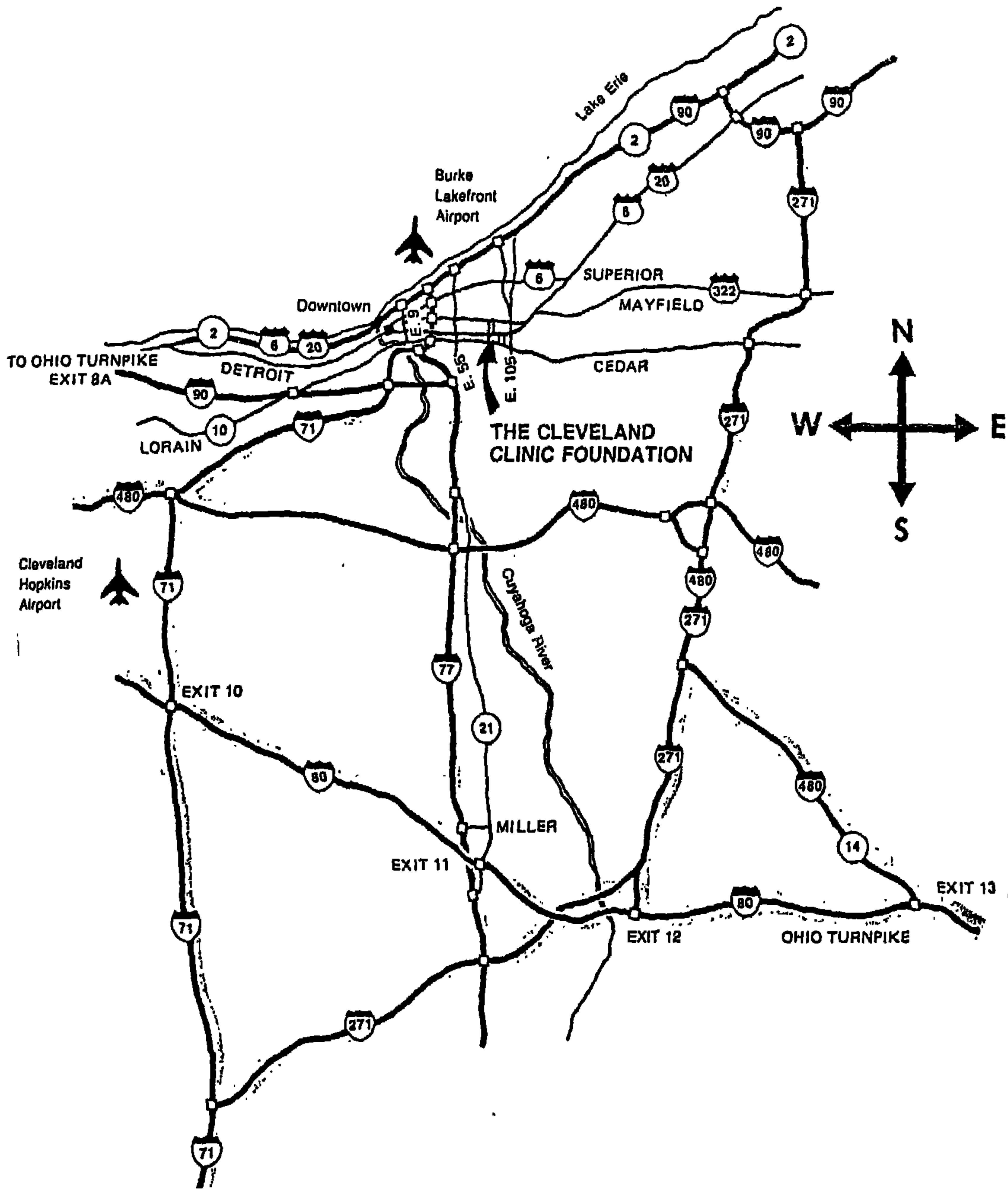
ماذا عن اليسار؟ ما هى المبانى التى إلى يسارك وأنت قادم من وسط المدينة فى يوكليد.

هناك إلى الغرب وقبل أن تصل إلى أول باب للمستشفى على يوكليد.. هناك وقبل الشارع التاسع والثمانين تجد مبنى من مبانى المستشفى يحوى عدة مراكز ويحمل حرف U وهو يقع ما بين يوكليد إلى الجنوب وشيستر إلى الشمال، وفيما بين التاسع والثمانين والتسعين هناك متحف كليفلاند للوعى الصحى، وفيما بين الشارعين التسعين والثالث والتسعين تجد مساحة كبيرة من الأرض الفضاء ولافتة ضخمة تحمل

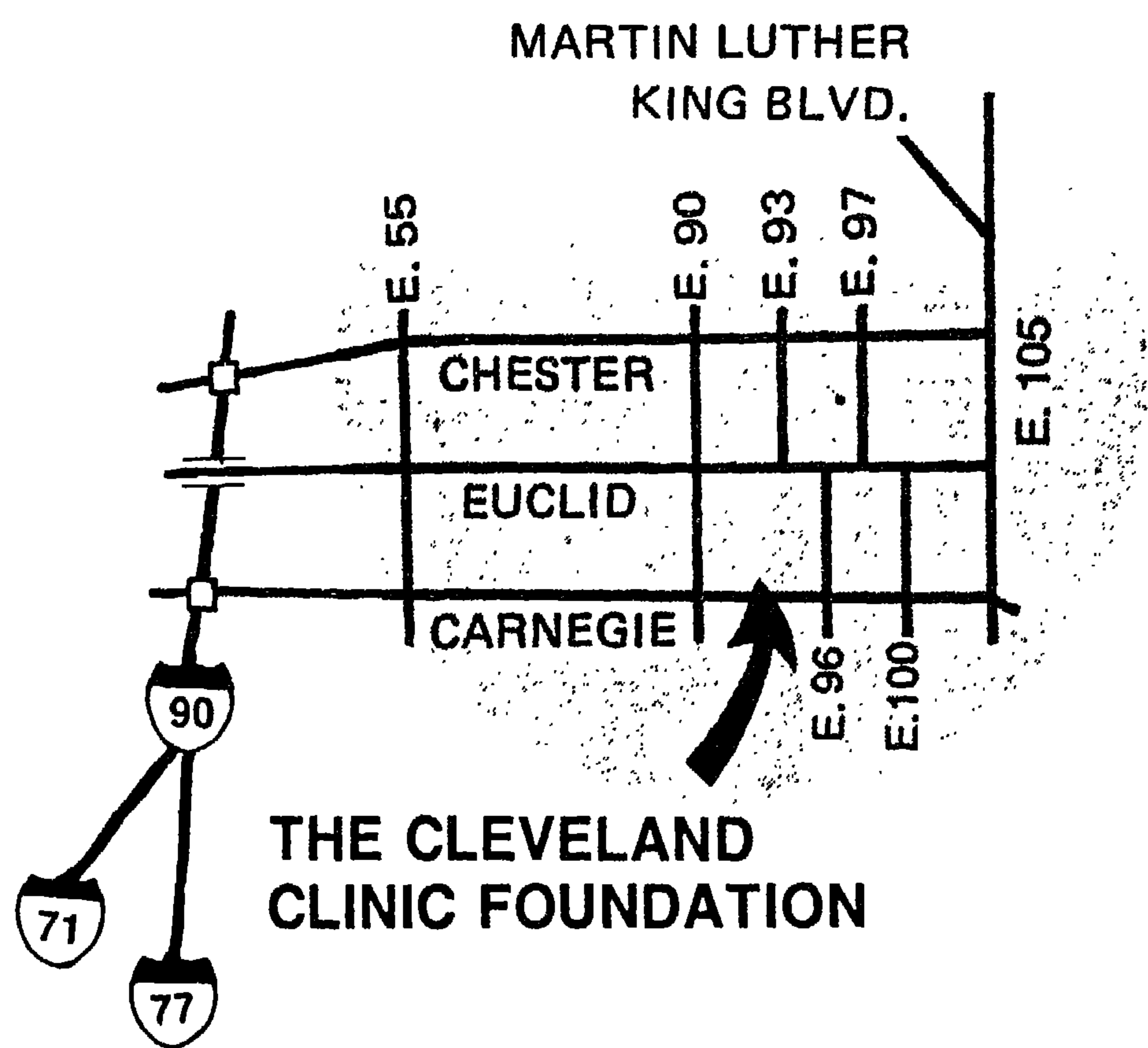
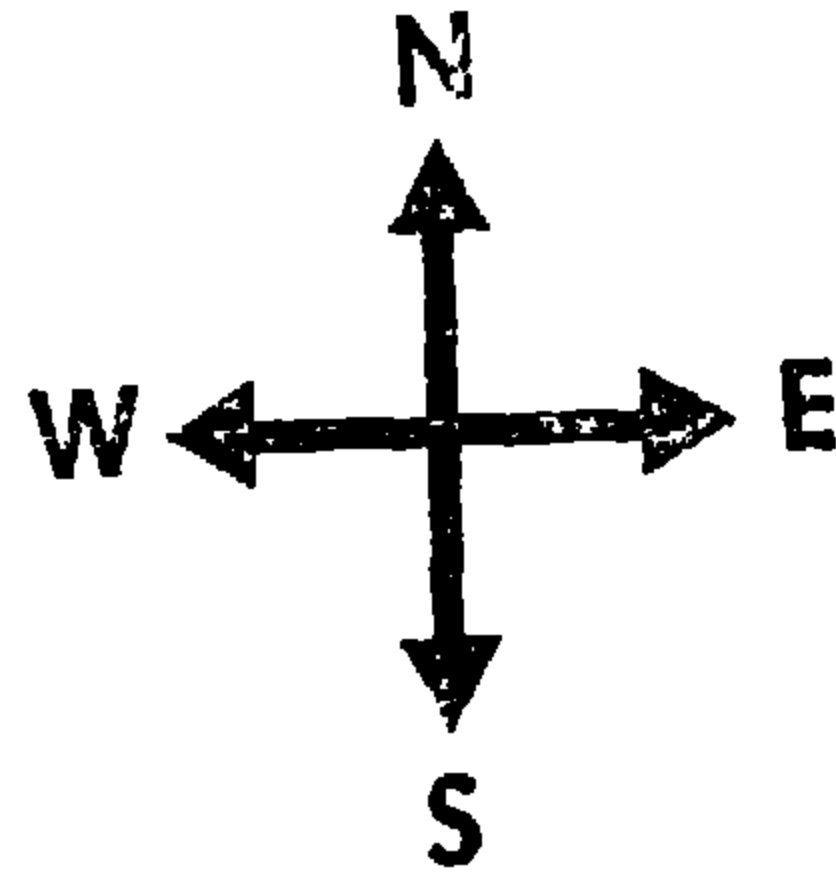
عنوان برج الكليذك لا أدري هل سيقوم فيها هرم جديد ضخم ولكنى أعتقد أنه لابد
من ذلك ربما بعد ٢٠٠٠ مباشرة!!

وفيما بين الثالث والسابع والتسعين يقع بيت الضيافة الخاص بالكليذك.

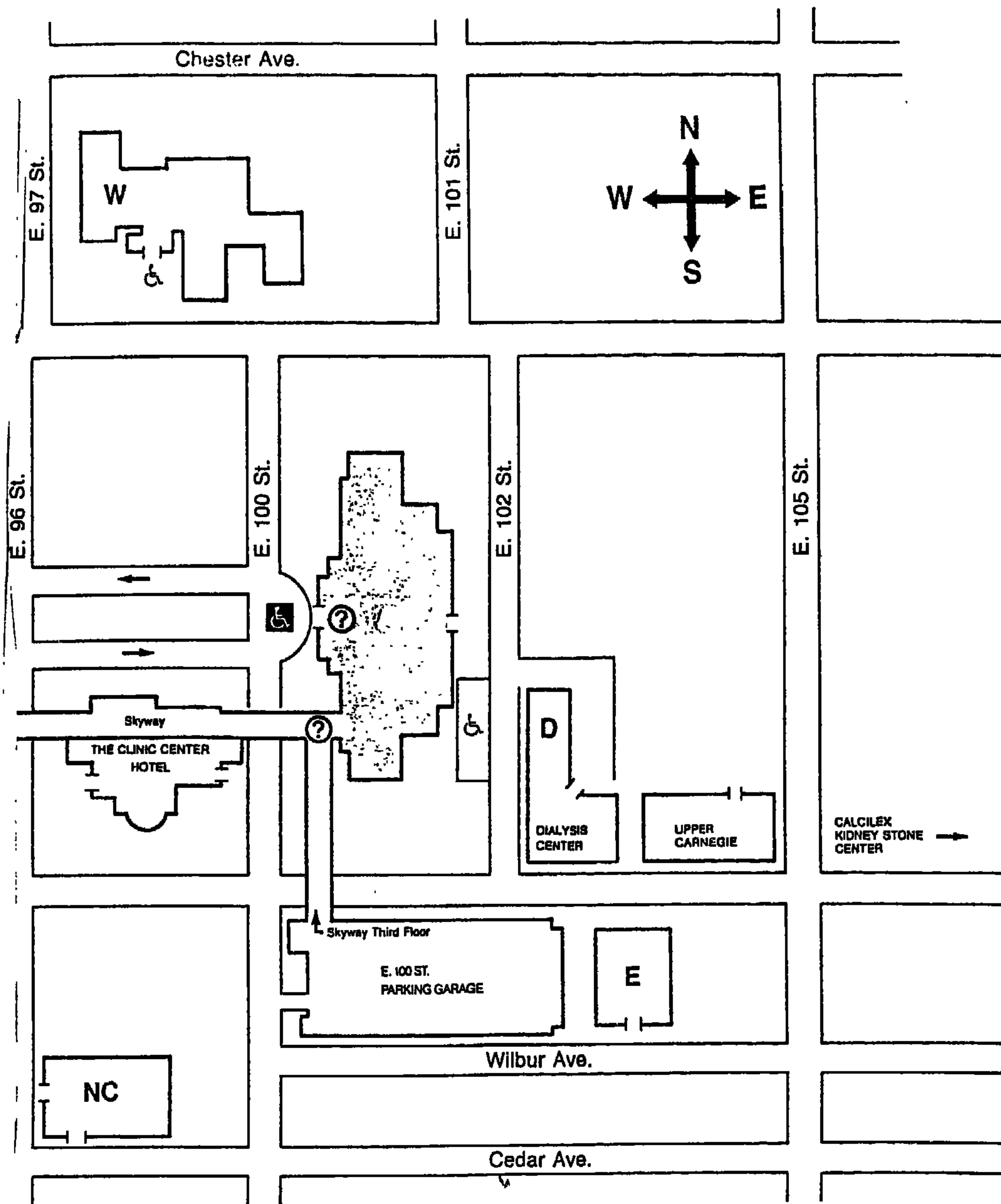
وفيما بين السابع والتسعين والأول بعد المائة مبنى W وهو مركز شيستر
للمؤتمرات.. وهو المبنى الذى نحصل منه على البادج الذى نمرره من ظهره فى
الأبواب فتتفتح، وفى عوائق الجراچات فترتفع، ونمضى به فى طرقات المستشفى
وحجراته فيعرفنا زملاؤنا ويعرفون كل ما يحبون عن تخصصاتنا ووظيفتنا ومكانتنا.



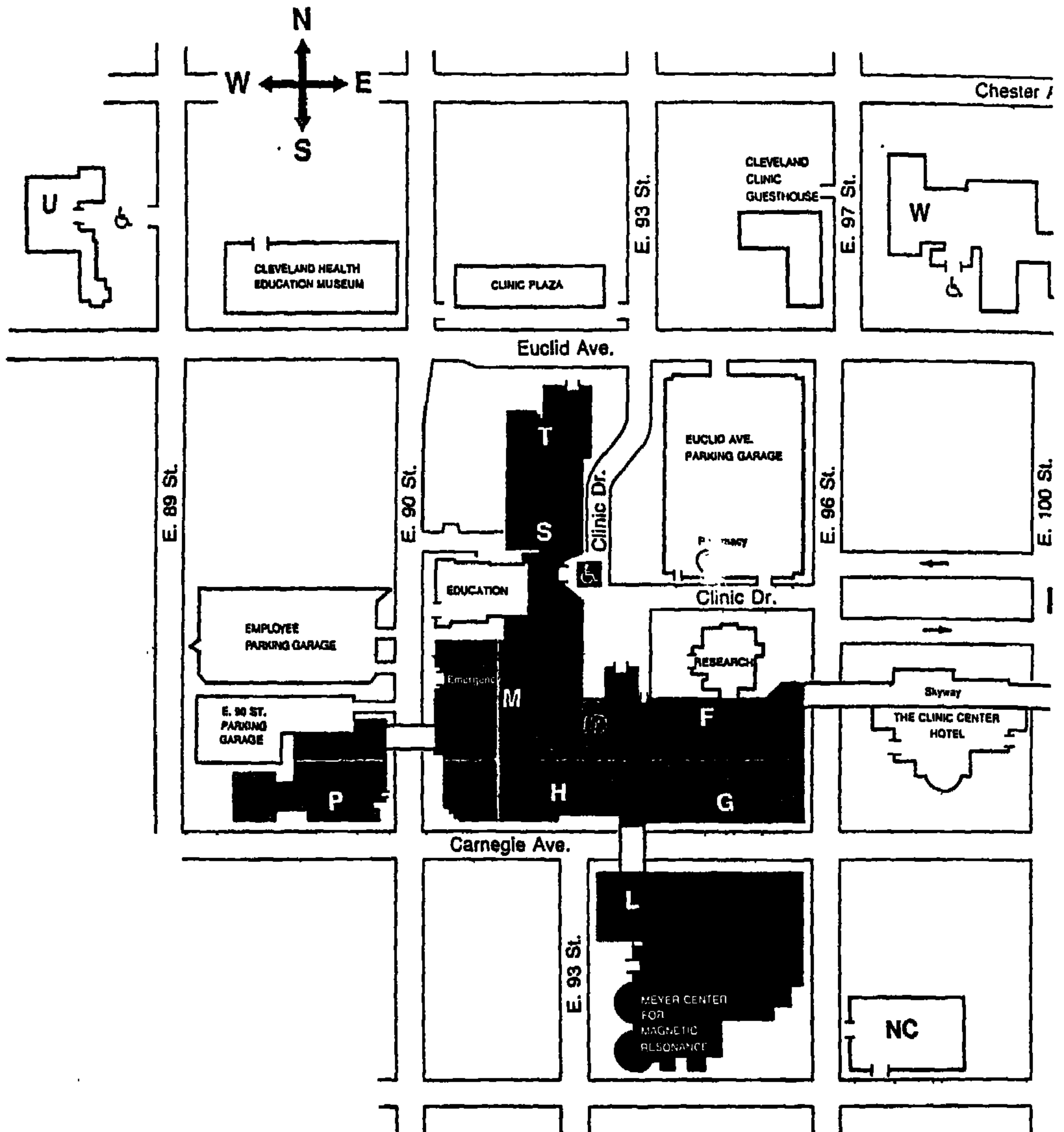
خريطة الطريق إلى كليفلاند كلينيك



صورة مكبرة لموقع كليفلاند كلينيك والشوارع الطولية والعرضية



خريطة المواقع المختلفة



في كليفلاند كلينيك

6

في قسم القلب^٦ بكيفية لاند

في قسم القلب بكليفييلاند

أحب أن أصور لك بعضاً من الطب الأكلينيكي في مجال القلب (Clinical Cardiology) وكيف يمارس الأطباء الأمريكيون الطب على الرغم من انغماسهم إلى آذانهم وربما إلى أعلى من آذانهم في الطرق الحديثة للتشخيص (الدراسات الكهربائية الفسيولوجية، أو الدراسات غير النافذة بالموجات فوق الصوتية، والطب النووي، والرنين المغناطيسي، أو بدراسات رسم القلب بالمجهود أو رسم القلب الدينامي فضلاً عن دراسات القثطرة وتصوير الأوعية).

سأجلسك معي عند واحد من هؤلاء الأطباء الذين ينتمون إلى هيئة الأطباء Cardiology Staff بعد أن انتهى من أداء واجبات معمل القثطرة.

هذه هي أولى المرضى، وهي سيدة في الرابعة والستين من عمرها نطالع في ملفها المتضخم تقريراً مطولاً بنتيجة الفحص الإكلينيكي الذي أجرى لها، والفاحص

(أو الفاحصة) ليس معنا ولا أمامنا وكأننا إذا فيما نسميه في امتحان الدكتوراه المصرية بالحالة المطولة التي يفحصها الفاحص (طالب الدكتوراه) ويكتب كل شيء عنها ويمضى لحال سبيله، من دون أن يحضر أمام الممتحن!

تقرير الفحص أكثر من ممتاز: دقيق، وشامل، ومنظم، وقد استطاع الفاحص أن يستقصى كل شيء تقريباً حتى تاريخ العائلة كله بدءاً من الأم والأب والأخوات.. إلى الجدود إلخ. وكيف انتقلوا إلى العالم الآخر.

بعد كل هذا الوصف الذي قدمته لك فيما يتعلق بالفحص: صدق أو لا تصدق أن الذي يتولى هذا الفحص ممرضة (أو ممرض) على مستوى عال من الكفاءة والتمرين والدراسات العليا بعد فترة نيابة متصلة متواصلة بعد التخرج مما يوازي كلية التمريض عندنا.

هذه هي الأشعة وهذا هو ما نسميه «ظل العملة»، وقد وضح في صورة رئة هذه السيدة، وهو قد يوحي لنا أن هناك شيئاً سرطانياً مثلاً قد أصاب هذه الرئة.. وبخاصة أنها مدخنة لم تتوقف عن التدخين، وأن أشعتها منذ ٤ سنوات لم تكشف عن هذا الظل. السيدة لم تأت إلينا لهذا السبب بالطبع وإنما جاءت تشكو سرعة ضربات قلب، ورسم القلب ينبئ عن أنها مصابة بالرجفان الأذيني Atrial Flutter وهي حالة علاجها سهل وميسور ولكنه سيدوم معها لفترة طويلة. واجتماع هذه الحالة مع شيء في الرئة لابد أن يجعلنا نبحث عن الطبقة البطانية من القلب وهل أصابها ارتشاح أم لا. وفيما عدا هذا فليس هناك ما تشكو منه السيدة سوى أنها تظن أن هذه الضربات قد تكون نتيجة لحالة الضيق التي اعترت أحد شرايينها التاجية من قبل واستدعت توسيعه بالبالون - وقد أودعت في ملفها صور شرايينها قبل

التوسيع وبعده بما ينبىء أن عملية التوسيع بالبالون قد نجحت. ويضم ملف هذه السيدة ما لا يقل عن مائتى صفحة. وليس فى تحليلاتها الحديثة إلا زيادة فى نسبة Alkaline Phosphatase وهى زيادة يمكن التعويل عليها فى ترجيح احتمال وجود إصابة ورمية ما.

وبعد فحص إكلينكى كامل يضع الطبيب قراره أمام مريضته:

□ لا بد من إجراء أشعة مقطعية على الصدر. ولا بد من إجراء تحليل الدرن. ويقوم الطبيب بنفسه إلى سكرتارية العيادة الخارجية للتوصية على تنسيق هذه المواعيد فى الغد، ثم يعود إلى مريضته بالمواعيد بعد أن تحددت !!

□ لا بد من إجراء تحليل للغدة الدرقية رغم أن الفحص الإكلينكى قد أظهر سلامتها ولكن لا بأس من الاطمئنان..

□ فيما يتعلق بعملية التوسيع وتقييم مدى نجاحها لا بد من إجراء اختبار رسم قلب بالمجهود بعد الفراغ من التحليلات السابقة.. وفى الوقت ذاته لا بد من فحص القلب بالموجات فوق الصوتية!!

□ لا بد من أن يتولى طبيب صدر فحص الصدر وأشعته ونتائج الأشعة المقطعية.

□ لا بد من إيقاف التدخين، ولا بد من فحص الثدي كل عامين، ومن المرور على طبيب أمراض النساء والولادة كل عامين.

□ هذا هو «الديجوكسين»، وهذه هى جرعته!

□

الحالة الثانية رجل قارب الثمانين تصحبه زوجته، يفاجئة ظلام أمام عينيه

Syncope حيناً بعد حين. له آراؤه الذاتية فى الطب والأدوية .. الطبيب يحترم آراءه من دون أن يسلم بصحتها، والمريض معتر بآرائه .. والطبيب يكرر احترامها ثم يلفت نظره إلى أنها لاتعدو أن تكون آراء شخصية. وسوف نجرى لك ياسيدى الفحوص الكفيلة بأن تكتشف سبب هذا الذى يحدث لك، وإذا استدعى الأمر علاجاً فى المستشفى كمريض داخلى فسوف نخبرك، ولك وحدك مسئولية اتخاذ القرار... قد تحتاج إجراء دراسات كهروفسولوجية قد تقتضى أسبوعين من البقاء فى المستشفى، ونحن نعرف أنك لا تريد ذلك ولكننا سنرى فى الغد فى معمل القثطرة ما هو القرار الأمثل لحالتك..

وهذا المريض لا يقل إرهاباً لطبيبه عن أى مريض من مرضى الشرقية الذين يقتلون الدكتور لطفى شهوان كل ظهيرة وكل مساء.. والصعوبة فى هؤلاء المرضى ياسيدى القارىء، وأرجو ألا تكون منهم، أنهم يريدونك أن تؤمن بما يقولون من تفسيرات، لأنهم يريدونك تؤمن على ما يروون من أعراض! وشتان بين الحاليين! ثم إنك إذا جارىتهم من باب أدب الاستماع إلى محدثك للنهاية أصبحت فى نظرهم لا مجرد مؤمن فحسب على كلامهم، ولا مجرد مؤمن بكلامهم، وإنما أصبحت، بحكم هذا الإيمان الظاهرى الذى يتوهمونه قد أصابك، واحداً من الأتباع الذين عليهم طاعة من يؤمنون به!!

ربما كان من الصعب عليك يا سيدى القارىء أن تتصور أن هذا يحدث، ولكن الأطباء الممارسين يعرفون أن الذى يحدث ليس إلا الصورة المكبرة من هذا التصوير اللطيف الذى يكتبه واحد منهم فى ساعة صفاء وتأمل ورضاء نفسى.

لا بد من الوقوف واستئذان هذا المريض وزوجته .. والطبيب يقف ولكنى غير

قادر لأنى أعرف أن مثل هذا المريض سيوقف الطبيب بعد كل هذا مرة أخرى وأنا لست غير قادر على الرقوف أثناء هذا الاستيقاف ولن أنهض من كرسى حتى يفتح الطبيب باب الحجرة بيده اليسرى ويمد قدمه اليمنى إلى خارجها.. وأقول لك: إننى كنت على حق لأن مد يد الطبيب اليسرى إلى الباب لم يحدث إلا بعد عشر دقائق ومد قدمه اليمنى إلى خارج الحجرة لم يحدث إلا بعد عشر دقائق أخرى.. وكانت الدقائق العشرون بالطبع كافية لإصابتي أنا الصائم المعانى من آثار التخدير فى الضحى بإغماء حقيقى لا مجرد هذا الذى يشكو منه مريضنا فى بعض أحيان متفرقة.



المريض الثالث رجل وسيم ضخم البنية، يقدمنى إليه الطبيب فإذا به يعرفنى تماماً، ويقول لنا إنه رأى من قبل حين كان بأعلى Up stairs نعم أنا أعرف وجه هذا الرجل، وقد تذكرته من أول نظرة، ولكنى أحسبه أحد الذين حضرت قنطرتهم.. والقنطرة تجرى فى نفس الدور أى الدور الثانى.. كيف يقول هذا الرجل بأعلى،؟ أهو لا يعرف الأدوار!! ولكنى سرعان ما انتبه إلى الرجل وهو يسألنى: كم يتبقى من رمضان ياسيدى!! ياالله!! الرجل يعرف أننا فى رمضان وأنتى صائم فى رمضان.. هذا لا يتاح لمريض القنطرة الذى ندخله وندخل إليه على عجل بعيداً عن كل طعام وشراب.. الآن فقط: تذكرت.. هذا المريض زرنه بعد عملية توسيع الشرايين وكان فى الدور السابع.. أصاب المريض، وأخطأ الطبيب الذى يحسن الناس فى كل مكان الظن بذاكرته الحديدية.. بينما هى قد علاها الصدا، وعلاها الصدا تعبير متفائل بديل عن التعبير الأكثر صواباً وهو أنهكها الصداً كما ينهك الحديد.. وليت ذاكرتى كانت خشبية فقط!!

يتعاطى هذا المريض ما لا يقل عن اثني عشر دواء، ومن واجبتنا اليوم الخميس أن نعيد تنظيم هذه الأدوية له قبل خروجه بيومين فمن المقرر أن يخرج السبت ولا بد من أن نطلع على آثار سياستنا الدوائية في خلال الساعات الثماني والأربعين القادمة قبل أن يخرج ويسافر ويشكو بالتليفون!!

هذا الرجل تصحبه زوجته وهي سيدة ممتازة، لا تزال رغم سنواتها السبعين محتفظة بروح التلميذة المجتهدة، معها بطاقات صغيرة بتفصيلات كل شيء، بالأمس صباحاً في الثامنة صباحاً أكل زوجها كذا وكذا، وبعدها بسبع دقائق تقريباً قاء، كذا وكذا، وبعدها بساعتين تناول مشروباً وفي الثانية عشر دقائق اشتكى من كذا.. ثم إنه فقد حوالي كيلو جرام من وزنه! كان مائتي رطل وأصبح ١٩٨، ولا تنس ياسيدى أنه حين دخل المستشفى كان وزنه ٢١١ رطلاً.

وكل دواء وكل جرعة مسجلة في هذه البطاقات الصغيرة التي تحملها هذه السيدة الدقيقة في جيب معطفها ومعها قلمها، وهي تستمع إلى كل ملاحظة يبيدها الطبيب وتسجلها من فورها في الموضع المناسب من هذه البطاقات، وزوجها هو الآخر رجل دقيق، يعطيك نقاشه الإيحاء بأنه من الذين يجيدون معاملتك على أنك برىء حتى تثبت إدانتك مع إيمانه التام بأنك متهم حتى تثبت براءتك! وأنتهز فرصة انشغال الطبيب الأكبر في الرد على تليفون لأسأل السيدة عن مهنة زوجها.. كان ياسيدى قبل تقاعده يعمل في شركة تأمين، كان يتولى فحص قضايا التعويضات كلها.. صدق رسول الله: «اتقوا فراسة المؤمن،!».

ها نحن ننتهي مع السيدة إلى اتخاذ بعض قرارات فيما يخص هذا المريض أو هذا الزوج فنطلب إليها إيقاف حبوب البوتاسيوم نهائياً، والإمساك عن مجموعة أدوية المعدة والأمعاء والكولشسين الخاص بالنقرس حتى تهدأ المعدة من تهيجها،

ثم ها نحن نعيد تنظيم جرعات الكابوتين والكوردارون والديجتالز واللازكس ...
ونحن نفعل كل هذا قبل أن نقوم إلى حجرة الكشف.

في حجرة الكشف يكتشف الطبيب أن جرحاً في الساق لم يلتئم من القصد الأول.. فيذهب بنفسه إلى السكرتارية ليستدعوا أحداً من الجراحة .. لا بد من أخذ مسحة من الجرح لإجراء «زرعة» - ويأتي رئيس التمريض الجراحى، ويتولى تنظيف الجرح وربطه - وها نحن نضيف مضاداً حيوياً جديداً جداً هو الأوجمنتين ولا بد من كتابة روشتة للسيدة بالأدوية التى ستحتاج إليها طيلة شهر كامل وباعداد (أقراصها أو كبسولاتها) على وجه التحديد - تسعون قرصاً من هذا، وأربع وعشرون من ذلك، وثلاثون من ذلك، وهكذا وليس هناك شىء بالتقريب فى هذا البلد، فالتحديد قد يكلفهم شيئاً من وقتهم عند التخطيط، ولكنه يوفر لهم أضعاف ما ينفقون فيه.

بعد كل هذا يتلطف الطبيب فى إخبار الزوجة بأنه سيكون سعيداً لو طلبه طبيب الولاية التى يقيمون فيها تليفونياً، وسأله عن كل شىء أو عن أى شىء فإن «ملخص الخروج، لا يغنى شيئاً عن حديث التليفون!! مع أن هذا الذى يسمونه «ملخص الخروج، يتكون من ست صفحات مكتوبة على خير ما تكون الكتابة على الآلة الكاتبة وفيها كل شىء.. ولكنه معنى آخر من معانى الإنسانية! والسيدة تعقب وتحكى لى أنهم كانوا فى زيارة ابنتهم قرب «بوسطن، وكانوا يظنون أنفسهم يعودون إلى ولايتهم فلوريدا بعد أسبوع، وهامهم لا يعودون إلا بعد ستة أسابيع!!



أظنى ياسيدى القارىء قد أطلت عليك فيما لا أظنك مغرماً به من هذا الذى نراه كل ساعة أو فى كل ساعاتنا.. لا عليك ولا على من هذا التعذيب.

تريدنى ياسيدى أن أنتقل بك من حجرات الكشف الباطنى إلى معامل القثطرة
وعندك حق.. لك الحق فى أن تمل عملنا الإكلينيكى وأن تمل القراءة عنه فى
كتاب رحلات.. ولكنى لا أظن أن لى الحق فى أن أتجاهله وأنا أحكى لك.. هل
كان فى وسع المتنبى أن يسكت عن الشعب وما فيه؟ نعم أن الشعب لشيء جميل..
ولكن أجمل منه الحضارة التى نعيشها اليوم.

وأنا أعرف أن مهمتى فى كتابة رحلاتى شاقة عسيرة لأنى لا أصف الطبيعة
كما فعل الذين سبقونى.. ولكنى أحاول أن أصف الحضارة، ووصف الطبيعة
لايستلزم إلا الحاسة الصادقة.. أما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه أقدارا متنامية
من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من
جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة، أن تكون جندياً قارب نيل الشهادة
وأثخنه الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما
استمتع بها.

فلنأخذ يوماً من الأيام التى سعدتُ فيها بالعمل فى معمل القثطرة مع الدكتورين
جريجبرا، وفكس وهذه هى أسماؤهم الأخيرة أما أسماؤهم الأولى التى نتنادى بها
فهى فرناندو، وجيمس. بدأنا بحالة مريض بالشريان التاجى.. نحاول أن نوسعها
بالبالون. لم تفلح محاولة البالون.. كان فرناندو جاهزاً بالآلة الجديدة التى تقطع أو
تمزق أو تفتت هذا التصلب الموجود على بطانة الشرايين.. وها هو يفعل، ويذيب
هذه التصلبات التى فى الجذع الرئيسى للشريان التاجى الأيسر، وفى الفرع
الدائرى.

الحالة الثانية ألم فى الصدر غير معروف السبب، وهو محول إلى هذا الصرح

لنرى موقف شرايينه التاجية .. بدأ فيكس فركب القثطرة وأتم كل التحضيرات،
وحين جاء فرناندو وصورنا المناظر الروتينية كلها اتضح أن شرايين الرجل كلها لا
تعانى من أية ضيق .. سجلنا كل هذا وأجرينا بالطبع ما لا بد من إجرائه فى كل
حالة وهو تصوير البطن الأيسر بالصبغة بينما كنا ننادى على المريض الثالث.

أما المريض الثالث فقد أتاه احتشاء قلبى منذ أسابيع ثلاثة، واتضح أن سببه
خثرة thrombosis اذبيت فى وقتها. وهو الآن محول إلى القثطرة قبل أن تجرى له
جراحه الـ By pass، يفحصه الدكتور جريجيرا فيجد الشرايين كلها مفتوحة، ولكن
الجذع الرئيسى للشريان الأيسر فيه ضيق لا يتعدى الخمسين فى المائة! ولكن
الضيق واضح ومع هذا تملىء الشرايين وتفرغ مافيها تماماً.. صحيح أن القلب لا
يزال متأثراً بالندبة التى تكونت نتيجة الاحتشاء ولكن الإمداد الدموى سليم..

هل تجرى لهذا المريض جراحة قد تكلفه حياته وهو الذى لا يعانى من شيء
الآن! أم نتركه معرضاً لخثرة أخرى قد تكون كفيلة بالقضاء على حياته - وهو فى
الخامسة والأربعين؟ هذا هو السؤال الذى أخذنا نحاول الإجابة عليه لمدة ساعتين..
بعد أن جاء الدكتور تايلور الجراح المحول إليه المريض.. وبعد أن اشترك معنا فى
الحديث طبيب القلب الدكتور كايسر.. كنا أربعة نتحدث بينما جيمس صامت.. فلما
قاربنا على الافتراق صمم الجراح الكبير على أن يسأل جيمس ما رأيك؟ وهو يعرف
أن جيمس لن يقول شيئاً لأنه لو أراد لقال منذ مرحلة مبكرة ولكن الأستاذ حريص
على أن يرضى ضميره الذى تعود على سماع كل وجهات النظر.

□

أما معامل الصدى القلبى (الموجات فوق الصوتية) فتتضم ١٦ جهازاً وهى

بالتالى قدرة على أن تؤدى ٨٠ - ١٠٠ حالة فى اليوم - ولكنها فى المتوسط تجرى ٢٥ حالة فى اليوم لأنها تعمل كل يوم ولا تكف عن العمل وليس هناك طابور انتظار طويل يقف على الورق فيقف كل من فيه .

وفى وسع الأمريكان أن يستمعوا إلى الرأى القائل بأنه لا ينبغى لهم أن يشتروا جهازاً جديداً ولا أن يضيفوا إلى الأجهزة الجديدة جهازاً آخر ما دامت الأجهزة الموجودة من قبل لم تستنفد طاقتها ٢٤ ساعة .. كما ينادى بعض البيروقراطيين المصريين الذين يرتدون مسوح الثورية الشديدة فى الوقوف أمام كل توسع فى الامكانيات الموجودة فى مواقع الإنتاج . ولكن هؤلاء الأمريكين قوم تعلموا منذ زمن حكمة الخالق جل علاه الذى جعل لكل عضو من أعضاء الجسم احتياطياً كبيراً بحيث لا يحس الجسم أى أثر طارئ يعترى أى عضو من هذه الأعضاء .

فنيو الموجات فوق الصوتية والمرضات المتدربات على درجة رفيعة هم الذين يقومون هنا بالفحص الصدوى، ولكن الأطباء وقد خلت أيديهم من المسابر (المجسات) يقفون على رؤوس هؤلاء فى كل حين يراقبون، ويصححون، ويتدخلون، ويعيدون منظراً أو صورة، ويتأكدون من قياس أو نتيجة، وينظرون جلطة أو كتلة أو أنوريزما ويتتبعون مسار حلقة عضلية أو جهازاً من أجهزة تدعيم الصمام المترالى .. وهكذا .

وكل هؤلاء عندهم فكرة أننى قادم اليوم وأن «كيف» ينتظرنى ولكنه مشغول مع حالة من الحالات فى حجرة قريبة، ويتكرر أمامى اسم «كيف» هذا، وفى النهاية إذا به الدكتور عاكف أبو الرميلى من الضفة الغربية، وفيما بعد أسبوعين وجدت ممرضات الأدوار العليا يختصرون اسمه بطريقة أخرى فيسمونه الدكتور «أبو»

لأنهم لا يعرفون كيف ينطقون «الرميلة»، والدكتور عاكف طبيب فلسطيني متميز. وقد سبقه إلى هذه المعامل طبيب فلسطيني آخر كان واحداً من فلسطينيين عديدين هياً لهم الدكتور جبران الفرصة للعمل في المستشفى من خلال هيئة فلسطينية محترمة مقرها في سويسرا تتولى تمويل تعليم هؤلاء إلى الحد الممتاز الذي يجعلهم بمثابة مراجع عليا في الضفة الغربية المحتلة. وهذه الهيئة الممتازة لا تكتفى بتعليم هؤلاء وإنما تزودهم فور تخرجهم بالأجهزة التي يعملون عليها - ويحرصون في هذه الهيئة على أن يكون أداؤهم فعالاً ومتميزاً، ومن ثم فإنهم في اختيار هذه الأجهزة يحرصون على أن تكون أحدث وأعظم الأجهزة المتاحة - وفي مدينة القدس الآن واحد من أحدث أجهزة الموجات فوق الصوتية يتولى تشغيله طبيب فلسطيني نابغ تلقى تدريبه هنا في كليفيالاند.

ويبدو أن المجتمع الدولي قد بدأ ينظر نظرة مختلفة إلى عرب الضفة الغربية وغزة، فهذا مكتب الإמידايست يبتعث بعض الممرضات من الضفة الغربية إلى مستشفى كليفيالاند، والضوء الأخضر في الوظائف الأمريكية مضاء تماماً اليوم أمام الفلسطينيين، والله تعالى أسأل أن يفك كربهم جميعاً.



أحب الآن أن أتناول الحديث عن زملائي في الرعاية المركزة فقد يعطيك هذا صورة حية عن الأطباء الأمريكيين الشبان.

هناك هيكل واضح في الرعاية كما في كل مكان حريص على الإنجاز.

□ هناك ثلاثة نواب يقضون فترة نيابتهم.

□ وهناك ثلاثة زملاء في عامهم الأول من الزمالة .

□ وهناك اثنان من الزملاء في أعوامهم المتقدمة من الزمالة .

أما النواب الثلاثة فهم مور More وهو شخص ضخم البنية، حسن الخلق وحسن الخلق أيضاً عمل نائباً للعظام في بداية نيابته، ولكنه سرعان ما تحول إلى الأمراض الباطنة، وهو جيد الاستماع جيد الفهم .

جاستون شتيرن Stern تخرج تبعاً للنظام الذي يعطى شهادة D.O وهو «دودة كتب، كما يقولون، ولكنه لطيف ومتواضع رغم كل ما قد يبدي من غرور، إذا قدم حالة وكثيراً ما يفعل فإنه يفيض في تفاصيل لا أول لها ولا آخر، ولكن ميزته الكبرى - كطبيب - أنه حريص على تفسير كل شيء في ضوء ما يعرف، وحين لا يعرف - وقليلاً ما يحدث هذا - تراه ينتقد نفسه إلى حد أنه ذات مرة بدأ حديثه عن الحالة (وكانت حالة لاعتلال عضلة القلب من النوع المتمدد) بالقول بأنه لا بد أن يرميه الأستاذ من الشباك!! هكذا قال .. وقد أردف بالسبب: لأنه لم يحقق نجاحاً في العلاج .

النائب الثالث هو نبيلة رحمة الله وهي باكستانية، وقد ابتدرتني في أول أيامنا بالقول: أنت صائم ومن المفترض أنني كذلك، ولكنني كما ترى لا أستطيع الصوم في ظل هذا العمل، وإلا كانت حماقة! ونبيلة ملمة تماماً بكل المنهج كما نقول في وصف بعضنا، وعندها فكرة واضحة عن كل فصول كتاب «القلب» وربما ساعدها على ذلك أنها تحمل في جيب معطفها الأبيض مذكرات ملخصة للأجزاء التي لم تستوعبها بعد من موضوعات القلب .

وقد أتيت لي ذات يوم أن أطلع على نسخة كتابها الخاص «سيسيل لوب» في

الأمراض الباطنة، فأدركت كم عانت هذه الفتاة في «بيل دراستها للطب. ولا بد أن أسجل أن «نبيلة، التي كانت أصغر من ميشيل ومن جاستون لم تكن تقل عنهما أبداً لا في مستواها العلمي، ولا في المستوى المهني.



يساعد هؤلاء النواب الصغار أو يشرف عليهم ثلاثة آخرون من الزملاء الذين أنهموا لتوهم فترة النيابة.

ريتشارد جريم نموذج بارز للوسامة الأمريكية حيث تجد شعره قد نسق بالليل، وكل ليل، بحيث يعطى في الصباح ذلك المنظر الجميل لخصلة تأتي من الشمال إلى اليمين تتقدم الرأس بخمسة سنتيمترات على الأقل، ووجهه الأبيض وعيونه الزرقاء يعطيان لهذا الشعر الأصفر بعدين آخرين، ثم إنه هادىء الأعصاب، خفيض الصوت، وهو النموذج الأمثل في نطقه الأمريكى للغة الإنجليزية (على طريقة الفرنسيين) بما يحذف من ثلاثة أرباع الكلمة.

واعتقد أنك تعرف أن الأمريكان يختصرون كل ما يمكنهم اختصاره ويحولون الكلمات إلى حروف ورموز وهذا «ريتشارد، هو الآخر بدوره يختصر كل الكلمات إلى حرفيها الأولين، وحين يفعل ذلك في براءة يبدو لك كما لو أنه لن يستطيع أن يكمل نطق الكلمة، وإلا ذهبت روحه ضحية لاستكمالها على النحو الصحيح.

يقضى ريتشارد عامه الأول في زمالة القلب ولهذا يضغط عليه الأطباء الكبار بالأسئلة العلمية وينتظرون منه دوماً أن يجيب بمجرد البدء في السؤال، وكثيراً ما يكون عند حسن ظنهم.

فيليب جرين Green نموذج آخر للهدوء النفسى، والتواضع، والإمام التام بعمله

وبعمل غيره. لا تكاد تدرك أبداً أنه من الفئة المتوسطة بين النواب، وإنما يعتريك الشعور دائماً أنه من أحدثهم، نظراً لتواضعه، واندماجه التام في عملهم. بل إنه كثيراً ما يتولى قراءة «الشيت» بدلاً منهم. وعلى قدر تعاطفه التام مع زملائه اللاحقين فإنه حريص على أن ينبه كلاً منهم إلى أية ملاحظة ذات شأن إكلينيكي تفوتهم أثناء النقاش، وهو حين ينبه إلى ذلك خفيض الصوت، حياً، ولكنه قاطع باليقين.

الزميل الثالث Holden كان في أجازة حين بدأت العمل في الرعاية المركزة، وحين عاد من أجازته كنت قد انتقلت إلى معمل القثطرة فلم أتعامل معه كثيراً، ولكنه فيما اتضح من حديثنا المتكرر ولقاءاتنا العابرة شخص نبيه منتبه، سليم الفطرة.



إذا انتهينا من هؤلاء الستة بقى لنا الزميلان الكبيران.

أما كلفن فهو من أصل أيرلندي وهو في التاسعة والثلاثين من عمره وقد وصل في الطب إلى مرحلة الـ Staff ولكن في فرع آخر هو طب الطوارئ حيث قضى ٦ سنوات في طب الطوارئ بالطيران وغيره، واكتسب خبرة كبيرة في هذا المجال، وكان قد قضى ٣ سنوات نيابة في الأمراض الباطنة. ثم إذا هو بعد كل ما وصل إليه يبدأ الزمالة من جديد في أمراض القلب.

ربما كان محظوظاً أن النظام الطبي سمح له بمثل هذا التغيير بعد كل هذا الوقت، وربما كان ملاماً من زملائه أن يبدأ من جديد. ولكنه على أي الأحوال سعيد بهذا الذي هو فيه.

كلفن هذا هو المسئول عن مساعدتى طيلة وجودى فى الرعاية المركزة وهو لا يدخر وسعاً فى ذلك. له الفضل فى تعريفى على مهل بكل تفصيلات نظام التعليم الطبى فى أمريكا، وقد كان يستمع إلى كل اسئلتى واستفساراتى بروح سمحة، وكانت عنده بحكم خبرته فى أكثر من تخصص وفى أكثر من مكان قدرة على أن يستوعب اسئلتى وأن يجيب عليها، وله الفضل فى تعريفى - التعريف العميق - بكثير من العاملين فى قسم القلب ومعامله، وبكل الذين فى الرعاية المركزة بالطبع. وعنده قدرة ممتازة، ربما بحكم السن وربما بحكم الخبرة فى تخصصين مختلفين، على منطقة الحوار - أقصد أن يجعل للحوار رؤساً وعناوين كبيرة بدلاً من أن يتركه يمضى خبط عشواء.

ذات يوم بعد ما تعبنا من الوقوف طيلة ساعتين ونصف الساعة فى مرور الرعاية المركزة قلت له ولزميله مارك: لماذا تمررون وقوفاً - لماذا لا تمررون جلوساً؟ قالوا: لو كان الأمر بيدنا لمررنا جلوساً، وبعد أقل من ٢٤ ساعة كان الأمر بيدنا نحن الثلاثة فقد أرسل إلينا الدكتور جبران لنبدأ المرور: نظرنا إلى بعضنا ودعونا الزملاء والنواب إلى حجرة المؤتمرات ومررنا ونحن جلوس!!

كلفن متزوج من زميلة تحمل درجة Ph.D. فى العلوم، وتعمل معنا فى معمل الفسيولوجيا الكهربائية (EP) فى قسم القلب ولهما ثلاثة أولاد صغار لهم أسماء أيرلندية جميلة - بارك الله لهما فيهم.

الزميل الثانى وهو مارك رجل طيب يبلغ من العمر ثلاثين عاماً قضى نيابته فى نيوجرسى حيث عاش لفترة طويلة من حياته - وحين تقدم لزمانة القلب كانت رغبته الأولى مايو كلينك، وكانت الثانية مباشرة كليفلاند - تحققت له رغبته

الثانية - وسط عدد كبير من المتقدمين لزمالة القلب كل عام في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومارك رجل عملي إلى أبعد الحدود، حين أسأله عن شيء فإنه كان يؤثر أن يمضى معى إلى موضعه بدلاً من إضاعة الوقت فى الوصف الصعب فى مستعمرة كبيرة.

آراؤه فى الكتب الطبية قريبة جداً من رأى إلى حد كبير.

من العجيب أننا كنا نحن الثلاثة متوافقين تماماً فى صياغة كثير من آرائنا فى أثناء المرور. تجمعى بالزميل الأحداث موضوعية الرأى عن خبرة تكاد تكون متقاربة، وتجمعى بالزميل الأقدم منطقية التفكير وتحكمها فى تصريف الأمور.

ومع هذين الزميلين، ومع أمثالهما فى معامل القنطرة والموجات فوق الصوتية والطب النووى من بعد ذلك، أحسست أنى حيث ينبغى أن أكون منذ زمن طويل - لم أحس الغربية لا فى الفكر ولا فى الأداء.. كلاهما وغيرهما جدير بالاحترام، وباعث على الاحترام، وحريص على الاحترام.



أريد أن أخص لك نظام التعليم الطبى فى ولاية أوهايو كنموذج لولايات أمريكا - لأنى أعرف أنك تعرف أن لكل ولاية نظاماً، ولا بد عند الكلام عن أمريكا الواسعة من التحفظ ياسيدى بأن تذكر أنك تتكلم عن ولاية، وليس عن كل الولايات - ومع هذا فإن هذه الصورة سوف تعطيك على كل حال فكرة عامة عن نظام التعليم الطبى فى أمريكا.

هناك بعد الثانوية العامة كليات - هذه الكليات اسمها College يدرس فيها الطالب لمدة ٤ سنوات - بعدها ينتقل إلى مدارس الطب Medical School يدرس فيها الطالب ٤ سنوات أخرى. إذاً فإن الـ College التي تناظر كليات الجامعة عندنا في مرحلة البكالوريوس يتخرج فيها الطالب بما يوازي البكالوريوس - ويكون مهيباً لأن يعمل مثلاً بالتدريس، أو أن يعمل كباحث، أو أن يحضر الماجستير أو أن يحضر الدكتوراه في فلسفة العلوم التي هي Ph.D. وطبعاً قبل كل هذا يتمنى أكثر خريجي هذه الكليات أن يكونوا مهنيين لأن يكملوا دراستهم الطبية في المدارس الطبية، ولكنهم بالطبع وطبقاً للنظام التعليمي ليسوا كلهم مؤهلين لدراسة الطب في مدارس التي هي medical school .

وفي ولاية أهايو على سبيل المثال أكثر من ٢٠ كلية - يتخرج فيها ما يزيد على ثلاثة آلاف، ومن بين هؤلاء تتاح الفرصة لأعداد قليلة في ست مدارس طبية هي على سبيل الحصر على النحو التالي:

□ المدرسة الطبية في جامعة أهايو الحكومية في كولومبوس، وتقبل ما لا يزيد عن ٢٠٠ طالب في العام الدراسي.

□ المدرسة الطبية في جامعة كيس ويسترن ريزرف في كليفلاند، وتقبل حوالي ١٠٠ طالب.

□ الكلية الطبية في جامعة سنسناتي Cincinnati، وتقبل حوالي ١٠٠ طالب.

□ كلية أهايو الطبية في توليدو، وتقبل حوالي ٥٠ طالباً.

□ المدرسة الطبية في جامعة رايت الحكومية في دايتون Dayton، وتقبل حوالي ٩٠ طالباً.

□ كلية أوهايو الطبية في أثينا - أوهايو، وتقبل حوالي ٢٠ طالباً.

وهذه الكلية بالذات تسير حسب نظام أقل شيوعاً في أمريكا، وهي تمنح من خلال هذا النظام شهادة D.O. إختصاراً لما يسمى (Doctor of Osteopathic) وهذه الشهادة في النظام التعليمي الأمريكي معادلة تماماً لشهادة M.D.

وبالإضافة إلى هذه المدارس توجد الكليات الطبية الآتية:-

١- كلية أوهايو الطبية في سنسنتي.

٢- كلية الطب Eclectic في سنسنتي.

٣- كلية ميامي الطبية في سنسنتي.

٤- القسم الطبي في جامعة ووتر - كليفلاند.

٥- كلية توليدو الطبية في توليدو.

٦- كلية كليفلاند الطبية في كليفلاند.

٧- كلية كليفلاند puti في كليفلاند.

٨- جامعة أوهايو الحكومية - كلية الطب Homeopathic في كليفلاند.

٩- جامعة شمال شرق أوهايو - كلية الطب في روستون.

ويتخرج في المدارس الطبية الست التي ذكرناها عدد لا بأس به من الدكاترة يحملون لقب M.D. فيكون أمامهم طريق مفتوح على النحو التالي:

يبدأون سنة الامتياز Internship تليها سنوات النيابة Residency (التي تؤهلهم لشهادة البورد الأمريكية في التخصصات العامة) تليها سنوات الزمالة Fellowship (التي تؤهلهم لشهادة البورد الأمريكي في التخصصات الخاصة كالقلب).

فإذا أردت التخصص فى الأمراض الباطنة، فإنك سوف تبدأ بعام الامتياز فى الباطنة - فهو بمثابة عامك الأول من النيابة وتكون محتاجاً بعده إلى عامين آخرين فقط لتكون قد قضيت فترة النيابة.

الميزة الكبرى هنا - التى أحلم بأن أجد سبيلاً إلى تطبيقها فى مصر أن كل الخريجين يقضون فترة نيابة حسب ما يرغبون من تخصصات، بل وفى المكان الذى يرغبونه بقدر الإمكان (تبعاً لترتيب رغباتهم، كثيراً ما تكون الرغبة الأولى هى الأولى بالتحقيق).

ولكن المأساة التى أصرخ منها فى مصر هى مأساة الفرص غير المتكافئة.

فعلى حين يلقى الطبيب المقيم الذى نال وظيفة فى الجامعة حظاً ممتازاً فى تعليم ممتاز وفرص ممتازة فإنه أيضاً يحظى ببدء النيابة مباشرة. أما الباقون فإنهم غالباً ما ينتظرون ما لا يقل أحياناً عن ٣ سنوات لبدء النيابة. ربما لا يكون الفرق بين الواحد منا من المحظوظين وبين الآخرين إلا درجات قليلة. ومع هذا يكون الفرق حوالى ثلاث سنوات فى بدء الخبرة الاكلينيكية التعليمية. والمشكلة ليست فى السنوات الثلاث وإنما فى تباعد الفترة بين الدراسة العلمية [بجانبها النظرى - العملى والاكليينكى] وبين التطبيق الميدانى والاعتماد على النفس.

الميزة الثانية التى أحب أن أتحدث عنها هى أنهم لا يبدأون نيابات فى الباطنة الخاصة والجراحة الخاصة كما حدث وتوسعنا فى هذا الاتجاه فى جامعات مصر.

الله وحده يعلم أيهما الصواب أن نبدأ بالتخصصات الدقيقة فى مرحلة النيابة أم أن نؤجلها إلى مرحلة الزمالة.

على أية حال أحب أن أضع أمامك صورة لتوجهات خريجي إحدى هذه المدارس الطبية الست في صياغة مستقبلهم العملى.

المدرسة هى مدرسة رايت المسماة على اسم الأخوين أصحاب محاولة الطيران المشهورة. يتخرج فى هذه المدرسة هذا العام ٨٤ سيتوزعون تبعاً لرغباتهم على النحو التالى:

٢٤ فى الأمراض الباطنة العامة،

٨ فى طب الأطفال،

٩ فى النساء والتوليد،

٩ الجراحة،

٤ فى الأشعة،

٢ فى التخدير،

١٩ فى طب العائلة.

و٥٢ (٦٢%) من الخريجين بنات، ومن هؤلاء قضت إحداهن أسبوعين معنا فى قسم القلب وكانت تخطط لأن تقضى فترة نيابتها فى الأمراض الباطنة فى مستشفى صغير اسمه مستشفى St. Lukes Hospital وهى تفضل العمل فى هذا المستشفى الصغير على العمل فى كليفلاند لأنها أثناء دراستها درست فى الإثنين وجدت [وهى على صواب] أن العمل فى سان لويس سيكون أكثر فائدة وإمتاعاً لها لأنها ستشاهد حالات كثيرة من الأمراض الشائعة والموجودة فى كل مكان، أما فى كليفلاند فهى لن ترى إلا الحالات التى تقدم بها المرض واحتاجت القدوم إلى

هذا الصرح العظيم.. أليس هذا التفكير لشابة في مقتبل عمرها دليلاً على بشائر النجاح العملى والمهنى. وتضيف كيه (وهذا هو اسمها وهو اسم جاميكي ينطق كحرف الكيه الإنجليزى تماماً) إن كليفلاند كلينك ليس فيها النظام الجميل المريح الذى فى ذلك المستشفى الذى عرفت الناس فيه ودرست أحوالهم جميعاً.

بقى أن أطلعك على جانب مهم من حياة خريجي الطب وطلابه، فكيه هذه متزوجة منذ أربع سنوات مع تأجيل الإنجاب.. فى عاميها الأول والثانى فى المدرسة الطبية درست التشريح والبيولوجى والفسىولوجى والباثولوجى والفارماكولوجى والميكروبيولوجى والوراثة. وفى عامها الثالث أثرت الجراحة والنساء والأطفال وطب العائلة والنفسية. وفى عامها الرابع درست الباطنة والطوارئ والأشعة والتخدير والقلب والأعصاب والعظام.



أحب أن أحدثك بعد هذا عن طالب الطب الأمريكى.

لطالب الطب هنا احترام شديد.. أمامى بالصدفة على مكتب قاعة الاجتماعات خطاب من مؤسسة كليفلاند كلينك التعليمية لطالب فى السنة الرابعة أنه قد رُشح طالباً فى قسم القلب لمدة شهرين، وأن له إذا وافق على ذلك أن يحضر صباح يوم الاثنين، إلى مبنى التعليم، فيتسلم الكارنيه الأصفر الخاص به، وهو كارنيه بالاسم بلا صورة، وأن يتسلم معطفين، وله أن يترك سيارته فى الأماكن التالية... وأن يحضر يومياً من السابعة والنصف وحتى الخامسة من الاثنين وحتى الجمعة، وأن الطبيب (فلاناً) سيكون هو المسئول عن تعليمه، وأن السكرتيرة (فلانة) هى المسئولة عن الأمور الإدارية التى قد تعرض له.

هذه كما ترى حقوق الطالب ويمكنك أن تتصور مدى ما يمكن أن يفيد منه وكيف يمكن له أن يتكون علميا ومهنيا على نحو ممتاز.

ولابد من أن أصور لك انطباعاتي عن هؤلاء الطلاب على نحو ما خبرتها:

تحضر المؤتمر من مؤتمرات الأقسام فتجد هؤلاء الطلاب (بنين وبنات) هم أكثرنا جميعاً أناقة وشياكة.. فشعورهم خرجت لتوها من الصالونات، وربطات عنقهم هي الأحدث، والأجمل، وهي المودة، وقمصانهم هي الأملع والأكثر جاذبية.. وهكذا.

أصدقك القول أنني بعد حين من الوقت أصبحت قادراً على تمييز الطلاب حين نكون في قاعة المؤتمرات وهي مظلمة نشاهد شرائح أو أفلاماً بمجرد أن أنظر إلى رءوسهم وأعناقهم وقبل أن أصل إلى صدورهم حيث يضعون الكارنيهات الصفراء.

ومعنا في قسم القلب طالب نشيط هو تيم، في السادسة والعشرين، وعروسه في الثامنة والعشرين، وهو يقيم هنا في كليفييلاند وهي تقيم في كنت - حيث يقيم والداه، وصاحبنا لا يغادر المستشفى قبل أن يطمئن على كل مرضاه، ويبلغ النائب والمرضات بملاحظاته عن أية اضطرابات في نظام القلب، وروح المسئولية عنده في الحقيقة تبشر بكل خير لهذا الشعب الأمريكي الذي يعتقد العالم في تهاونه أو عبثه أو إهماله!!، وفي كل أسبوع يذهب هذا الطالب إلى كنت مرة واحدة ليرى خطيبته: لأن السيدات اخترعن لك مشكلات كثيرة ياسيدي إذا غبت عنهن لفترة

ما،!!

هكذا يقول لي.

هذه هي «الكليتك» التي ليست تابعة لكلية من كليات الطب، ومع هذا أبت على

نفسها إلا أن تنشئ مؤسسة تعليمية لنفسها - وأن تتولى تعليم الأطباء النواب و أطباء الامتياز والزملاء والمرضى والفنيين بطريقة نموذجية جعلتها بالفعل واحدة من المؤسسات التعليمية في الطب الأمريكي، وإن لم تكن كلية طب.

وفي أثناء إقامتي في كليفلاند وبعد كتابة هذه السطور، علمت من الصحف اليومية أن اتفاقاً قد وقع بين جامعة أوهايو الحكومية وبين «الكليتك» لتتولى «الكليتك» التدريس لطلاب مرحلة البكالوريوس كما تتولى التدريس للمتخرجين، ومن المنتظر أن يبدأ هذا النظام من العام الدراسي القادم مباشرة.

لست في حاجة إلى أن أذكر لك أنى علمت بالخبر قبل زملائي الأمريكيين الذين لا يقرأون الصحف الأمريكية بذلك القدر من العناية التي كنت أقرأها به، وعندما أنهيت إليهم الخبر في أثناء اجتماعنا ابتسموا لحقيقة أن المعلومات ملك لمن يطلع عليها لا لأهل البيت.



دعنى أحدثك الآن عن بعض النشاط التعليمي الذي أشارك فيه في قسم القلب ففي كل يوم في الصباح المبكر ما بين السابعة والنصف والثامنة والنصف يجتمع كل زملاء، التلب في قاعة مؤتمرات القلب ثلاثة أيام، وفي قاعة مؤتمرات الباطنة يومين آخرين حول شيء ما - يوم الأربعاء مثلاً هو يوم صدى القلب (الموجات فوق الصوتية) تعرض عليهم فيها حالات مشوقة أو صعبة أو نادرة.

وفي كل يوم من الأيام الأخرى نستمع جميعاً إلى محاضرتين ممتازتين، ربما عن شيء جديد، ربما عن رؤية جديدة لمشكلات طبية قديمة..

ومن أبداع ما يمكن وصفه تلك المحاضرة التي اشترك فيها أربعة.. طبيب

عرض المعلومات الاكلينيكية، وآخر عرض نتائج الفحص بالموجات فوق الصوتية،
وثالث عرض نتائج الفحص بالرنين المغناطيسى، ورابع عرض نتائج الفحص
بالقنطرة ..

وكانت الحالة التى ناقشنا تشخيصها بكل هذه الوسائل: تمزق الأنورزيميا التى
فى جيب فى القلب اسمه جيب فالسفا،... ولا أملك أن أصف المحاضرة والمناقشات
التى دارت بعدها إلا بأنها شىء عظيم عظيم.

هكذا تمضى الساعة الأولى من وجودى فى المستشفى فى كل يوم وبعد ذلك
ينصرف كل زميل إلى وحدته أو معمله الصغير.



هل أحدثك عن النشاط التعليمى فى وحدة الرعاية المركزة مثلاً.. ريثما يستقر
الجميع فى أعمالهم فى الوحدة وكانوا كلهم جدداً.. بعد أسبوع تقريباً وزع الدكتور
جبران عليهم أوراقاً علمية تحوى رءوس موضوعات لكى يحضروها ويلقوها
ويناقشوا فيها.. متى سيتم ذلك.. عندما تهدأ الأمور فى حوالى الثالثة عصر كل
يوم.

وكل يوم خميس يأتينا فى وقت الغذاء ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة
الواحدة واحد من أطباء الأشعة هو الدكتور وايت وهو شعلة من الذكاء والمنطق
والخبرة (الإكلينيكية والإشعاعية) ومعه مجموعة هائلة من أفلام الأشعات الممتازة
يضعها واحداً بعد آخر، أو اثنين وراء اثنين على الفانوس أو الفانوسين ويشرح ما
نسميه بالنظري على الأفلام مباشرة!! رائع وأكثر من رائع.. ثم بعد أن يعطينا
المعلومة يكثر من التطبيقات عليها.

فى ثانى مرة كان زميلاى مشغولين بحالة من الحالات الحرجة، فأصبحت أنا [تقريباً] أقدم الموجودين، وأكثرهم خبرة على حد تعبيرهم. وعلى هذا كان المترددون فى التشخيص يأخذون جانب الأقدم حين يعجزون عن تكوين رأى ذاتى. والحمد لله قلما خذلهم الوقوف إلى جانب الأقدم.



وانتقل للحديث بك عن النشاط التعليمى فى حجرة جانبية من معمل وظائف القلب كانت بالنسبة لى كالكنز المسحور،. لا يمر مريض على المستشفى أو العيادات الخارجية إلا ويؤخذ له رسم قلب، ويوضع هذا الرسم بالطبع فى ملف هذا المريض. ولكن كل هذه الرسومات تُسجل على شريط أو كاسيت وترسل إلكترونياً إلى هذه القاعة المسماة بقاعة رسومات القلب.. حيث تُطبع كل الشرائط القادمة، وتوضع على هذه المنضدة الطويلة التى عليها كل وسائل القياس الخاصة برسومات القلب.. بدءاً من المساطر إلى الفرجارات وحتى العدسة المكبرة.. إلخ. هذه الأدوات البسيطة التى نحتال بها على فهم أسرار رسم القلب الكهربائى.

ويأتى زميل Fellow من زملاء القلب فيتولى قراءة الرسومات جميعاً بعد ما قرأ التشخيص الذى سجلته أجهزة الكمبيوتر، فإذا وافق الزميل على تشخيص الكمبيوتر كتب أنه موافق ووقع بحروفه الأولى، وإذا أراد تصحيح شىء صححه، ووقع، وإذا أراد إضافة شىء أضافه، ووقع.

وهناك خمسة من أساتذة القلب Staff يتولون القراءة النهائية، لكل واحد منهم يوم: ويوم الثلاثاء هو يوم الدكتور الفلبينى، ويوم الأربعاء هو يوم الدكتور هودجان، ويوم الخميس هو يوم الدكتور ويتللو، ويوم الجمعة هو يوم الدكتورة جاميس وهى أصغر أعضاء هيئة أطباء القلب على الإطلاق.

كان من حظى أن أتولى وظيفة الزميل القارىء لمدة أسبوع كامل، فى اليوم الأول كان معى زميل، وفى الأيام الثلاثة التالية كنت بمفردى. ربما تعرف من عيوبى أنى عجول فى كل شىء.. وما إن فهمت نظامهم فى التعقيب والإضافة إلا كنت أذهب إلى تلك الحجرة مبكراً وأبدأ العمل مبكراً بحيث أصبح الفنيون والعاملون فى حجرة رسم القلب لا يلاحقوننى بالرسومات (بدلاً من أن تكون الرسومات مكدسة أمامى) ويعجبون من تواجدى المبكر وتركيزى وسرعتى..

وكان أعضاء هيئة الأطباء Staff كرىمى الخلق معى إلى حد كبير، كانوا بالطبع يشجعوننى، وقد تعلمت منهم الكثير جداً.. ولا بد أننى تعلمتُ من هؤلاء ما يعلمه لنا أساتذتنا فى مصر من النظر إلى الحالة الإكلينيكية للمريض قبل التعليق على رسم القلب، والكمبيوتر يأسيدى هو الآخر لا يغفل ذلك مع أنه (بلا قلب، على حد تعبير الأدباء الذين لم يعاشروه!!.. فهو يذكر لك القسم من المستشفى الذى فيه المريض، ويذكر لك عمره، ويذكر لك الأدوية التى يتعاطاها كذلك، بالطبع ليس كل الأدوية، وإنما تلك التى لها تأثير مباشر على رسم القلب، أو على العناصر المحددة لكثير من التغيرات فى رسم القلب كالبوتاسيوم والكالسيوم.



على أن أعظم ما يحب أساتذتى فى مصر أن يسمعوا عنه فى هذه الحجرة هو ذلك النظام المحكم الذى يسمح للأستاذ حين يريد أن يراجع هذا الرسم لهذا المريض على رسم قديم له أن يجد الرسم القديم فى دقيقتين أو ثلاث، ما عليه إلا أن يطلب الرئيسة، والرئيسة ستسأل الكمبيوتر والكمبيوتر يعطيها تاريخاً قديماً رسم فيه القلب من قبل، والرئيسة تأمر الشرائط المغناطيسية بأن تخرج لنا صورة من هذا الرسم القديم وتناول لنا الرسم القديم بعد دقيقتين من طلبنا له!!

أعرف حالة لأستاذ طب مصرى سافر للعلاج، وأجريت له قثطرة.. كان يغنيه عن سفره وجود رسم قلب قديم ينبىء عن أن هذه التغيرات التى وجدت حديثاً كانت بسبب مرض حديث أو أنها لم تكن بسبب مرض فى القلب، أو أنها من باب الاختلافات الطبيعية. وأعرف حالات كثيرة مرت علينا فى يوم الدكتور هودجمان لم يكن لها حل إلا التحويل لإجراء دراسات الكهرياء الفسيولوجية ما لم يوجد هذا الأرشيف العظيم الذى ساعدنا على توضيح طبيعة تسارع ضربات القلب: هل هى من فوق الأذنين أو من البطين.

كان الدكتور عبدالعزيز الشريف يقول دائماً إن أصعب فصل فى علم القلب هو اللغز الانقباضى.. وكنت أستعير مقولته مع تغيير الموضوع إلى فصل تسارع ضربات القلب من الـ QRS العريض Tachycardia of wide QRS، ومع هذا فأنا الآن أعتقد أن الأرشيف الجيد يزيل صعوبة هذا الفصل الذى أتحدث عنه، بحيث تبقى مقولة الدكتور عبدالعزيز الشريف أقرب إلى الواقع فى وجود نظام جميل وفى غياب جهاز الموجات فوق الصوتية.

أما فى وجود التكنولوجيا (جهاز صدى القلب: الموجات فوق الصوتية) وغياب النظام (الأرشيف الجيد) كما هو الحال فى مصر فستبقى لمقولتى السيادة حتى يسود النظام.

وبعد أن ننتهى من تعليقاتنا على رسم القلب يتناولها الفنيون فينقلون تعليقاتنا إلى الكمبيوتر ويرسلونها إلى الأقسام المعنية بمرضاها إذا كانت لها علاقة مباشرة بتشخيص أو علاج، ثم يضعون هذه الرسومات بكل ما عليها من تأشيريات وتعليقات فى جانب من الحجرة تحت لافتة تقول إن هذه الرسومات متاحة لمن

يريدها من الأطباء والطلاب والنواب والمرصنات وهؤلاء يقرأونها ويتعلمون منها شريطة الالتزام بشيء واحد، هو ألا يعيدوها إلى هذه الحجرة حتى لا تحدث ارتباكاً بوضعها مع الرسوم الجديدة.



إلى عهد قريب كانوا يقرأون الدراسات الصدىية بنفس الطريقة التي يتعاملون بها مع رسومات القلب، ولكنهم منذ شهر كفوا عن هذا اللقاء الذي كان يعقد في الخامسة من بعد الظهر، وأصبحوا يكتفون بعرض أسبوعي للحالات النادرة أو الطريفة.

وفي معمل وظائف القلب أيضا مكتبة تعليمية عن استخدامات الموجات فوق الصوتية في كافة أمراض القلب، بعض هذه الشرائط أنتجته جمعية القلب الأمريكية بالتعاون مع مايو كلينك، وبعضها الآخر أنتجته الأقسام العلمية في الشركات المنتجة لأجهزة الموجات فوق الصوتية كشركة ألكاسون، وشركة هولت بيكارد.. وما عليك إلا أن تضع الشريط وتقرأه كما يقرأ الناس شرائط الفيديو.. تُبْطِئُ الشريط حين تحتاج التأمل، وتسرع حين تكون في حاجة إلى تخطي الفقرة كلها.

وفي تقارير القثطرة التي يوسعون بها الشرايين يحرصون على وضع الصور المطبوعة من الأفلام فيما قبل التوسيع وفيما بعده لكل شريان أو فرع من شريان أو جزء من شريان أجريت له عملية التوسيع.. سواء بالبالون وبتقطيع الخثرة وبوضع الدعامات Stent في الجدار.

فإذا تركنا قسم القلب إلى قسم الباطنة العامة وجدناهم يجتمعون أيضاً في مؤتمرات صباحية، أنا مشغول عنها بالطبع بمؤتمراتنا الصباحية، ولكنني اكتشفت أنهم يجتمعون كل ظهيرة فيما بين الثانية عشرة والواحدة في مناقشة حالات طريفة من التي تقابلهم، وفي يوم الخميس يخصصون اللقاء لمناقشة بعض المقالات المنشورة في المجلات الطبية، ويدير هذه الاجتماعات في حضور الأطباء الكبار الدكتور باتريك وهو أحد الحائزين لوظيفة مشارك اكلينيكي Clinical Associate وهو في مقتبل عمره ويتمتع هذا الطبيب بقدرة فائقة على الرذالة على زملائه شأنه شأن كاتب هذه السطور الذي يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخلصه من عيوبه المتزايدة.

سأضرب لك مثلاً واحداً على رذالته، كان في يوم الجمعة ينبه إلى وجود صور من المقالات التي ستناقش الخميس القادم، فإذا به يرجو النواب أن يقرأوا هذه المقالات جيداً ثم يردف بالقول أما الذين يحضرون الخميس من دون أن يقرأوها فإنني أرجو أن يأخذوا غذاءهم وينصرفوا قبل بدء مناقشة هذه المقالات!!

على هذا النحو تجد كل صباح قائمة بالكمبيوتر تضم مالا يقل عن مائة وخمسين لقاء علمياً تتم في قاعات هذا المستشفى المختلفة في الأوقات المختلفة. وأمام كل لقاء مكانه وموعده وعدد المفترض حضورهم، والسكرتيرة التي يُستعلم منها عنه، وبعض الملاحظات عما إذا كانت هناك شروط للحضور أو مزايا له، في حالة المحاضرات المرتبطة ببرامج التعليم الطبي المستمر أو برامج الدراسات لما بعد التخرج، أو الساعات المعتمدة للتأهيل.. إلخ.

□

كانت هذه نماذج سريعة أردت بها أن تعطيك فكرة عن الأداء التعليمي في هذا

الصرح الطبي، فإذا بهرتك بعد ذلك النتائج التي يخرج بها المرضى، فتذكر أن الهدف من الطب عموماً ليس علاج المريض فحسب ولكنه تقدم التعليم الطبي من أجل علاج هذا المريض في المستقبل بصورة أمثل!!!

فإذا وجدتني في موضع آخر من كتاب آخر من كتبي مصمماً على أن أصبغ الطب كله في مصر بصبغة تعليمية بحيث تنتمي كل مؤسسات العلاج الطبي وكل مؤسسات الرعاية في مستوييها الثاني والثالث كله إلى مؤسسات التعليم الطبي طبقاً لنظام متكامل ومتدرج فاعلم أن جذور فكرتي القديمة قد لقيت الأمل الكبير والتحقق على أرض الواقع في هذا المستشفى.

ومن قال إن الطب الأمريكي بحاجة إلى أن يتقدم بخطوات واسعة أو حتى خطوات بطيئة؟ إنما تتقدم اليوم التكنولوجيات التي تساند خطوات التقدم الطبي التي تحققت فيما مضى، ويتقدم تطوير هذه التكنولوجيات وتسخيرها لخدمة أهداف التشخيص والعلاج والمتابعة.. وتكون النتيجة أن الطب يتقدم، ولكن الفن الذي في الطب نفسه لا يصيبه شيء أبداً من التقدم.

ربما تعجب بشدة لهذا الكلام ولكنك إذا كنت طبيباً أمريكياً وعاملت الأطباء الفرنسيين ووجدتهم مثلاً يغيرون الجرعة المعهودة في العلاج لمجرد الإحساس بأن تقليل الهيبارين من ٦٠ ألفاً إلى ٣٠ ألفاً قد يعطي نفس النتيجة.. ربما تصيبك الدهشة القاتلة أن ترى الأطباء يفعلون هذا الشيء من دون أن تكون لديهم دراسات مطولة أثبتت بكل التحليلات الإحصائية صواب ظنهم.

دعك من تغيير الجرعة، وتعال معي إلى تطوير طريقة من الطرق الجراحية مثلاً: كيف يدرسها الأمريكيون تفصيلاً وكيف تنتهي دراساتهم إلى أنها لا تمثل

تحسناً يذكر إلا بنسبة ٥%. ثم إذا هم يتجرأون وينفذونها وتنجح.. بعد نجاحها يمارس الإعلام الأمريكي الخطير دوره الجهنمي، فنسبة نجاحها إلى ما قبلها كالسما إلى الأرض ومخاطرها لا تتعدى ١% وتحسيناتها تمثل ٩٥% من طموحات الأطباء فيما قبل.. وهكذا.



أحب أن أختتم هذا الفصل بأن أذكر لك رأيي القائل إن نجاحات الطب في أمريكا مزيج من:

□ تكنولوجيا دائبة البحث.

□ وإعلام ذي صوت عال..

وهذا المزيج قائم على مزيج آخر أخفى من أن تراه عينك مباشرة:

□ فالتكنولوجيا مزيج من:

• بحث نظري مستميت .

• ومجموعة لا متناهية من قواعد معلومات لا تترك صغيرة ولا كبيرة..

□ والإعلام مزيج من.

• دراسات علمية اجتماعية وإنسانية عميقة .

• ولغة تجمع بين الدقة والتعبير في قدرة عالية على المواءمة لا يستطيعها إلا

من وصل إلى درجة الساحر الذي يبلع النار وهو يسير على السلك المشدود

بقدم واحدة مصنوعة من خشب هش يذروه الرياح .

وهأنذا أخص لك عوامل النجاح بطريقة أخرى هي أقرب ما تكون إلى ما تعودنا عليه من طريقة واحد اثنين فأعدد لك:-

□ قواعد معلومات مجددة كل دقيقة، متواصلة فيما بينها إلى أقصى الحدود، سهلة الاستخدام.

□ دراسات علمية واجتماعية وإنسانية عميقة قادرة على مخاطبة الإنسان بكل ما فى الإنسان.

□ استخدام سحرى للغة لا يقل سرعتها فيدركها الزمن الذى لا يتوقف.. هي تعرف سرعتة ولهذا تخافه خوفاً محسوباً ولكنه يتزايد مع كل حين لأن الزمن نفسه يكتسب من التكنولوجيا أبعاداً هائلة.. فالتكنولوجيا تخلق من الزمن «فرانكشتين»، يربعها هي نفسها.. التكنولوجيا لا بد أن تنتشر حتى تحقق العائد الكفيل بأن يجعلها تزدهر.. وانتشارها يصعب من ازدهارها ويجعلها مطالبة بتحقيق ازدهارات أكبر فى أوقات أقصر.

□ إعلام لا بد أن يكون قادراً على إدخال التكنولوجيا حتى ولو كان هذا على حساب تكنولوجيات أخرى كان هو نفسه المبرر بها!!

وهذه هي أمريكا التي تظهر للطبيب تحت الميكروسكوب فى أى مؤسسة طبية من مؤسساتها الناهضة.

□

هل تحدثنا ياسيدى عن بعض الميكروبات التي تحيط بهذه الصورة تحت الميكروسكوب للطب الأمريكى، نعم بوسعى أن أحدثكم ولكنه حديث هواجس:

- ألمح هناك - حقيقة لا أرى ولكن ألمح - ضجراً متواصلأ من الإنفاق على كثير من البنود فى الرعاية الصحية بما لا يمثل مردودأ حقيقياً على صحة المواطن الأمريكى، ولا على تقدم العلم.
- ألمح أيضا بواذر رغبة على استحياء من النفس فى الخروج بالطب الأمريكى كنشاط اقتصادى إلى ما وراء الأطلنطى.
- ألمح أيضا وبصعوبة بالغة رغبة فى إعادة تقييم نظم التأمين الصحى المطبقة وخصوصأ مع التفاوت الرهيب فى تكاليفها، وعوائدها، ومردوداتها، وضجر الأطباء من بعضها، وإحجامهم عن مواصلة العمل فيها.
- ألمح أخيراً خوفاً من تزايد اعتماد أمريكا على التكنولوجيات الأوروبية واليابانية فى الأجهزة الطبية إلى أكثر من الاعتماد شبه الكلى القائم الآن. وفى ظل انتفاء أو تقلص الرغبات الأمريكية فى اقتحام هذه الأسواق!!

المسيِّلمون في أمريكا
طيف واسع من الألوان الجميلة

المسلمون في أمريكا طيف واسع من الأاإن الجميلة

المسلمون في أمريكا شأنهم شأن المسلمين في كل مكان طيف واسع من الألوان الجميلة التي لكل منها حلاوته وروعته وجلاله . والاختلافات بينهم لا تعكس إلا حرص المسلمين على إعلاء كلمة الله وعلى إعطاء العقل مكانه في الوقت ذاته .

قوة الحجة تجعلك إذا كنت منصفاً لا تميل إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بقدر ما تكتشف في نفسك تواضعها وميلها إلى القول بأنك لست بفقير ولا مفت .

كل يعمل من منظور ما، وهو يظن نفسه مقصراً في حق دينه رغم كل إخلاصه لمنظوره . والإسلام الحقيقي يزدهر في قلوبهم ويتنامى في عقولهم ويتعمق في أعمالهم، وفي كل يوم ترتفع له راية جديدة إلى جانب راياته التي ارتفعت من قبل ..

وطبيعة الدين السمح تقربهم، وروح النظام الجميل في الإسلام الجميل تتيح لهم

اللقاء المنظم بدون تكلف ولا عناء: سواء في الصلوات و في رمضان الكريم، شهر
البركة والإحسان.

ومع هذا لابد من أن أحدثك من باب الرواية فقط عن بعض الاختلافات
الجميلة:

● فهذا إمام مسجد لا يمانع في أن يأخذ المجتمع الإسلامي من البنك قرصاً
محدد الفائدة ليقوم بالتوسعات.. ولكن إمام مسجد المدينة المجاورة يرفض المبدأ
من أصله.

● هذا المركز الإسلامي الكبير في لوس أنجليس لا يمانع في تناول اللحوم المتاحة
باعتبارها من طعام أهل الكتاب.. ولكن إمام مسجد ابن تيمية في ذات المدينة
يرى أنه لا مبرر لتناول هذه اللحوم ما دام هناك جزار يذبح حسب الشريعة
الإسلامية.

● هذا المسجد يتيح لقاء الرجال بالنساء لأنه يريد للمجتمع الإسلامي أن يتعارف
وأن تتقوى روابطه بالمصاهرة مثلاً، أما ذلك المسجد فلا يتيح على الإطلاق
أى اتصال بين الرجال والسيدات.



أعظم ما في كل هذا أن المسجد دائماً يحمل لافتة المركز الإسلامي. أقصد أنه
ليس هناك مركز إسلامي ليس بمسجد.. أرجو وأدعو الله أن أشهد اليوم القريب أن
تكون المدرسة هي الأخرى المركز الإسلامي.

من الطرائف التي حدثت لأحد زملائنا في كلينفيلاند أنه وهو سائر بسيارته في

أيامه الأولى فى شارع يوكليد وجد مبنى عليه لافتة مسجد القرآن Qurran Mosque وقد سرُّ صاحبنا سروراً عظيماً لهذا المبنى الجميل الأنيق وواجهاته الزجاجية وعزم على الصلاة فيه .. لكنه كان كلما أتى باباً وجده مغلقاً، وعليه لافتة تعلن أن الدخول للأعضاء فقط - ومن وراء الأبواب الزجاجية لمح موائد وبارات عامرة بأنواع الكحوليات كلها وبلا حصر ولا عدد.. قال فى باله: ما علينا.. أمريكا فيها كل شيء.. قد يكون مسجداً ونادياً فى ذات الوقت!! وفى النهاية وجد صاحبنا باباً مفتوحاً يخرج منه شخص، تقدم إليه وسأله: أين باب الصلاة؟ من حسن الحظ أن هذا الشخص كان مثقفاً وعرف أن صاحبنا مسلم، فأجابه أن هذا ليس بمسجد، وإنما هو أحد نوادى إحدى الجمعيات الماسونية وقد اتخذت له هذا الاسم من قبيل «الديكور، الثقافى ليس إلا.. وتطوع الرجل فأرشد صاحبنا إلى «مسجد بلال، أو المسجد الحقيقى، كما قال له.



أول جمعة لى فى كليفلاند صليتُها فى مسجد جميل، قرب الجامعة، وميدان الجامعة هو مسجد عقبة بن نافع رضى الله عنه وأرضاه. وقد عرفت أن الطلبة المسلمين فى جامعة كيس ويسترن هم الذين تولوا شراءه وتجهيزه كمسجد. المسجد بسيط ولكنه كفيل بأداء كل وظائف المسجد والمركز الإسلامى. ألمح كثيراً من المصريين بين الحاضرين وكذلك ألمح فلسطينيين وعراقيين وشواماً.. بالإضافة إلى الأمريكين.

السيارات تحيط بالمسجد فى شوارع جانبية كثيرة، والإمام اليوم هو أحد التجار

الفلسطينيين وهو صاحب الجزارة الإسلامية، الخطبة باللغة العربية ثم بالإنجليزية

. Brothers & Sisters

الدعوة إلى الإفطار تتجدد، وفي هذا الأسبوع أيام إضافية كذلك. بعد الصلاة
ألتقى بكثيرين من طلاب بعثات منح السلام المصرية.

المسلمون الأمريكيون حريصون وهم يقودون سياراتهم بعد أداء الجمعة أن يبطنوا
سيرهم ليلقوا علينا السلام هم وأسرههم كذلك.

شعور جميل وعظيم ينتاب المرء منا وهو يرى نفسه واحداً من جماعة تجمعها
كلمة واحدة هي كلمة التوحيد - تختلف الألوان والألسنة والمهن وتجتمع في
المسجد. تختلف المصالح والأغراض والوجهات وتجتمع مختلف السياسات
والأوطان وتدور رحى الحروب هناك ونجتمع هنا.. ونحن نجتمع في كل حين لأن
الله أراد لنا أن نكون أمة واحدة، وسنكون بإذنه تعالى أمة واحدة، وبدأ واحدة، وإلى
يوم الدين.



انتويت في جمعة تالية أن أصلى في مسجد بلال الذي في شارع يوكليد، أين
هو بالتحديد؟ لا أعرف. كل ما أعرفه أنه على يمينك وأنت ذاهب إلى وسط البلد
من المستشفى. ما علينا نسأل سائقة الأتوبيس، وبالتأكيد لن تعرف، فيكون من
الطبيعي عندئذ أن تقترح عليك حلاً: ادفع التذكرة واركب وتطلع إليه حتى إذا
وجدته فاهبط.. وهذا ما حدث بالفعل..

ووجدت مسجد بلال رضى الله عنه وأرضاه، ونزلت.

المسجد جميل جداً، وخلفه ساحة انتظار شاسعة هائلة، وهي حافلة، والحمد لله،
بالسيارات.

المسجد مبنى بالخشب «الأوك»، الجميل، وسقفه على هيئة شبه قبة جميلة بحيث
تمتد أذرع متناسقة من الخشب لتكون سقفاً يتوسطه دائرة صغيرة جداً، وفيما عدا
هذا فلا يتكون من السقف سطح أبداً إنما هو جمالون جميل جداً.

والمسجد من طابقين: فى الدور الأرضى دورات المياه واستراحات، وقاعات
واسعة، وفى الدور العلوى ساحة الصلاة وهى مغلقة تماماً لا بد أن تفتح باباً حتى
تدخل إليها وفى هذه الطريقة التى تستقبلك بعد صعودك السلم تجد حجرات للمكتبة
ولالإمام وللسكرتارية، وتجد رفوفاً للأحذية.. ثم يفتح الباب المنزلق [الذى سرعان
ما يعود إلى الإقفال] لتدخل إلى قاعة الصلاة.

خارج ساحة الصلاة وجدت الأحذية على رفوفها لا تتجاوز سبعين فقلت فى
سرى كأنهم هنا أيضاً لا يلتزمون جميعاً بتركها فى الخارج على الرفوف المعدة..
فلما دخلت المسجد وجدت أن عدد المصلين والمصليات قليل بالفعل.. هذا أول
مسجد أصادف فيه المصلين فى مقدمة المسجد والمصليات فى المؤخرة بدون
فاصل إلا المساحة الكبيرة الخالية من المصلين.

الخطيب يخطب بالإنجليزية مع حماس جميل يجعل الإنجليزية تتسع لعبارات
الوعظ الدينية القصيرة المكررة المؤكدة.

وحين أقيمت الصلاة أمتنا شيخ جليل استطاع قراءة الفاتحة بالعربية وفى الركعة
الأولى قرأ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وفى الركعة الثانية «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»... (كأننى
أنا الإمام). لم أستعذب اللغة العربية يوماً كما استعذبتُها وهى تخرج مكسرة تماماً

من فم الشاب الذي أقام الصلاة، ثم وهى تخرج ما بين التفسير والسلامة من فم هذا الشيخ الذي صلى بنا الجمعة.



أحسست بعد الصلاة كم نحن مقصرون فى حق هؤلاء..

إننا سعداء فى كثير من الأقطار الإسلامية بما نقدم لهم فى بعض الأحيان من فئات الأموال، أو حتى الأموال الضخمة.. ولكننا نحرمهم أعظم شىء يربطهم بالإسلام وهو اللغة. لو بذلنا فى نشر اللغة العربية واحداً فى المائة مما تبذل فرنسا فى نشر اللغة الفرنسية إلى الحد الذى وصفه لى صديق دبلوماسى أوروبى بقوله: «واجبار الناس على تعلمها، أقول إننا لو بذلنا واحداً فى المائة من هذا الجهد فى تعليم اللغة العربية لهؤلاء الذين يستحقونها لصححت دنيانا وصلاح ديننا.

إن فرصاً لا تعد ولا تحصى متاحة ومفتوحة ومرحبة بنصف مليون خريج من الشباب للقيام بدورهم فى تعليم اللغة العربية للمجتمعات الإسلامية المنتشرة فى أمريكا وأوروبا وأفريقيا وجنوب شرق آسيا.. كل ما هو مطلوب من هؤلاء أن يلموا باللغة الإنجليزية (أو غيرها) إلى الحد الذى يتيح لهم التعامل مع هذه المجتمعات من أجل الأخذ بيدها إلى تعليم اللغة العربية.

هذه المجتمعات ليست منظمة، وليس أسهل من تعليم الصغار الذين يتوق أهلهم إلى أن يسمعوا القرآن الكريم باللغة العربية من أفواه أبنائهم.. سواء كان هؤلاء الأبناء لا يعرفون العربية أصلاً أو كانوا يعرفونها وشغلتهم الحياة الدنيا وزوجاتهم عن أن يجدوا وقتاً يعلمون فيه أولادهم لغتهم الأولى.

كثيرون من الذين يقرأون هذا الكلام سيتأكدون من أننى أبالغ حين أقول نصف

مليون ، ولكننى أخشى أن أقول إننى متواضع لأنى لو ذكرت الرقم الحقيقى لكان أكثر من هذا بكثير.



تسألنى بالطبع عن التمويل.. إن هذه المجتمعات قادرة على التمويل لأنه لا يكلف شيئاً.. هل توافقنى على أن تتصور المسألة بشيء من التقريب.. هل ألف دولار كمرتب لهذا الخريج كافية - تجيبنى بنعم - هل عشرة فى المائة من مصروفات إدرية لتنظيم العملية كافية - تجيبنى بنعم - هل عشرة فى المائة كافية كذلك لاستئجار أماكن. إذا لم يكن هناك مساجد أو جمعيات إسلامية أو جمعيات أخرى لتعطى الفرصة لاستغلال المكان الخاص بها فى ساعات محددة أو لم ترحب السلطات الحكومية بإدراج هذه العملية ضمن البرامج الأساسية أو الإضافية فى المدارس التى تضم عدداً كبيراً من هذه الجاليات مع أن معظم السلطات توافق على مثل هذا المبدأ من مبادئ احترامها لحقوق الإنسان، وحقوق الأقليات وحرية العقائد والتزامها بالمواثيق الداعية إلى كل هذا. ومع أن الهيئات الشعبية المحلية بالطبع حريصة بحكم النظم الديمقراطية على تهيئة هذه الفرص.

هل تكفيك عشرون فى المائة على سبيل الإجمالى كاحتياطى للحالات التى تحتاج تمويلاً لبند المكان تجيبنى بنعم.. إذاً هل مبلغ لا يتعدى وخمسمائة فى الشهر يكفى لتعليم خمسين طفلاً أو قل أربعين... يمثل مشكلة؟؟



فى أمريكا وحدها مالا يقل عن خمسمائة ألف مجتمع مسلم فى آلاف المدن الصغيرة وأحياء المدن الصغيرة (عدد المسلمين فى التقديرات المتوسطة حوالى ٦

ملايين مسلم) ينتظر هذه الفرصة لتكون هناك مدرسة ولو من مدارس الفصل الواحد في أيام الآحاد لإنجاز هذا الأمل العظيم الذي نتطلع إليه جميعاً بدون أن نبذل في سبيله إلا الجهود المتفرقة.



وأحب أن نفهم أن هذا المشروع كفيل بتطوير برامجه ومناهجه يوماً بعد يوم بحيث يصبح خير وسيلة لوجود اللغة العربية في موقعها الصحيح.. وبحيث يغفر للمسلمين التقصير التاريخي لبعض دولهم الرائدة كالدولة العثمانية في حق لغة القرآن.

ومن الواضح أنني أتحدث عن اللغة العربية كلغة ثانية إلى جوار الإنجليزية وهذا لا ينفى بالطبع أنني أتمنى أن أعيش حتى أرى العربية هي اللغة الأولى لكل مسلم على وجه الأرض..

والأمر ياسيدي يستلزم حماساً تاماً لإتمام العمل من خلال منهج متصل معروفة حلقاته على مستوى العالم الإسلامي كله بحيث يقول الصغير في أندونيسيا إنه وصل إلى الدرس السابع والثلاثين من الحلقة الثانية مثلاً فيجد نفسه عند انتقال والديه إلى أمريكا يواصل الدرس الثامن والثلاثين مباشرة، وبحيث يستطيع وهو في لوس أنجلوس إكمال ما بدأه وهو في نيويورك.

وفي هذا المجال لا بد أن أذكر أن أمريكا نفسها حتى اليوم لا تزال تعترف بعدة لغات أوروبية كلغة أولى:

فاللغة الأسبانية هي اللغة الأم لثمانية ملايين شخص أمريكي.

واللغة الألمانية هي اللغة الأولى لخمسة ملايين آخرين.

واللغة الإيطالية هي اللغة الأم لأربعة ملايين أخرى.

وأرجو أن يأتي اليوم الذي تحتل فيه العربية مكانتها اللائقة بها وبخاصة أنها اليوم هي اللغة الأولى الحقيقية لمئات الألوف من الأمريكيين المهاجرين.



لكن المشكلة التي، ينبغي علىّ مع هذا، أن أنبه إليها هي أن هذه اللغة العربية تتراجع مع تعاقب الأجيال وربما يمتد هذا التراجع إلى أن تصبح لغة «أجنبية» عند أبناء عرب مسلمين ولدوا في المجتمع الأمريكي لأم أمريكية أو لأم عربية مسلمة يشغلها عملها عن أن تعلم أبناءها العربية فتتركهم يعاملونها بالإنجليزية وكأنها تعامل «الخوارج»!! وتبقى العربية بينها وبين زوجها فحسب!!

أعرف أن الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية وإلى قدر كبير من التخطيط الدقيق، وإلى أن نبدأ بولاية أو إقليم على سبيل التجريب الرائد، كذلك يحتاج الأمر إلى كثير من التنظيم واحترام النظام الأمريكي والتوافق معه تماماً.. ويحتاج، ثالثاً، إلى كتاب جيد التأليف، وجيد الطباعة، وجيد الإخراج، ويحتاج قبل هذا كله إلى شبه هيئات مركزية تتولى تنظيم بعض الأمور كتوزيع الكتب، وتسكين المدرسين والحصول لهم على التأشيرات..

وكل هذا، إذا عرفت الحياة الأمريكية، يمكن تحقيقه من باب واسع وقوى ميسر بإذن الله.

أعرف أن العقبة الكبرى أمام مثل هذا المشروع هي مسألة التراث المتراكم من إدعاء الفضل وحب الحمد بما لا نفعل وهو ما قد يقودنا دون أن ندري إلى حد

العذاب وهو ما حذرنا منه القرآن الكريم، والاحتمال الأكيد في أن تتنازع الإشراف على المشروع هيئات مختلفة كالخارجية والأوقاف والتعليم والقوى العاملة والهجرة وكل المؤسسات التي تتبعها هيئات لا علاقة لها من قريب أو بعيد بمثل هذا المشروع.. ولكن لو كان الأمر بيدي لتركته للقوات المسلحة كما يفعلون في فرنسا حين يجعلون تعليم اللغة الفرنسية في الخارج أحد البدائل للخدمة العسكرية الوطنية الإجبارية.. حتى نقل هؤلاء الشباب إلى الخارج أتركه لإدارات النقل الحربية لو أمكن!! حتى لا تصرخ مصر للطيران من رزق وفير لا تتعب في الحصول عليه وهي مع ذلك تشكوه كما تفعل في مواسم الحج وعودة المدرسين!!

واحب أن أقول إنني لا أحلم بمستقبل لا يتحقق أو غير قابل للتحقيق ولكنني أتحدث عن ماضٍ تأخر وقوعه في ظل انشغالنا التام بأزمات كثيرة ابتلعت أوقاتنا وألهتنا عن مسؤوليات سوف يسألنا عنها ربنا يوم القيامة، فنحن نترك الخريجين بلا عمل ثماني سنوات ونترك أخوة في الإسلام يتعطشون إلى من يعلمهم لغة القرآن في الوقت ذاته.



لم أنته من أحلامي هذه إلا وكنت خارج قاعة الصلاة أمام المكتبة فقلت لنفسي ادخل المكتبة، لعلني أجد أملاً، فإذا باليأس يقتلني.. المكتبة مجموعة من كتب تصلح لأي مدرسة أمريكية ليس إلا.. وعلى رف أو رفين فقط من المكتبة الكبيرة جداً تجد مجموعة من المصاحف وصحيح البخاري وكتاباً في فلسفة توما الاكويني.. كل هذا ما يمكنك أن تعتبره ذا علاقة ولو إلى حد بعيد بمكتبة في معبدا.. وعلى المنضدة التي تتوسط المكتبة تجد أعداداً من جريدة آسيوية إسلامية

إعلامية مصورة فاشرة الطباعة والورق.. إذا فالطريق إلى هنا معروف ولكنه لا يحمل ما ينبغي أن يحمله من زاد يبني ضمائر المسامين!!



أما أعداد المسلمين في أمريكا فتتضارب حولها الأرقام.. كما تتضارب حول أعدادهم في كل مكان، وليس من شأن هذا الكتاب أن يحل لك هذا التضارب لأن مؤلفه لا يعهد في نفسه اليوم القدرة على الزعم بالوصول إلى الحقيقة في أمر يحتاج القول الفصل فيه إلى كثير من الوقت والدراسة، ومع هذا فإنه يمكن بوسائل كثيرة تقدير أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية لا يقل عن ستة ملايين شخص.

أحب، بهذا المناسبة، أن أشير إلى خمس موجات للهجرة إلى أمريكا:

□ الأولى فيما بين ١٨٧٥، ١٩١٢ وفي هذه الهجرة جاء كثير من التجار وطلّاع أدباء المهجر.

□ الثانية فيما بين ١٩١٨ و ١٩٢٢ حيث تدفق مسلمو لبنان للعمل في مصانع فورد للسيارات في ولاية ميشجان.

□ الثالثة فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٨ في فترة الكساد العالمي في الثلاثينات.

□ والرابعة فيما بين ١٩٤٧، ١٩٦٠ فيما بعد الحرب العالمية الثانية.

□ والخامسة فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وهذه هي أصعب فترات وموجات الهجرة لأنها استنزفت خيرة العقول العربية، ويكفي أن أذكر لك إن حوالي عشرين ألف مصري فيما بعد هزيمة ١٩٦٧ قد هاجروا إلى ولاية نيوجرسي وحدها.

لاشك أن أمريكا تفيد من العقول المسلمة أكثر مما يفيد المجتمع الإسلامى .. لا
تظننى أديباً مجازى اللفظ وأنا أكتب هذه العبارة .. ولكن تأمل معى ما يعنيه أن
أعداد الأطباء الإيرانيين العاملين فى مدينة نيويورك وحدها يفوق كل الأطباء
الإيرانيين العاملين فى إيران . دعك من إيران وتأمل الجانب الآخر من الخليج
العربى الذى تصر الصحافة الأمريكية على تسميته بالخليج الفارسى حيث العراق ..
تجد أن أكثر من ثمانين فى المائة من مبعوثى العراق إلى أمريكا لا يعودون إلى
العراق بعد انتهاء بعثاتهم ..

دع العراق وإيران واذهب إلى الباكستان حيث لا يزال الناس هناك يتعلمون
بالإنجليزية ويتخرجون من جامعات تدرس الإنجليزية وأنت تجد أنه ما إن تعلن
نتيجة الامتحانات حتى يكون أكثر من تسعين فى المائة من خريجي مدارس الطب
واقفين أمام أبواب السفارتين الأمريكية والإنجليزية يبدأون كل المحاولات الكفيلة
بالحصول على فرصة لقضاء النيابة فى هذه البلاد .

أنا لا أعرف هل كان الأمر يصبح كذلك فى مصر لو كنا ندرس الطب
بالإنجليزية بدلاً من الأنجلوآراب .. ولكننى متأكد من أنه لن يصبح كذلك على
الأقل فى هذا الجيل، لأن معظم خريجي ما يسمى مدارس اللغات الإنجليزية يعملون
معنا فى مصر ولا يندفعون إلى هذا الذى يندفع إليه الباكستانيون بله
الباكستانيات ..

لن أحدثك عن أهل الشام فأنت تعرف حبهم جميعاً للمهجر، من أجل كل ما هو
جميل فى المهجر، وحرصهم على الوطن من أجل كل ما هو جميل فى الوطن،
ولكنى أحب أن أنتقل بك إلى هجرة الأيدي كما حدثتك عن هجرة العقول فلا تزال

أمريكا بحاجة إلى كثير جداً من الأيدي، وللطبقات الفقيرة غير المتعلمة مكان أيضاً في أمريكا: في مزارع قصب السكر في فلوريدا، وفي نصب السياج حول مزارع المواشى والخيول في تكساس، وفي جمع التفاح في فرجينيا، وحصاد الشمندر في كولورادو، وجنى القطن في نيومكسيكو. وأعمال النظافة في الفنادق الأمريكية.



ومع هذا كله فلازلت أرى أنه لا بد من أن يشعر المسلمون في كل مكان أن أمريكا ليست لغيرهم فقط، ذلك أن العالم الجديد كله نعمة من الله للعالم القديم كله. فإذا كان ولا بد من الحديث عن الحقوق التاريخية (على أساس أننا في عام ١٩٩١ التالي لعام الحقوق التاريخية) أو حقوق الاكتشاف فإنه من الثابت أن المسلمين قد اكتشفوا العالم الجديد في القرنين العاشر والثاني عشر الميلادى قبل كولمبس كما أن المسلمين السود دخلوا أمريكا منذ ١٥١٨ كمهاجرين لا كرقيق، وقد أفاض في تأصيل هذه المعانى جابر هاشم في كتابه MY NATION الذى صدر عن المطبعة الإسلامية في ١٩٨١.



ولا بد أن نفهم أن ظلم المسلمين الأفارقة وإحضارهم كرقيق لم يحدث في مطلع العالم الجديد وإنما بعد ذلك بقرن أو بقرنين وقد بلغ ذروته في الفترة ما بين ١٧١١ - ١٨١٠ على يد التجار البريطانيين والفرنسيين.



ليس هذا الكتاب مجالاً مستفيضاً لأحدثك فيه عن الدعاة إلى الإسلام وزعماء الحركات الإسلامية الحقيقية أو تلك الممولة للعمل ضد الإسلام.. ولكنى أستطيع أن

أدلك على مجموعة من الكتب تحدثك عن هؤلاء: فهناك كتاب «المسلمون في أوروبا وأمريكا» نشرته دار اريس للتأليف والنشر والترجمة والنشر للأستاذ علي المنتصر الكتاني ١٩٧٤ . وهناك كتاب «العرب في المهجر الأمريكي» للأستاذ عامر إبراهيم القنديلجي، نشرته وزارة الإعلام في بغداد عام ١٩٧٧ .

وهناك دراستان مهمتان للأستاذ كمال كامل نمر الذي يشغل منصب المشرف التربوي في الأكاديمية الإسلامية السعودية في واشنطن: الأولى بعنوان «أحوال المسلمين في أمريكا تريبوا»، وقد نشرتها في الدوحة عام ١٩٨٥ مؤسسة الشرق للعلاقات العامة للنشر والترجمة . والثانية تحمل عنوان «أضواء على أحوال خير أمة أخرجت للناس في الولايات المتحدة الأمريكية»، وقد نشرتها عام ١٩٨٦ دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت.. وهناك أيضاً كتاب «الجالية الفلسطينية في الولايات المتحدة الأمريكية، لرياض مقصود (١٩٨٠) . وهناك كتاب مهم يحمل عنوان «صورة العرب في أمريكا» للدكتور عبدالقادر أبو شريفة، نشر في شيكاغو عام ١٩٨٥ .

وفي فترة سابقة على هذه الفترات نشرت عدة دراسات وانطباعات هامة عن أمريكا لعل القراء يذكرون منها كتاب الأستاذ مصطفى أمين عن أمريكا (الذي أعيد طبعه مؤخراً في القاهرة) وكتاب الأستاذ سيد قطب الشهير، وأذكر بهذه المناسبة أنني التقيت في مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة حوالي عام خمسة وثمانين بأستاذة أمريكية كانت تبحث عن الحلقات الأصلية التي نشرها سيد قطب عن زيارته لأمريكا قبل أن يجمعها في كتاب.. يبدو، والله أعلم، أن حرص الدارسات الأكاديمية الأمريكية بلغ الحد الذي جعلهم يقارنون الحلقات الأصلية بما

نشر بعد هذا في الكتاب، ايدوا ما قد يكون سيد قطب قد حرص (افتراضياً) على
تعديله فيما بين النشرين!!

وقد نشرت عن هذا الكتاب دراسات كثيرة منها كتاب «أمريكا من الداخل
بمنظار سيد قطب، لصلاح عبدالفتاح الخالدي نشرته دار المنارة للنشر والتوزيع في
١٩٨٥.



ليس هذا الكتاب مجالاً لتحليل أو تلخيص هذه الكتب وإن كنت أود أن أتمكن من
ذلك عن قريب بعون الله، ولكنى لا أستطيع أن اترك هذا الموضوع دون أن آخذ
على الدكتور كمال نمر تحامله على «ولاس محمد». والهيئة الإسلامية الأمريكية،
فعلى الرغم من أن الدكتور نمر يشهد لولاس محمد بأنه قام بإصلاحات جذرية في
عقيدة جماعته، وأنه بادر إلى تغيير اسم الجماعة من أمة الإسلام أو البلاليين إلى
الهيئة الإسلامية الأمريكية The American Muslim Mission وأنه أعلنها صريحة مدوية
في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي سنة ١٩٧٧ في مدينة نيويورك أنه هو وأتباعه
جميعاً يشهدون منذ اليوم أنهم مسلمون سنيون يتبعون القرآن الكريم والسنة النبوية
المطهرة وطالب أتباعه بالصلاة والصيام والحج، وعلى الرغم من شهادة الدكتور
كمال نمر لهم بالقوة والنشاط، فعددهم يربو على مليون عضو ولهم إذاعة تنقل
دعوتهم لأعضاء الجماعة وللآخرين ولهم ١٥٦ مسجداً في ٣٩ ولاية وفي العاصمة
«واشنطن، على الرغم من كل ذلك إلا أن الدكتور كمال نمر شأنه، شأن كل
الأكاديميين، يتحفظ فيردف الحديث عن كل ذلك الخير بقوله: «إن هناك من ينظر
إلى هذه الجماعة نظرة ريبة وتوجس معتبراً أنهم منبثقون عن القاديانية وهي

جماعة مرتدة عن الإسلام،.. ولك ياسيدى الدكتور نمر أن تتحفظ ولكن أن يكون تحفظك هذا صادراً أو مؤيداً فحسب بعبارات الأستاذ الكتانى كما نقلت فأمر لا نستطيع أن نترك عليه لأن الكتانى نشر رأيه فى ١٩٧٤ وأنت بنفسك [الدكتور كامل نمر] الذى تنبهنا إلى ما أعلنه ولاس محمد (صريحة مدوية فى عام ١٩٧٧) .. إذا كان لابد ياسيدى وأنت تملك أداة البحث العلمى الحق أن تدلنا على حقيقة رأيك حتى لو كان متحفظاً.. أما أن تورد رأياً مخالفاً لرأى آخر لتعقب على الرأى الأول فحسب فأسلوب لا بأس به فى البحوث الأكاديمية ليظهر ما نسميه بالموضوعية، أو لينبىء عن كثرة مطالعتك للمصادر المختلفة متضاربة الآراء.. ولكنه يصبح قاصراً فى كتب من شأنها أن تحدث المسلمين عن عقائد إخوانهم المسلمين وتطورات هذه العقائد.



بقى أن أتحدث عن انطباعاتى عن الدعوة والدعاة وأكون مخطئاً إذا زعمت لك أن فى وسعى أن أتناول هذا الحديث باستفاضة أو فهم عميق، ولكنى مع ذلك أحب أن أذكر لك انطباعى المهم عن ضرورة إجادة اللغة الإنجليزية ومعرفة المجتمع الأمريكى ذلك أن الإسلام فى أمريكا لا يحتاج إلى دعاة من أولئك الذين يرون أنهم غير ملزمين بتعلم اللغة الإنجليزية لأن القرآن نزل بلسان عربى، ولأن لسان أهل الجنة عربى، أو من أولئك الذين يجدون كراهة فى تناول طعامهم بالشوكة..

أما المؤسسات التى تنظم عمل أولئك الدعاة فينبغى أن تكون أبعد ما تكون عن الولاء القومى!! طبعاً من الغريب أن تقرأ ياسيدى القارىء عبارة مثل هذه التى صدمتك بها لتوى! ولكن هذه هى الحقيقة التى لا بد أن نعرفها، فالدعوة لوجه الله

والولاء لدعوته ودينه ينبغي أن يكون الهدف الأول والوحيد لكل مؤسسة تعمل من أجل دعوة التوحيد.. فيما عدا ذلك فإن الولاء القومي والحزبي كفيلا بتحويل الأئمة إلى كُتّاب تقارير، والدعاة إلى موزعي منشورات حتى وإن كانت هذه المنشورات كتباً.

ومع أن طريق الدعوة الإسلامية في المهجر محفوف بكثير من المصاعب والمخاطر فإنني لا أشك لحظة واحدة في أنه سوف يلقى نتائج طيبة ربما بأكثر مما يتوقع العاملون فيه، والله غالب على أمره.

كتب للمؤلف

□ في التراجم

- الدكتور محمد كامل حسين (جائزة مجمع اللغة العربية) (طبعان) ١٩٧٨، ٢٠٠٣
- مشرفة بين الذرة والذروة (جائزة الدولة التشجيعية) (طبعان) ١٩٨٠، ٢٠٠١
- الدكتور أحمد زكى - (طبعان) ١٩٨٤، ٢٠٠٣
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل - ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض - ١٩٨٤
- الدكتور على باشا إبراهيم - ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمى باشا - ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا - ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية - ١٩٨٨

• اسماعيل صدقى باشا - ١٩٩٨

• سيد مرعى - ١٩٩٩

• يرحمهم الله - ١٩٨٤

• مصريون معاصرون - ١٩٩٩

□ دراسات أدبية ونقوية

• كلمات القرآن التى لانستعملها (طبعتان) - ١٩٨٤

• على هوامش الأدب - ٢٠٠٣

• أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى (طبعتان) - ١٩٩٠

• من بين سطور حياتنا الأدبية - ١٩٨٤

• فى ظلال السياسة: نجيب محفوظ الروائى بين المثالية والواقع - ٢٠٠٣

□ دراسات نقدية لكتب السير والمذكرات

• فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين - ١٩٩٧

• مذكرات وزراء الثورة - ١٩٩٤

• الثورة والحرية: مذكرات المرأة المصرية (طبعتان) - ١٩٩٥، ٢٠٠٣

• نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار (طبعتان) - ١٩٩٦، ٢٠٠٣

• محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء - ١٩٩٩

• الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث - ١٩٩٩

- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية - ١٩٩٩
- الطريق إلى الكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧) - ٢٠٠٠
- النصر الوحيد: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٧٣) - ٢٠٠٠
- في أعقاب الكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ - ١٩٧٢) - ٢٠٠٠
- على مشارف الثورة: مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ - ١٩٥٢) - ٢٠٠١
- في خدمة السلطة: مذكرات الصحفيين - ٢٠٠٢

□ أعمال موسوعية

- القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] - ١٩٩٨
- البليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء) - ١٩٨٩ - ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث - ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ - ١٩٥٢] : تعريف وفهرسة وتوثيق - ١٩٩٣

□ أدبيات التاريخ المعاصر

- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة - ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) - ١٩٩٥، ١٩٩٧
- المحافظون (طبعتان) - ١٩٩٥
- البيان الوزارى فى مصر [١٨٧٨ - ١٩٩٦] (طبعتان) - ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ - ٢٠٠٠] - ٢٠٠١

- قادة الشرطة فى السياسة المصرية [١٩٥٢-٢٠٠٢] - ٢٠٠٣
- كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صنع القرار السياسى - ٢٠٠٣

□ فى الفكر السياسى

- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً - ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان فى عصر جديد - ٢٠٠٣

□ فى الفكر التربوى

- مستقبل الجامعة المصرية - ٢٠٠٠
- آراء حرة فى التربية والتعليم - ٢٠٠١
- تكريم العقل العربى : مذكرات المفكرين والتربويين - ٢٠٠٣

□ فى الشؤون العامة

- القاهرة تبحث عن مستقبلها - ٢٠٠٠
- مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) - ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج فى مصر - ١٩٨٧
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار - ٢٠٠١

□ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] - ١٩٩٤
- أوام الحب [دراسة فى عواطف الأنثى] - ١٩٩٩

□ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم (ثلاث طبعات) - ١٩٨٩ ، ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- شمس الأصيل في أمريكا (طبعتان) - ١٩٩٤ ، ٢٠٠٣

□ في طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية - ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات - ٢٠٠١

المحتويات

٥ الإهداء
٧ مقدمة الطبعة الثانية
١١ شكر وتقدير
١٣ مقدمة الطبعة الأولى
١٩ الفصل الأول: هل تغيرت أمريكا
٦٣ الفصل الثاني: أمريكا تستعيد أم تستعير روح النصر
٨٥ الفصل الثالث: كليفلاند، المدينة والمجتمع

١٠٥ الفصل الرابع: في بيت عائلة أمريكية
١٣٣ الفصل الخامس: كليفيالاند كلينك: المكانة والمكان
١٦٩ الفصل السادس: في قسم القلب بكليفيالاند
 الفصل السابع: المسلمون في أمريكا طيف واسع من الألوان
٢٠٥ الجميلة
٢٢٥ كتب للمؤلف
٢٣١ المحتويات

شمس الأصبك في أمريكا

«وأنا أعرف أن مهمتي في كتابة رحلاتي شاقة عسيرة لأنني لا أصف الطبيعة كما فعل الذين سبقوني .. ولكنني أحاول أن أصف الحضارة ، ووصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة .. أما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب .. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة ، أن تكون جندياً قارب نيل الشاهدة وأثخته الحضارة بأثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها »